باروخ نادل

وتحطّمت الطائرات عند الفجر

ترجمة: توفيق شمعوني

الأهلية

وتحطمت الطائرات عند الفجر

الأهليّة للنشر والتوزيع

المملكة الأردنيّة الهاشميّة ، عمّان
وسط البلد ، خلف مطعم القدس
هاتف ٤٦٣٨٦٨٨ ، فاكس ٤٦٥٧٤٤٥
ص. ب : ٧٧٧٢ عمّان / الأردن
e - mail : alahlia@nets.jo

وتحطمت الطائرات
عند الفجر
باروخ نادل

الطبعة العربيّة الأولى ، ٢٠٠٣
حقوق الطبع محفوظة

تصميم الغلاف : **زهير أبو شايب** / الأردن

الصفّ الضوئي :
ياقوت للخدمات المطبعيّة ، عمّان ، هاتف ٤٦٥٧٨٦٩

All rights reserved.*No part of this book may be reproduced in any form or by any means without the prior permission of the publisher.*

جميع الحقوق محفوظة *. لايسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه ، بأيّ شكل من الأشكال ، إلا بإذن خطّيّ مسبق من الناشر .*

باروخ نادل

وتحطّمت الطائرات عند الفجر

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA مكتبة الإسكندرية

ترجمة: توفيق شمموني

الأهلية

رقم التسجيل ١٠٦٠٤٨

محتويات الكتاب

الجــزء الأول ٩

الرجل الطويل ١١
اللص المحترف ١٥
اللقاء الأخير ١٩
بين الحياة والموت ٢١
التخطيط النهائي ٢٥
سافك الدماء ٢٩
غيرة وخداع ٣٥
إلى باريس ٤١
احذر مكر النساء ٤٥
السفر إلى مصر ٥١
اللقاء مع مدير المخابرات المصرية ٥٥
العرض الكبير ٦١
المخبأ السري ٦٩
اللواء محمد نجيب ٧٥
عملية تهريب ٨١
الفخ ٨٥
الحقيقة الناصعة ٩٥
يجب التخلص من الشاهد ٩٩
صور وعبر ١٠٧
مشهد من المسرحية ١١٣
المفاجأة الكبرى في تل أبيب ١١٩
حديث مع الجزار ١٢٥
هل انتهت مهمتي ؟؟ ١٣٥
أضخم أسطول جوي في الشرق الأوسط ١٤٥
هيا إلى الميدان ١٥٣
الإحصاء ١٥٩

مع الرئيس في سيناء ١٦٣
فوات فرصة المبادرة ١٦٩
الاتجاه نحو الهند ١٧٧
حفلة صاخبة ١٨٧

الجـــزء الثـــانـــي ١٩١

السفر إلى الهند عن طريق تل أبيب ١٩٣
اللحظة الحاسمة ٢٠٣
انضمام العراق ٢٠٧
طوق الكماشة ٢١١
مناورة بالذخيرة الحية ٢١٥
مفتاح السر ٢١٧
الأوامر الأخيرة ٢٢٣
حبل المشنقة ٢٢٧
المخطط الجوي ٢٢٩
الجبهة السورية الأردنية ٢٣٥
جاسوس في الأردن ٢٣٩
أسلحة الفلسطينيين ٢٤٣
أسلحة الفلسطينيين ٢٤٧
دور نسائنا ٢٥٣
في أمسية الحرب ٢٥٩
نجوم في الظلام ٢٦٣
أمسية الحرب ٢٦٧
استنفار الطيران ٢٧٧
لم يبق من الرواية إلا الفصل الأخير ٢٨١
آخر الأخبار ٢٩٥
آخر اللحظات الحاسمة ٣٠١
وأخيراً تحطمت الطائرات ٣١١
خاتمة المطاف ٣١٧

مقدمـــة

■ كيف يمكن الوقوف على فهم الآخر، سؤال نتبعه بكل جموح نحو الخارج لكن المدركات الفاعلة التي تستدعيها عملية الفهم تجعل من السؤال متطلعاً وبكل قوة نحو الداخل هذا بحساب البحث عن الحالات الثورية الكامنة في ذواتنا ومدى رصد درجة الانعكاس للمعاني القائمة فينا، انطلاقاً من الإحساس بالتجربة وطريقة التفاعل معها وحالة التعايش الذي يمكن أن تتركه في الذات والأمر برمته لا يتوقف عند المكونات النفسية بقدر ما يكون بالجانب المعرفي الذي يكون بمثابة الأداة الناجحة نحو الفهم من خلال توسيع مجال فهمنا الذاتي، ولعل الأهم في كل هذا يبقى مستنداً قائماً على الطريقة التي تسعى فيها الذات نحو بناء المعنى من خلال تكثيف الجهد نحو ترصد الدلالات التي تفرزها النصوص.

فيّض لأصحاب المناهج الحديثة من توجيه جهودهم المعرفية نحو تركيز مجالات الفصل بين الفكر والممارسة باعتبار تعميق أثر التجربة ومدى الفائدة من الدرس وتعميق دلالة العلاقة في صلب التجربة الحية من دون الدخول في متاهات النظريات والتجريدات التي يحفزها الفكر ومن هذا المنطلق كان الحفز نحو تعميق مجال الفهم عبر توجيه مجال النظر نحو فهم النص الذي يؤسس له المؤلف من خلال الفهم الذي يكتنز به الذات.

تعكس حالة الصراع العربي الصهيوني عن حالة من الازدواج الذي يصل إلى التعقيد لا سيما عندما يتعلق الأمر بطريقة التعبير التي تكتنف الخطاب المتداول لكلا طرفي الصراع وإذا كان البعض يسعى نحو الإمساك ببعض ملامح الاشتراك الذي تنتجه تفاصيل الحياة فإن

مسألة الفهم بكل عمومها حيث السعي نحو الكشف عن المعطيات المعرفية تكون بمثابة الحافز الأول نحو تركيز عملية الفهم في صلب وعي المؤلف وتوجيه مختلف الإجراءات والإمكانات المتاحة من مواقف واستعدادات على المستوى الذاتي بلوغاً نحو فعل التفسير الذي يكتنف النص.

حالة التشكل الكاذب التي تقوم عليها دولة إسرائيل تجعل من الأفراد المنضوين تحت لواءها يسعون نحو تدريج ملامح خطاب خاضع للتقوصات التي تهرب منها مسوغات البُعد الواحد في التفكير حيث العسكرتارية تكون على أشدها فيما تكون المؤامرة فاردة جسدها الثقيل على مجمل الخطاب قولاً وكتابة ومن هذه الملامح يبرز مجال التهويل والمبالغة إلى حد الإفراط المفضي إلى التفريط بالأسس المنطقية التي تقوم عليها عملية الفهم بل إن الجانب الاستعراضي يكون الفاعل الأبرز في النص الذي بين أيدينا باعتبار تكريس الجهود نحو اللعب على الحقائق والعمل على تشويه الوقائع إلى الحد الذي تغدو منه الغاية القصوى في مكونات العقل الصهيوني ومن حالة الانقطاع التي تعمل المؤسسة الصهيونية على تعميقها داخل مضمون الخطاب، يكون التآكل والانحطاط في هذا الجسد العقيم.

الجــزء الأول

الرجـل الطويـل

٢٢ تشرين ثاني ١٩٥٤

▣ الرسول الذي جاءني امس، قال لي جملة واحدة فقط: (إن فيشل الطويل، يريد مقابلتك)، ولكن هذه الجملة كان لها أثرها الكبير أكثر من الأحاديث التي تستغرق ساعات كثيرة.

مضت سنتان على تركي أعمالي السابقة التي كنت خلالها التقي بفيشل الطويل من حين لآخر. وكنت ارجو أن انقطع عن لقائه ولا احتاج إليه، ولكن إذا كان فيشل الطويل يطلب منك الحضور فعليك أن تنفذ وليس السبب قوته إذ أن فيشل لاندسبرغ الذي يدعى اليوم أساف ليفي ليست له سوى قوة محدودة، ولذا لم اكن اخشى فيشل، رجل المخابرات، الذي كان مجرد ذكر اسمه يلقي الرعب في قلب كل من يتصادم معه. وإذا كنت قد ذهبت لمقابلته فليس لأنني أدعوه باسم (أساف ليفي) بل لأنه كان بنظري وسيظل فيشل الطويل الرجل الذي أمرني بتشكيل محكمة ميدان داخل بيت مهجور، ولأنه ذلك الرجل الذي دافع عني، حينما جرت محاكمتنا بتهمة تشكيل محكمة الميدان وتحمل جميع المسؤوليات، والاتهامات إذا كانت هناك اتهامات.

وبعد ذلك واصلت العمل في خدمته مدة أربع سنوات كاملة، حتى اقيمت جميع الدوائر، وعندها ادركت اني أصبحت رجلاً غريباً، ذهبت إليه وطلبت منه الإعفاء، فوافق.

إن فيشل لم يتغير طوال المدة التي انقطعنا فيها عن بعض. بل إنه لم يتغير فيه شيء فقد كنت أعرفه. ففي الماضي البعيد حينما كنا شباباً لم يكن يبدو الشباب على فيشل، ومع ذلك فلم يكن يبدو عليه الكبر، وأعتقد أنه لن يبدو عليه العجز حينما نصبح نحن في سن العجز. لأن جسمه الطويل المنحني قليلاً ووجه النحيل، فوهة أنفه الكبير، كل هذه الأشياء كانت تعطيه منظر طير جارح من تلك الطيور التي ليس للأيام حكم عليها.

والحقيقة كان فيشل طيراً جارحاً، طيراً لم يعرف منقاره الشبع ولا الرحمة، في كل ما يتعلق بذلك المجال الغامض السري الذي يطلق عليه بشكل عام (الأمن) وإذا شم فيشل بمنقاره رائحة عفونة، لن يتركها إلا بعد أن يقضي عليها ويعرف أسبابها.

وعند مقابلتي إياه، نهض من مكانه واستدار من وراء مكتبه وشد على يدي مصافحاً محيياً. ثم سألني عن (نعومي) فأخبرته أنها بخير. تفحصني فيشل بعينيه ملياً، وحينما أدرك أنني لن أدخل معه في حديث ودي، فتح الدرج الأوسط من مكتبه وألقى إلى بقصاصة ورق، وكانت قصاصة من صحيفة يومية. وقال لي: اقرأ بصوت مرتفع. قرأت: شخص مجهول، حاول أمس السطو على بنك الإعمار في شارع الملوك بتل أبيب، فلقي حتفه برصاصة من حارس البنك. وقال الحارس أنه في الساعة الواحدة ليلاً سمع حركة مشبوهة باتجاه الصندوق... الخ، وانتهى الخبر بالجملة التالية: لم يعثر بحوزة اللص على ما يكشف هويته، وتتولى الشرطة التحقيق لمعرفة ذلك، أنهيت القراءة، ووضعت قصاصة الجريدة على المكتب، وتطلعت إلى فيشل الطويل، وقلت:

أمر مثير للاهتمام حقاً، ولكن ما هي علاقة ذلك بي؟

وضغط فيشل على جرس في مكتبه ففتح الباب ووقفت فيه شابة وقالت:

نعم يا سيد ليفي.

قال: أخبريهم بأن يقدموا لنا شيئاً من الشراب وشيئاً للأكل.

ثم قال لي والفتاة تدير ظهرها خارجة:

كيف تبدو لك هذه الفتاة؟ قلت باستغراب: من؟ وأشار فيشل برأسه إلى ما ورائي فاستدرت وشاهدت الفتاة. كانت جميلة ومثيرة وشهية. وقلت بصدق: (جميلة جداً)، فاحمر وجه الفتاة خجلاً، وغادرت مسرعة. وسألني فيشل في موضوع آخر قائلاً:

ما رأيك بغرفتي؟

قلت: جميلة جداً، ورائعة حقاً.

ثم قال: ولكنها لم تعد مناسبة لي ولا أنا مناسب لها، سأذهب قريباً، فقد انقضى على ما يبدو عصر الأشخاص القدماء، وأنا بدأت الوظيفة سنة ١٩٣٦ فقلت باقتضاب: كل إنسان يعرف ذلك.

إن فيشل لم يستدعني من غرفتي الصغيرة الموجودة في نهاية المستعمرة الواقعة عند أسفل جبال جلبواع لهذا الغرض فقط.

ولقد صدق حدسي إذ قال فجأة،

نحن نواجه وضعاً خطيرا، وتعلم ماذا أصابنا في القاهرة، فقلت:

العالم كله يعلم ذلك، وجميع الصحف تكتب عنه ومن السخف القول بأن ذلك سيجلب الشرف لمخابراتنا.

وسدد إليّ فيشل نظرة صارمة وكأني بمنقاره يريد أن ينقض علي وينقر وجهي وقال:

وهل تعتقد أنت أنني موافق على ذلك العمل؟ قلت: كلا، فحينما قرأت عن ذلك في الصحف كنت أتصور انك لم تعد رئيساً للمخابرات، ثم قلت بعد برهة من التفكير: يا فيشل ماذا بشأني أنا.

وهنا فتح الباب مرة أخرى، ودخلت امرأة بمريول أبيض تدفع أمامها عربة عليها أواني الشراب، واقتربت بالعربة إلى الطاولة وبدأت تضع عليها الأواني بينما كانت هي نفسها محشورة بين العربة وبيني، وكأنها تعطيني الفرصة لأحس بثنايا جسدها من تحت الفستان. ثم دفعت العربة إلى الوراء قليلاً وراحت تسكب الشراب لنا، وكانت تستغل لحظة تقديمها الشراب لي لتلقي بجسدها اللين على كتفي. ولم أشأ أن أحرك كتفي من تحتها،

وإنما نظرت إلى فيشل، تاركاً الفتاة تداعب ظهري قيلاً، وانتظرت حتى خرجت وأغلقت الباب ثم قلت:

نعم وماذا بعد؟

ومر فيشل بأصابعه على شعره، ولكنه لم يكن لهذه الحركة أي معنى ذلك لأنه لم يتبق له من الشعر شيئاً، وقال:

إن كل ما بنيناه هناك طوال سنوات عديدة قد انهار وتلاشى، واضطررنا أن نبعد من هناك رجالنا حتى أولئك الذين لم تكن لهم صلة بتلك الشبكة. وذلك لأنه أصابهم الخوف، وحين يصاب العميل بالخوف يكون من الأفضل استبعاده قبل أن يسلم نفسه ويعترف.

وسدد فيشل إلي نظرة تأملية، ولكنني كنت أعرف أن فيشل لا يتأملني وإنما يعد لي مفاجأة يريدها أن تقع علي كالصاعقة. وأردف:

إن الرجل الذي قتل في البنك لم تستطع الشرطة التعرف عليه فلجأت إلينا تطلب المساعدة، وقمنا بالتحقيق في القضية بكاملها.

وصدفة أثار اهتمامي موضوع معين وعاد من جديد يفتح درج مكتبه وأخرج منه مجموعة من الصور ونشرها على المكتب امامي، وألقيت عليها نظرة خاطفة، ثم بدأت أمعن النظر فيها. كانت صوراً كبيرة فيها بعض الشطوب، وعرفت أنها صور مكبرة عن صور صغيرة وصور بعض الأشخاص كانت مأخوذة عن صورة هوية أو أية وثيقة أخرى، شاهدت بينها صورة رجل في حوالي الثلاثين من عمره ذو سحنة شرقية، ولكنه ليس بعربي، وكذلك ليس بيهودي، وصورة أخرى لنفس الشخص منفرداً، وصورة ثالثة له مع امرأة جميلة في وسط غابة.

قلت وأنا أحاول أن أبدو غير مكترث بالأمر:

وهل هذا هو اللص؟

فأجاب فيشل مسلطاً نظراته على عيني، تماماً: كان ذلك هو اللص، ولكن منذ الغد صباحاً، ستكون أنت اللص.

اللــص المحتــرف

٢٢ تشرين ثاني ١٩٥٤

▣ كانـت اعضـاني مـتجمدة، كـسجد ميـت، وكـنـت أعـرف انه ليس بمقدوري أن أعـارض (فيشـل الطويـل)، هـذا الـرجل الـذي لا تعـرف الإنسـانية طـريقاً إلى قلـبه اثناء العمل الـرسمي، ولم يكـن يعـرف سوى النصر بأي ثمن في المعـركـة السرية الدائمة قلم المخابرات. وما كـان ينتهي من نصر حتى ينتقل إلى معـركـة أخرى لتحقيق نصر جديد وهكذا باستمرار، ولـهذا كـان فيشل يرى في الـنـاس مجرد أدوات لتحقيق أهدافه.

(انظر في هذه المرآة)

قـال فيشـل مشيراً إلى مـرآة كـبيرة معلقـة عـلى الحـائط، ونظـرت، فرأيـت وجهي فيها يستطيل، ويتضخم، كـان مخيف الشكل،

والآن انظر إلى هذه المرآة.

قالهـا فيشـل وهو يشير بيده إلى مرآة أخرى بجانب المرآة المكبرة، وفي مقابلـها صورة لص البـنـك. وانتقلـت بـنظري بـين المـرآتين وعيـناي لا تصـدقان مـا تـريان. كـان فيشـل يمسـك بصـورة اللـص قريـبـاً مـني بحيـث يتعذر علي ان ارى صورتي في المرآة العادية، وإنما كـنت أرى

صورة الرجل الغريب الميت، اللص. فقد كانت صورة وجهي في المرآة المكبرة، تماماً كصورة اللص.

ثم قال فيشل: إن والده تركي ووالدته أرمنية، ولهذا فإن اسمه آرام أنوير. إنه اسم أرمني تقليدي. أب تركي وأم أرمنية. وتزوجا سنة ١٩٢٣ هذا يذكرنا بآلاف النساء الأرمنيات اللواتي اغتصبهن الجنود الأتراك في زمن طرد الأرمن، قبل ثماني سنوات منذ زواجهما، وربما كان هذا مجرد عملية اغتصاب.

واستطرد فيشل قائلاً:

المفروض ان تكون انت ابناً لهما والمفروض أيضاً انهما افترقا عن بعض بينما كان عمرك عشر سنوات، وبعدها أدخلت مدرسة داخلية قرب مدينة (أزمير)، وستجد تفاصيل أخرى واهية عن حياتك في الإضبارة التي سأعطيك إياها. المهم ان تعرف أن والدك قد مات قبل ٦-٧ سنوات، تاركاً لك أملاكاً بسيطة، وكان والدك تاجر مواد فنية ولكنك أنفقت جميع ما خلفه لك والدك وبدأت تعمل في أعمال مشبوهة.

ابتداءً من يوم غد سنبدأ بإعدادك بشكل عام لتظهر أول مرة على الناس ثم تختفي لمدة أسبوع وتدرس اللغة التركية وبعض كلمات من اللغة الأرمنية ثم تتسلم عملك.

قلت لفيشل:

وهل أستطيع خلال اسبوع واحد أن أدرس اللغة التركية وأسافر إلى تركيا كرجل تركي.

قال فيش:

لن تسافر إلى تركيا، فإن أذكى إنسان لا يستطيع خلال أسبوع أن يدرس لغة غريبة ويظهر بمظهر أهلها.

قلت: إذن إلى أين سأسافر؟

قال: إلى باريس، وهناك تجري اتصالات مع تجار الأسلحة، وتتحول إلى سمسار أسلحة، سمسار كبير، لأسلحة كبيرة: مدافع وأجهزة رادار وطائرات.

قلت: ولمن سأورد تلك الأسلحة؟

قال فيشل بصوت صادق لأول مرة منذ بداية الحديث: آمل أن يكون (آرام أنوير) من النشاط والذكاء بحيث يصبح مورد سلاح لسلاح الجو المصري.

اللقــاء الأخيــر

٢٢ تشرين ثاني ١٩٥٤

▣ أنا آسف، قال فيشل: (وكأنه قادر بالفعل على الأسف): ولكن (آرام أنوير) غائب عن الدنيا منذ أسبوعين، وأن أمامك أسبوع للاستعداد وسنحاول إعطاءك خلال ذلك معلومات أخرى. وبعد أن تقيم شهراً في باريس آمل أن تتمكن من السفر إلى تركيا لتنهي جميع أعمالك هناك.

قلت: ولكن صديقتي نعومي حامل.

قال: منك؟

قلت: نعم وإننا نريد طفلاً.

فسحب فيشل ورقة من أمامه وقدمها إلي وقال لي اكتب:

عزيزتي نعومي،

وهنا توقف عن الكلام وضغط على جرس موجود في طاولته ثم سألني: ما هو اسم الدلع الذي تدلعها به؟

قلت: (نيني) وفي غضون ذلك دخلت إلى الغرفة الفتاة التي سبق أن قدمت لنا القهوة. ورفع فيشل إصبعه وقال للفتاة:

هذا الرجل، أنت حامل منه.

ورحت أنقل نظري بين الاثنين، فيشل والفتاة، باستغراب واكتسى وجه الفتاة بحمرة الخجل، ولكنها لم تنطق بكلمة بينما واصل فيشل الكلام قائلاً:

والآن هو يكتب لك رسالة، يشرح فيها أنه ينوي قطع جميع علاقته بك، وربما يترك البلاد أيضاً ولذلك أصغي جيداً لما أقول.

نيني عزيزتي...

لقد فكرت كثيراً في الأيام الأخيرة في مستقبلنا، ووصلت إلى نتيجة بأني لست الرجل الذي يستطيع أن يحقق لك السعادة. واقتربت الفتاة مني وحركت رأسها نفياً وقالت:

إنني آسفة ولكن يبدو هذا الكلام مصطنعاً بعض الشيء. فالمفروض أن يتكلم قليلاً عن الحب، هكذا يفعل الرجال قبل أن يتركوا صديقاتهم.

وعاد فيشل يملي علي الرسالة من جديد وأنا أكتب ثم توقف وقال لي: خذ الرسالة معك سنستريح لمدة ساعتين، وستقوم (روثي) بتعريفك على الفندق الذي ستنزل فيه، وهناك اطلب من الفندق ورقاً واكتب الرسالة عليه، وضع للرسالة تاريخ يوم غد وسلمها إلى روثي، وسنقوم نحن بإرسالها في الوقت المناسب. والمفروض أيضاً أن تكتب رسالتين إلى والديك، إحداهما تحمل تاريخ يوم غد وعليك أن تشير فيها إلى أنه من المحتمل أن تغادر البلاد، ورسالة أخرى سنقوم نحن بإرسالها بعد أسبوعين من روما. وسنقول إنها منك، وأنك مرسلها من روما ولذلك عليك أن تصف في الرسالة مدينة روما بشكل عام، كما أننا سنلتقط لك صورة في لباس جميل على أنها مأخوذة لك في روما واعلم أنها ستكون آخر صورة لك يا (إينرجاك).

نظر إلى ساعته ثم قال: سنلتقي في الساعة الثانية والنصف ثم قال للفتاة:

عليك بانتظاره في الخارج.

ولما خرجت نعومي من الغرفة قال لي:

تستطيع أن تعتمد عليها في كل شيء، ولكن لا تحدثها عن شيء، سنلتقي في الساعة الثالثة قرب المستشفى البلدي من الخلف لنقول أنك خرجت من هناك.

بين الحياة والموت

٢٢ تشرين ثاني ١٩٥٤

■ والآن عندي فتاة، فتاة حقيقية، ومنذ عدة أشهر نسكن معاً في غرفة واحدة، ولقد لمح لي الأصدقاء أكثر من مرة بأنه لا يجوز في أيامنا هذه أن يسكن إنسان مع فتاة في غرفة واحدة بدون أن يتزوجها. وهذه الليلة أخبرتني (نعومي) بأنها حامل. يبدو أنها كتمت السر مدة طويلة حتى قررت الليلة الإفصاح عنه، وبعد الزيارة التي قام بها الرسول إلي أدركت أن عالمي الصغير الذي شيدته بالجهد في نهاية المستعمرة والواقعة عند طرف السهل، قد خرب وتلاشى، وأحست نعومي بذلك بدون أن أخبرها بشيء فقررت أن تحاول وتجرب إنقاذ عالمنا الصغير.

ارتديت ملابسي بأناقة، ثم ألقيت نظرة على (نعومي) النائمة في الفراش وقلت لها: هيا يبدو أنني ساكتب لك رسالة حقاً. وحاولت نعومي أن تحافظ على هدوئها وقالت: أية رسالة؟ فقلت لها:

الرسالة التي تحدث عنها فيشل ذلك الذي قال لك بحضوري ومشيراً إلي، هذا الرجل جعلك تحملين منه والآن يكتب لك رسالة وبالمناسبة هل فعلاً قال لك فيشل أن عليك أن تنامي معي، في فراش واحد؟ قالت: كلا، ولكن... فهدأت من روعها قائلاً:

لا بأس فإنني أعرف فيشل منذ وقت طويل، وأنا أصدقك، ومع ذلك آمل أن تكوني قد استمتعتي بعض الشيء، وإذا كان فيشل قد قرر أن تنامي معي، فليست هناك أية أهمية للموضوع من وجهة نظرنا نحن، فالأوامر أوامر، وعلينا أن ننفذها. وسأذهب الآن لمقابلته، وعليك أن تنتظري هنا. فوافقت نعومي وقالت: إنها ستذهب لشراء تذكرتي سينما لنخرج بعد المقابلة لتمضية بعض الوقت.

قادنا الحارس (أنا وفيشل) إلى غرفة في الطابق الأرضي، وهم خارجاً ولكن فيشل أمره بأن يغلق علينا الباب من الخارج، وأن يعود إلينا بعد مضي ساعتين، وعليه، خلال ذلك أن لا يسمح لأحد بالدخول. سألت فيشل عما سنفعله في هذه الغرفة لوحدنا طوال ساعتين، فقال لي:

تعال معي، فسنقوم في البداية بإخراجه، أو بإخراجك أنت.. إذا أردت[1].

كانت الجثة باردة للغاية وكأنها كتلة من الجليد، ألقينا بها على الطاولة في وسط الغرفة، وطلب إلي فيشل أن أتفحص الجثة جيداً وأذكر بصوت مرتفع أية علامة مميزة أراها في الجثة. وقال لي أنه سيقرر بعد ذلك كيف سيهتم بأمري ويجعل منا (أنا والجثة) شبهاً واحداً في كل شيء، ما عدا برودة الموت طبعاً.

وبدأت أذكر بصوت مرتفع العلامات التي أعتقدها مميزة في الجثة.

قلت أولاً: إنه مطهر (أي أجريت له عملية ختان).

قال فيشل: بالطبع فهو مسلم.

قلت: طوله يقارب طولي إلى حد ما.

قال: صحيح، طوله ١٧٧ سم يبدو طويلاً بعض الشيء ولكن هذا الطول لا يثير الاهتمام.

قلت: حجم الجثة يشابه حجم جسدي.

قال: صحيح فلكما نفس الوزن.

---

(١) إخراج جثة اللص.

ثم انحنيت قليلاً فوق الجثة وقلت: أرى على الجثة أثار دمل أو حروق أو آثار عملية جراحية.

قال فيشل: لا يهمك، سنحفر على جسدك مثل ذلك.

قلت: يبدو انه ذو شعر اكثف من شعري مع فارق بسيط في اللون.

قال: لا بأس، سنقوم غداً بصبغ شعرك بنفس اللون قبل ان تذهب لتحل محله في الفندق الذي يفترض ان يكون نازلاً فيه.

قلت: الأنف - أنف الجثة - يبدو اجمل من أنفي، فهو ليس سامياً وإنما يشبه الأنف الروسي قليلاً.

قال فيشل: لقد ورث أنفه عن أمه، انظر إلى صورتها في الإضبارة، إنها جميلة.

قلت:

- شاربه ادق وأكثف من شاربي، أما فمه فيشبه فمي ومع أن فكي أعرض من فكيه بعض الشيء، ولكني واثق أنك ستجد السبيل إلى ضغطهما قليلاً ليأخذا نفس شبه فكيه.

حينما دخلت الغرفة مع فيشل لم تكن حالتي النفسية جيدة ولم تتحسن خلال وجودنا في الغرفة، ولم أستطع أن اتخلص من الشعور بأنني حينما ساحل محل هذا الرجل (الجثة) اللقاة هنا فإنني في النهاية ساحل محلها بالتمام والكمال وأكون ملقياً، بعد وقت ما على مثل هذه الطاولة، وقد أصبحت جثة باردة مثلها. وواصلت ذكر أوصاف الجثة.

قلت:

إن له جبهة عريضة جميلة، لكن لي جبهة مثلها، العيون عسلية ويمكن القول أن عيوني عسلية ايضاً. ونظرت إلى كفيه فكانا أنعم من كفي وأصغر.

قال فيشل:

- هذه مشكلة، بعد الوجه ياتي الكفان من حيث سهولة التمييز وهما يثيران الانتباه. إن وجه الإنسان وانتصاب قامته وحتى حركاته يمكن أن تتغير مع الزمن وأما الكفين فلا يتغيران واعتقد اننا لا نستطيع ان نفعل كثيراً لتقريب الشبه بينكما في هذه النقطة، ومع

ذلك سنجري بعض التجميل لأظافر طويلة مستعارة، ولن يستطيع تمييز ذلك إلا من كان يعرفك جيداً، ولذلك عليك أن تحذر النساء، فإن أية امرأة سبق أن نامت معك، ويبدو لي أن جميع نساء المنطقة القريبة كان لهن نصيب في مضاجعتك ولو مرة واحدة على الأقل، تستطيع أن تتعرف وتتذكر كفيك. وعندما تزور تركيا أو أي مكان آخر يجب أن تتجنب، وتحذر النساء اللواتي يعرفنك من قبل.

ثم قال فيشل:

- والآن سنقلب الجثة على وجهها، لتقوم بتفحصها من الخلف..

وما أن قلبنا الجثة حتى بان على الظهر آثار دمل آخر أو ما شابه. فرد علي فيشل قائلاً: إنها آثار رصاصة من سلاح خفيف، ولا أدري من أين جاءه هذا الشرف، قالها بتهكم.

وقلت: (وأنا أعرف سلفاً ما ينويه فيشل بالطبع):

- تستطيع أن تجد الشخص الذي يمكنه أن يحفر نفس العلامة على ظهري، ولكن أرجو أن توصيه بأن لا يجعل الرصاصة تدخل في جسدي وتقتلني.

ثم قمنا بإلباس الجثة ملابسها التي احضرها فيشل معه في حقيبة صغيرة، ولكننا عجزنا عن وضع الحذاء في قدميها، ثم أوقفنا الجثة وأسندناها إلى الطاولة.

كان ذلك الميت في ملابسه الأنيقة، وقميصه الأبيض، يبدو رجلاً في غاية الأناقة وحسن المظهر مع أن بشرته كانت شاحبة بعض الشيء. وقال لي فيشل:

- انظر إلى الجثة جيداً، فلن تعود إلى هنا مرة أخرى قبل أن تغير مظهرك.

حينما دخلت غرفتي في الفندق، وجدت فيها نعومي متمددة على السرير يستر جسمها البض غطاء وردي، ومقابلها على كرسي وثير كانت تجلس روثي. لم تقل كلمة. وإنما نهضت ونظرت إلي ولطمتني بكفها بقوة وخرجت من باب الغرفة بعد أن جذبته بشدة محدثة صوتاً مدوياً. واحسست أن يداي وأصابعي تكاد تتحجر وإنني بعد قليل سأفقد السيطرة على نفسي، فقلت لروثي بصوت هادئ مهدداً خلته يخرج من حلقي مجمداً كجثة ذلك الميت في الثلاجة الكبيرة: اخرجي ... اخرجي فوراً قبل أن أقضي عليك.

التخطيط النهائي

٢٣ تشرين ثاني ١٩٥٤

▣ أسند فيشل نفسه إلى الخلف على الكرسي، وكسا وجهه بتعبيرات متأملة وقال بهدوء: هيا اعد كل شيء، ولا تسرع. فلا يزال أمامنا متسع من الوقت. قلت له وأنا اشير إلى حقيبة جلد سوداء مليئة بالوثائق والمعلومات الخاصة بي وبأوصافي وتاريخ حياتي، أصدقائي.. أقاربي، ومعلومات عن أملاكي، عاداتي، وطباعي، سآخذ كل هذه معي إلى الفندق في حيفا، وسادرسها خلال أسبوع وكل ما أنتهي من شيء أتلفه بواسطة المادة الخاصة الموجودة داخل انبوبة مغلقة في المحفظة الصغيرة. غير انه يجوز لي أن أنسخ بعض الأسماء الهامة وأسجلها في مفكرة صغيرة بشكل يبدو للآخرين بأنني أقصد الاحتفاظ بعناوين أصدقائي. سأكتب كل شيء باللغة الإنجليزية مؤقتاً حتى أتعلم اللغة التركية. وأثناء وجودي في حيفا علي أن ابتعد عن مقابلة الأجانب الذين يمكن أن يتعرفوا عليّ بعد سنوات ويعرفوا أنهم التقوا بي بإسرائيل، وخلال الأسبوع الذي أمضيه في حيفا سأتعرف على نفسي ويتولى رجالك تعليمي التركية وبعض الكلمات الأرمنية وقليلاً من الفرنسية التي ألم بها إلى حد ما. بعد ذلك أطير إلى سويسرا بجواز سفري القديم الذي يحتوي على فيزا إسرائيلية، وبواسطة الجواز القديم الذي يكون ممتلئاً بالأختام أستخرج من القنصلية التركية جواز سفر جديد، اما جواز السفر القديم فاسلمه لواحد من رجالك ليقوم بتغيير اسمي فيه واضعه في صندوق خاص بالبنك، لأعود وأستخدمه في السفر إلى إسرائيل وأحصل على تأشيرات

الدخول إلى إسرائيل من القنصلية الإسرائيلية في ريا، حتى يظل جواز سفري الجديد معي في وقت واحد.

ومن سويسرا أطير إلى باريس، وهناك في فندق (هيلتون) يتصل بي شخص من عملائك بواسطة كلمة السر (الشاة مخصصة للذبح) يتكلم معي بالإنجليزية وأرد عليه بها وأقول له (انا هو الشاة) والمفروض أن يكون ذلك العميل لا يعرف عني شيئاً ما عدا أن من واجبه أن يساعدني ويمدني بالمال. وأحاول أن أبحث عن منزل ولكن لا أجد منزلاً يروقني. فاحاول أن ابحث عن منزل افضل، وخلال ذلك يترك لي العميل بطاقة ما في الفندق. وعلي أن اذكر في كل مناسبة بانني أعتزم ان انهي أعمالي في تركيا وأنتقل إلى باريس.

إن معظم وقتي في باريس ساكرسه لدراسة اللغة التركية، وبعد أسبوع أعود إلى سويسرا، وأستبدل جواز السفر الجديد بجواز السفر القديم لأسافر إلى إسرائيل وحينما أستبدل جواز السفر أقوم بتغيير لون شعري حتى لا يستطيع من يراني في إسرائيل أن يتعرف علي في الخارج. وفي كل مرة أعود فيها إلى إسرائيل أدع شاربي يكبر ويتهدل. وفي أول مرة أزور فيها إسرائيل اقوم بالاتصال بك فوراً، أما في المرات القادمة فاقوم حال وصولي باستئجار غرفة، ليس في فندق، وإنما في مكان آخر باسمي المذكور في جواز السفر القديم. ويجب علي أن لا أغادر الغرفة إلا لمقابلة المسؤولين عني. وبعد أن أستقيل من الخدمة أو أحال على التقاعد يجب أن لا أنتقل من مسؤول إلى مسؤول، لأظل معروفاً لأقل الناس عدداً. وإذا طلب مني مسؤول جديد مهمة ثانوية أرفضها بإصرار. وفي باريس يقوم عميلك بإيجاد اتصالات أولية لي مع الطبقة الرفيعة ثم أعود إلى تركيا وانهي أعمالي فيها، ثم أتصل بمهربي السلاح وأطلب منهم أن أتصل بمهربي السلاح في باريس وأسافر إلى باريس ومعي عناوين المهربين وتجار الأسلحة، ولكني لا أباشر العمل، وإنما أسعى لإقامة علاقات بالطبقة العالية وبعد مدة تعطيني أنت إشارة البدء في العمل. وأباشر العمل بربح بسيط لأكون مصدر اجتذاب وإغراء. ومع ذلك أحاول أن اجمع ما أستطيع من المال، بشرط ان لا أبيع السلاح إلا لإخواننا المسلمين. وبعد ذلك يقوم عملاؤك بفتح الأبواب العالية أمامي وأسعى للوصول إلى التجارة في كل ما يتعلق بالطائرات كقطع الغيار والمدافع المضادة للطائرات وأجهزة اللاسلكي والرادار ومدافع الطائرات والذخيرة والطائرات نفسها. وهنا سألني فيشل: ماذا عن دينك الجديد؟

قلت: بالأصل، انا لست متديناً شديداً فانا اشرب الخمرة واضاجع النساء، ولكني سأتعلم اصول الدين، الصلوات الهامة والكتب الدينية وحينما اتعرف على أوساط إسلامية في باريس اتظاهر امامها بأداء بعض الشعائر الإسلامية وسيقوم احد عملائك بتدريبي على ذلك. وحينما اصل إلى مصر، هذا إذا وصلتها، سافسح المجال لأصدقائي هناك في أن يلقنوني مزيداً من أصول الدين.

سافك الدماء

٢٣ تشرين ثاني ١٩٥٤

■ نهض فيشل من مقعده وقال: حسناً، ثم أخرج ملفاً وألقى أمامي بصورة كبيرة فسألته: إذا كانت هذه الصورة له، فقال: كلا، ليست لي وإنما هي لشخص في مركزي ولكنه موجود هناك في الجانب الآخر.

ثم أردف قائلاً:

انظر جيداً إلى شكله، وتذكر دائماً أن تكون حذراً منه، في جميع الظروف والمناسبات. تفحصت جيداً ذاك الوجه المستطيل والعينين المتقدتين بنار غريبة، وأنف النسر المعقوف، والشفتين الرقيقتين، والفكين الضيقين، والجبهة العريضة. وسألني فيشل:

أي انطباع يخلقه فيك؟

ثم أخرج صورة ثانية وفيها يبدو نفس الرجل في الصورة الأولى ولكن واقفاً قرب سيارة عسكرية في اللباس العسكري، يبتسم، وبجانبه ضابط شاب، أسود الشعر، أصبح مع الأيام أشهر ضابط في الجيش المصري. وسألت فيشل:

في أي مكان التقطت لهما هذه الصورة.

قال: في جيب الفالوجة، والاثنان وقعا في أسر قواتنا، ولكن أفرجنا عنهما.

واخرج فيشل صورة ثالثة وفيها كان الرجل جالساً في قاعة كبرى للاحتفالات وهو يرتدي بدلة أنيقة يبدو اكبر سناً وجبهته العريضة تحولت إلى صلعة كبيرة. قلت معترفاً انه مخيف، فصورته وهو في جيب الفالوجة تبين انه شاب واثق من نفسه بالرغم من أنف النسر الذي يملكه والذي يشبه أنفك إلى حد ما كما أن نظراته المحددة الشبيهة بنظراتك أيضاً، تلقي الرعب فيمن يتطلع إلى الصورة. اما في الصورة الثانية فيذكرني بديزرازنسكي أول قائد للمخابرات البولشيفية وهو شاعر رقيق النفس الذي أعدم امام الناس بدون تردد، بل ربما تكون هذه الصورة شبيهة بـ (سبونرولا) الراهب الذي كان يتجسس على معارضيه.

كلا إنها صورة زكريا عبدالمجيد محي الدين، الصديق الشخصي للرئيس وهو رئيس المخابرات والأمن الداخلي ووزير الداخلية والرجل الأول في الشرق الأوسط الذي استطاع أن يقهر الإخوان المسلمين، الرجل الذي يلقب في مصر باسم السفاح.

وقلت: أما في الصورة الثانية فيبدو كضابط نازي من النوع الهادئ الذي لا يحتاج إلى حذاء جلد طويل الرقبة، كما كان يلبس النازيون بأقدامهم لقتل سكان مدينة كاملة انتقاماً لعمل تخريبي واحد.

قال فيشل بهدوء:

للأسف الشديد إنه ليس ضابط نازي وهو فعلاً يشبه ديزرازنسكي مخلص في إيمانه، هادئ التفكير متزن العمل. ولذلك تذكر اسمه جيداً ولا تقترب منه.

وجمع فيشل الصور ثم قال لي:

لا تخف من عبدالحكيم عامر، ولا من أعوانه فجميعهم جنود في أفكارهم وأعمالهم. ولكن إحذر الضباط الذين تدربوا في موسكو، فهؤلاء تعلموا إلى جانب التدريب العسكري عدم الثقة حتى بأمهاتهم اللواتي ولدنهم، وهم يشكون بإخوانهم، ويميلون إلى تفحص كل كلمة فمثلاً حينما تشتكي أمامهم عن الحرارة، لا يفكرون في المقصد الحقيقي الذي ترمي إليه.

وصلت فندق الكرمل - بحيفا - بعد الظهر. دخلت صالته الفسيحة وكنت كمن ابتلع عظام سمكة كبيرة، كانت خطواتي ثقيلة وقامتي منتصبة ووجهي متوتر كأني أمر بعملية جراحية.

الغرفة رقم ٤٢٦ قلت بالإنجليزية ومددت يدي المحلاة بخاتم ذهبي كبير إلى موظف الاستقبال. فقال الموظف: أهلاً يا مستر انوير هاوديودو؟

سأرسل حالاً من يحمل حقائبك إلى غرفتك.

شكراً لا داعي لذلك.

قلتها وأنا أتوجه بخطوات غير واثقة نحو المصعد الكهربائي. في المصعد ركبت معي إلى غرفتها في الطابق الرابع امرأة ناضجة جميلة ترتدي فستاناً دقيق الحياكة يكشف عن مفاتنها، وأثناء وجودنا في المصعد ابتسمت لي تلك المرأة، ورددت على الابتسامة بابتسامة مفتعلة. وعندها تجرأت وسألتني بالإنجليزية: اسمح لي من فضلك، هل مضى على وجودك وقت طويل في هذه البلاد؟

واحد وثلاثون سنة، أردت أن أجيبها، ولكن بدلاً من ذلك قلت بابتسامة خفيفة: أسبوعان تقريباً. وحين وصلنا، فتح باب المصعد وخرجت بقامة منتصبة تحرك ردفيها عن قصد: هل تشرب كأساً معي في غرفتي - كلا شكراً جزيلاً، قلت بأدب واستطردت: كنت أريد ذلك ولكني لا أستطيع الآن. ربما في مرة قادمة. قالت: سأنتظر المرة القادمة.

دخلت غرفتي وأغلقت بابها جيداً، وتفحصتها، كانت أمتعتي، وأغراضي الشخصية معلقة في الخزانة، أدوات الاستحمام والحلاقة مصفوفة قرب حوض الغسيل. قطع ملابس داخلية من الحرير وبيجاما من الحرير وبدلات أنيقة الحياكة، كل هذه تدل على شخصيتي ومن أنا. وعلى الطاولة وضعت زجاجة ويسكي فارغة حتى نصفها. استغربت من اشتراها هل أنا نفسي اشتريتها؟ أم هل هو فيشل؟ أم أنه الشخص الذي كان يسكن الغرفة قبلي؟ ثم، من هي تلك المرأة التي عرضت علي مصاحبتها بشكل جريء هل هي سائحة، تسعى ان تعيد شبابها بمغامرة عابرة؟ أم هي امرأة محترفة اعتقدت أن شخصيتي المحشوة بالمال سهلة الإغراء أم هي عميلة لفيشل أرسلها لاختباري؟

وادركت في نفسي انني منذ الآن فصاعداً ساصبح أسائل نفسي بهذا الشكل حينما التقي باي رجل أو امرأة، وحينما يصادفني أي حادث مهم أو غير مهم، لقد دخلت الآن إلى عالم ليس فيه طريق للعودة، وإنما أوراقه طويلة متعرجة يكمن الفشل فيها وراء كل باب أو زاوية وتذكرت أنه من أجلي:

من اجل تسهيل مهمتي وعدم افتضاح أمري قتلت امرأة في بلاد بعيدة لإزالة العقبات من سبيلي، وامرأة ثانية في مكان بعيد عند سفح جبال الجلبواع[1] قتلت من أجلي أيضاً، وفتاة أخرى - كانت تنفذ الأوامر الصادرة لها، ألقيتها بعيداً عني، كأنما ألقي بحيوان قذر. كل هذا وطريقي لم يبدأ بعد. وإن فشلت فستصبح هذه الضحايا بلا ثمن بلا فائدة ولكن إذا نجحت فكم من الرجال والنساء سأضطر لقتلهم والدوس عليهم في طريقي إلى الهدف الذي أسعى لتحقيقه، الهدف المشبوه الذي خصصوني له، وهو أن أكون مورداً كبيراً - لسلاح الجو المصري.. سلاح المستقبل الذي سيقرر من سيحكم الشرق الأوسط مثلما قال فيشل الطويل.

انكببت على دراسة الوثائق التي تشكل تاريخ حياتي. والدي تاجر تركي غني من الإسكندرية. تزوج بامرأة أرمنية جميلة، من عائلة لاجئين طردوا من منطقة (ماراس) سنة ١٩١٥. ثم انتقلا، (أبي وأمي) بعد مدة إلى مدينة (سميرته) في طرف تركيا. ربما حاولا بذلك أن يهربا من الذكريات، ذكريات القتل المرعب الذي أوقعه أبناء شعبه بأبناء شعبها، بل ربما ليس ذلك التركي هو والدي؟ وأنا ولدت بعد سنة ونصف على الزواج في بداية سنة ١٩٢٥ ولكن لماذا لم يرزقني الله باخوة وأخوات؟ فإن تاجراً تركياً غنياً يهمه جداً أن يأتي لهذا العالم بعشرات الأطفال من ضلعه علامة على غناه ورجولته. فما الذي حدث، ومنع مجيء اخوتي وأخواتي إلى الدنيا؟ ألقيت نظرة إلى صورة الزوجين والواقع أنني منذ يومين لا أعمل سوى التعرف على صور أشخاص، لم يسبق لي أن رأيتهم ولا حتى في حياتي. ومنذ الآن ستكون حياتي كلها تصوير الحياة بصورة منبسطة ليس لها أي عمق، ليست لها أية حقيقة.

---

(١) موطن الجاسوس.

نهضت عن الكرسي وجمعت الوثائق التي درستها، وتكوم أمامي كوم جميل من الورق، وفتحت الحقيبة الصغيرة وملأت حوض الغسيل حتى منتصفه وغمست فيه الأوراق، وسكبت فوقها محتوى زجاجة واحدة ثم فتحت الصمام الموجود بأسفل الحوض وانتهى كل شيء. أمسكت بزجاجة الويسكي، وخرجت من غرفتي ومررت بالممر الطويل باتجاه غرفة المرأة التي قابلتها في المصعد الكهربائي، ثم قرعت على بابها، ولما فتحت قلت باسماً.. هذه هي المرة القادمة، وأنا مستعد لأشرب كأساً معك..

كان اسمها دومنيك - دومنيك لاكوست أرملة رجل فرنسي يملك مزرعة قروية. وإلى سنتين خلتا كانت تعيش معه في المزرعة. فهي تحاول في البداية أن تكون زوجة مخلصة (هكذا قالت لي) ولكنها بالتالي فرحت بموته. ورثت عنه دخلاً حسناً، وهي الآن تقوم بالتجول في أنحاء العالم، وتحاول أن تعيد لنفسها بأموال زوجها السنين الطويلة التي أضاعتها في عشرته.

والواقع أنها كانت تحاول ذلك بكل رغبتها. وكانت تلك الليلة ليلة بلا حدود ولا نهاية، لا حدود للوقت، ولا نهاية للعمل، رغبتها الشديدة وشهوتها الجامحة لم تعرفا الشبع جوعها الصارخ لم يعرف الخجل. وأنا الرجل الذي أضاع كل عالمه، تمسكت بشهوتها كما يتمسك الغريق بالقشة وسمحت لنفسي أن تغرق في بحر شهواتها وملذاتها.

إن فيشل لن يرى ولن يعرف كل ما أفعله.

وحينما طلع الصباح قالت لي دومنيك:

سأسافر اليوم، ولكن سأجدك، إلى اللقاء يا (مون شير) لن أدعك تنسى (دومنيك).

غيرة وخداع

٢٥ آب ١٩٥٥

▣ لو كانت الغاية من قدومي إلى باريس جمع الأموال من تجارة السلاح فإن مهمتي يمكن اعتبارها ناجحة إلى أبعد حد. فعن طريق الاتصالات التي مهدها أمامي عملاء فيشل في باريس، استطعت أن أصعد بسرعة من درجة مهرب سلاح تركي غير معروف إلى درجة تاجر سلاح شبه رسمي له نفوذه.

لقد كانت فرنسا هائجة في الداخل رغم بقع الهدوء الخارجي. فكانت الأوساط العسكرية فيها تتصارع باستمرار والمستوطنون الفرنسيون في الجزائر يشترون كل قطعة سلاح خفيف، ضباط برتبة جنرال، متقاعدون وضباط في الخدمة كانوا يجمعون السلاح ويعدونه لبيعه. وفي غمرة هذه الفوضى كانت تجول وفود من دول المناطق التي يسودها الصراع، وفود عن الثوار والمتمردين ضد حكوماتهم وفود عن الأقليات التي تدافع عن وجودها، كل هؤلاء كانوا في غمرة الفوضى يبحثون عن السلاح اي سلاح. عن أدوات الحرب التي تقتل وتدمر أسرع. كنت أشتري فائض أسلحة فرنسية وبلجيكية وأمريكية من مستودعات حكومية ومن ضباط كبار، ومن التجار والسماسرة. وبعت البنادق على السود الذين كانوا يقاتلون سوداً آخرين، أرسلت صناديق السلاح لنقلها على البغال إلى الجبال، وبعت قاذفات اللهب إلى المسلمين الذين يقاتلون دفاعاً عن أنفسهم في أفريقيا. إن (آرام أنوير) الحقيقي الذي أتقمص أنا شخصيته والمدفون باسم مجهول في قبر مجهول بتل أبيب، يبدو

مرتاح البال وهو يراني أجمع الأموال الطائلة باسمه، وأتمتع بالنساء الجميلات المشبوهات، وأتفاوض مع مندوبي الدول في قاعات مكيفة وأمامنا كؤوس الشراب الفاخر.

كنت (آرام نوير) حقيقي أكثر من الأصل الفاشل الذي دفع ثمن فشله وأخلى مكانه لمن هو أفضل منه. ولكن حتى الآن لم أقترب قيد أنملة من هدفي الحقيقي، الهدف الحقيقي لفيشل، وأنا الآن أجلس في الطائرة المتوجهة إلى تركيا في طريقي إلى فيشل الذي دعاني للحضور.

تركيا كانت مصدر ذكرياتي المرعبة في بداية الأمر، فخلال رحلتي الأولى هناك، عرفت كل شيء عن نفسي، عن أصدقائي وصديقاتي وعن معارفي ولكني لم أر في حياتي آرام أنوير الحقيقي وهو حي. لم أر حركاته الطبيعية ولهجته الكلامية. لم أستمع إلى حديثه في جلسة مع الأصدقاء أو في عمل تجاري، ومن هنا أن أقع في خطأ كبير وأنا أحاول الحلول محله.

جلست في فندق اسطنبول، المدينة التي أمضيت فيها خيرة سنين حياتي؛ ولم أجرأ على السير في شوارعها. كنت جالساً في فندق (هيلتون) وأعرف أنه يترتب علي أن أنتقل إلى منزلي ولكني عجزت عن تحريك جسمي والانتقال إليه، وفي اليوم التالي وفي ساعة متأخرة من الليل لملمت نفسي وتحركت إلى المنزل. هنا كنت أقيم منذ تحسن وضعي المالي في أعقاب صفقات مشبوهة قمت خلالها بتهريب العملة وفوائض الأسلحة وشراء بضائع من مصدر غير معروف، إقامة علاقات مع راقصات ومغنيات من الدرجة السفلى. إن أعمالي تلك بما عرفتني على أشخاص كثيرين. تجعلني اليوم خائفاً من اللقاء بواحد منهم يعرف (آرام أنوير) الأصلي ويفتضح أمري.

وإني لأتذكر الآن، كيف أنه أثناء زيارتي السابقة لتركيا حيث دق جرس التلفون في منزلي الخالي كنت أحس فيه بأنني غريب كأني في صحراء الصحارى.ويومها رفعت سماعة التلفون بيد مرتجفة كأنه يكاد ينفجر في يدي بصوت منخفض.

- هالو

- آرام قالها صوت نسائي على الطرف الثاني من الخط ثم أردف: وأخيراً وصلت، كنت اتصل بك يومياً فلا أجدك.

ولما كانت صاحبة الصوت تتكلم بالفرنسية فقد أجبت بالفرنسية:

- وصلت هنا اليوم، من أنت؟

- انا أسيان، ألا تعرف صوتي؟

بدأ يعمل بسرعة، مررت بذاكرتي على قائمة صديقاتي، ولكني لم أتذكر واحدة منهن باسم (أسيان) وراحت على التلفون:

لا تتذكرني، لقد التقينا في النادي الذهبي حيث أعمل، ثم جئت معك إلى منزلك، ألا تتذكر ذلك؟

كان علي أن أجيب فوراً. وتذكرت أن فيشل منعني من الالتقاء بنساء يعرفنني معرفة حقيقة. ولكن (أسيان) هذه مهما كانت فإنها تقول أنها عرفتني ليلة واحدة فقط فما المانع من مقابلتها وأتعلم شيئاً جديداً عن نفسي؟

قلت على التليفون:

متى تستطيعين الحضور إلى هنا؟ فأنا متعب بعض الشيء، ولكني أحب أن أراك.

قالت: سأحضر حالاً.

ماذا يقول فيشل لو علم بذلك؟ فقد حذرني فيشل؟ ولكني مضطر لشق عصا الطاعة والاتصال بالعالم الخارجي. لكن (اسيان) لم تصل إلى منزلي مطلقا. وفي اليوم التالي زرت النادي الذهبي حيث تعمل هناك فلم أجد أي امرأة أو فتاة باسم (اسيان) تعمل في النادي، قلت في نفسي، يا فيشل الطويل الآن على الأقل عرفت لماذا يطلق عليك لقب الطويل.

أنهيت أعمالي في تركيا بسرعة، ومن وراء الستار بواسطة السماسرة والوسطاء. وفي البداية بعت منزلي وانتقلت للإقامة في أحد الفنادق وأجريت اتصالات مناسبة لبيع أملاكي وعقاراتي ورحلت إلى باريس. وبعد شهور من التجوال في مختلف أنحاء العاصمة الفرنسية والتعرف على عدد من ضباط الجيش وموظفي الحكومة ورجال السياسة، صدرت إلي التعليمات لعقد أول صفقة سلاح.

وكان أحد التجار يريد أن يبيع كمية كبيرة من الأسلحة الفرنسية الخفيفة التي فقدت قيمتها بعد دخول أسلحة حديثة بدلاً منها. فقد كان الجيش الفرنسي بحاجة إلى أسلحة مدمرة حديثة وافضل من الأسلحة المعروضة الآن للبيع. ولكن هذه الأسلحة في الواقع كانت لا تزال أسلحة حديثة وممتازة بالنسبة لدول ومنظمات عسكرية لم يحالفها الحظ حتى الآن بالانضمام إلى الفريق رقم (١) في العالم، عالم القتل المتبادل. وكل دولة منظمة تضطرها ظروفها للاكتفاء بأسلحة الدمار البسيطة كانت تسعى وراء هذه الأسلحة التي تعتبرها دول الفريق (١) قديمة.

وقال لي أحد عملاء فيشل:

يجب أن لا تبيع السلاح لجماعة أبو مدين لأن المخابرات الفرنسية ستكشف أمرك، باستطاعتك، أن تبيع الأسلحة إلى المنظمة السرية الفرنسية العاملة في الجزائر، ولكن كخطوة أولى بالنسبة لعملك فإن ذلك غير مستحب. وأفضل شيء هو أن تبيع السلاح إلى الجمهورية الأفريقية الحديثة وذلك عمل مشرف لا يترتب عليه أية نتائج أو مشاكل دبلوماسية.

واخيراً أصبحت في غنى عن الأموال التي يمدني بها فيشل فقد أصبح لدي مال خاص بي، وأخذ هذا المال يكبر وينمو تلقائياً. كنت شريفاً، مثل جميع تجار الأسلحة الذين تربطهم كلمتهم الشريفة. ولم يندم إنسان على التعامل معي. وكنت أدفع بسخاء لأصحاب السلاح وأبيع بسعر معقول للمشتري وكنت أقيم الحفلات للمشترين بعد كل صفقة حيث يمضي كبار الضباط السمر من افريقيا وغيرها ليالي جميلة مع شقراوات باريس الجميلات على حسابي.

ومرة سألتني امرأة فرنسية:

أليست المشروبات الروحية محرمة على المتدينين المسلمين؟

قلت: حتى القهوة ممنوعة، كذلك فإن الصدر العاري هو رسول الشيطان، ولكن الله منحنا من رحمته حق التمتع بجميلات هذا العالم.

وكان بجانبي ضابط من سلاح التموين الأمريكي فقال معلقاً:

وهذه الوصية تنفذها أنت بكاملها.

جلست الآن في الطائرة التي ستنقلني من مطار باريس حتى مطار أنقرة حيث سأذهب إلى البنك وأقوم ببعض الأعمال المالية لأضع في قاصتي الحديدية الخاصة مبلغاً من المال. ولآخذ جواز سفر بدلاً من الجواز القديم. ثم أسافر بالقطار إلى اسطنبول، ولدى وصولي غرفتي في الفندق سأقوم بتغيير لون شعري، وأستبدل بدلتي الرياضية ببدلة سوداء ومنديل مناسب ثم أتوجه للسفارة الإسرائيلية للحصول على تأشيرة باسم (أساك رفاعي) تاجر يهودي من اسطنبول يعمل في تجارة الأغذية. ثم استأجر غرفة ليوم واحد في تل أبيب واتصل بالمسؤول عني لأبلغه قدومي.

قال لي فيشل... أنا أعرف بأنني أصبحت عجوزاً، فقلبي لا يعمل بانتظام والكثيرون فرحوا حينما سمعوا بذلك، أي حينما سمعوا أن لي قلباً بين ضلوعي. والواقع أن شعيرات بيضاء كانت تتناثر على رأسه ويطل التعب والإرهاق من عينيه، ولكنه رغم كل ذلك، كان لا يزال هو هو، فيشل الطويل.

قال لي فيشل: غداً صباحاً ستعود إلى باريس، فالمسألة مستعجلة ولا تقبل التأجيل.

قلت: أية مسألة؟ فأنت الذي دعوتني للحضور إلى هنا.

قال: هل سمعت بصفقة الأسلحة؟ قلت مصححاً.. التشيكية.

قال: وهل تسميها تشيكية؟ على أي حال فإن السلاح سيأتي من روسيا رأساً إلى مصر. سلاح روسي حديث ربما أحدث مما في روسيا نفسها.

وسألته.. ألا يمكنك أن تشركني بأي شكل كان في تلك الصفقة؟

قال: ذلك لا يعنيك، وإذا كنت تقصد الربح المادي فأحب أن أقول لك أن المصريين لن يدفعوا فلساً واحداً ثمناً للصفقة، وإنما سيدفعون القطن، وقطنهم هذا الموسم من النوع المتوسط، ومن ناحية أخرى هل تعرف كم طائرة كانت في مصر سنة ١٩٤٨؟

قالت: كلا، ولكن أعتقد أن عددها حوالي ١٠٠ طائرة.

قال: /٢٠-٣٠/ طائرة فقط، وهل تعرف كم لديهم اليوم؟

قلت: حوالي ٣٠٠ طائرة؟

قـال: صحيح إنـك لا تـزال التلمـيذ النجيـب، تدرس ما يقال لك ادرسه ولكن كم منها طائرات نفاثة؟

قلت: حوالي ربعها تقريباً.

قال: كم طائرة نفاثة في الصفقة التي تسميها الصفقة التشيكية؟

قلت: حوالي ٢٠٠ طائرة.

قـال: /٢٠٠/ طائـرة مقاتلـة و٥٠ قاذفة من نوع اليوشن ٢٨ مزودة بأربعة مدافع وتحمل ٢ طن قنابل ومداها ٧٥٠٠ كيلومتر..

قلت: ونحـن مـاذا عـندنا، هـم بعـد سـنة سيصبح لديهـم أكـثر من ٣٠٠ طائرة نفاثة تحت العمـل، ونحـن لدينا أقل من ٣٠ طائرة، أما قاذفات القنابل فليست لدينا أية واحدة. فما الذي تريدني أن أفعله؟

قـال: في ألمانـيا بالقـرب مـن حـدود فرنسا يوجد مستودع ضخم لسلاح الجو البريطاني. وقـد سـحب الإنجليز قواتهـم مـن هـناك مـنذ مـدة. وجميع الأسلحة، والمعدات الموجودة هناك معروضـة حالـياً للبـيع، تشمل مدافع لطائرات (موستانج) و(موسكيتو) و(فامبير) و(متيئور) وهـناك كمـيات كبيرة من ذخيرة المدافع ومعدات أرضية لتزويد الطائرات بالوقود ومعدات للصيانة. وهذه أسلحة يتشرف سلاحنا الجوي لو يستطيع أن يحصل عليها.

عليك أن تشـتري مـا يمكـن شـراءه، لا يهمك ولا تساوم، عليك أن تسرع قبل أن يسبقك أحـد. وبعـد ذلـك، نعـم بعـد ذلـك يجـب أن تبـيع جمـيع مـا عـندك لسـلاح الجـو المصـري. فهم بحاجـة لـه تمامـاً كما نحن بحاجة لـه على الأقل خلال فترة الانتقال حتى يتسلموا الأسلحة الروسـية ويتمكـنوا مـن اسـتيعابها، وبـدون تلك المعدات سيظلون عدة أشهر بـدون سلاح جوي، والآن تحرك واعمل بسرعة قبل فوات الأوان.

إلــى باريــس

٢ تشرين أول ١٩٥٥

■ أحببت الكولونيل (محمد مدكور أبو العز)، ولكنني كنت اخشاه أيضاً، فاكثر من مرة أتصور أننا متشابهان في سلوكنا، بما انه كان يشك في دوافعي لمساعدتهم كنت اشك أنا الآخر بما يختفي وراء سلوكه. وانا أعرف أن هذا الضابط المصري سيشرب معي في جلسة مع جميلات مشبوهات طيلة ليلة بكاملها ثم يختلي مع واحدة هنا أو هناك، ولكن حينما كان الحديث يتناول من قريب أو بعيد سلاح الجو المصري كان الضابط يتغير ويقف موقفاً صلباً جاداً ويلقي عنه جو الخلاعة.

وبالرغم من وجود زوجته في القاهرة، وبالرغم من أنه جاء يمثل دولة معظم سكانها يأكلون ويشبعون مرة في حياتهم، بالرغم من ذلك كله كان مستعداً أن يبذر في ليلة واحدة أموالاً طائلة من أجل أن ينال قلب فتاة شقراء. ولكن خلال المفاوضات التي أجراها معي لشراء المعدات التي خلفها سلاح الجو البريطاني كنت في بعض الأحيان أرغب في وقف الصفقة. كان الكولونيل أبو العز مفوض المشتريات لسلاح الجو المصري في باريس، وعرضت عليه أن يشتري جميع الأسلحة التي اشتريتها من معسكر سلاح الجو البريطاني في ألمانيا. وكنت أتوقع أن أرى في عينيه بريق التهافت على هذه الأسلحة ولكنه كان بارداً غير مكترث: لست بحاجة لمثل هذه الكميات وإنما ساشتري جزءً مما عندك فقط، وبأسعار غير الأسعار التي حددتها لي،

ولكنك بحاجة لكل كيلو غرام مما أعرضه عليك، بحاجة ماسة تماماً كحاجة الجانب الآخر له، قلت مؤكداً كل كلمة، وسألني: ولماذا تعتقد أنك تعرف ما أنا بحاجة إليه؟

إن وجهه الممتلئ الكبير، ذو المسحة الأفريقية أكثر من مسحته العربية والشرقية، كان يبدو لي مخادعاً. والواقع أنه كان لمحمد مذكور رغبات بعيدة المدى وكان مؤمناً غيوراً في عمله. وإذا كان في بلاده كثير من أمثاله فلابد أنهم فعلوا الكثير لخدمتها منذ سنة ١٩٤٨ وقريباً سارى بأم عيني إذا كان أمثاله في مصر كثيرون فعلاً، أنا (آرام أنوير) الميت الذي يمشي في دنيا الأحياء، الميت سيموت قريباً ميتة نهائية حينما يرتكب غلطة بسيطة، حينما تعرف هويته التي هو نفسه لا يعرف شيئاً عنها. ولذلك حدثني قلبي عند بداية المفاوضات بيننا بأنني يجب أن لا أتنازل في السعر حتى ولو انتهى الآمر إلى إلغاء الصفقة. فإذا أردت التقدم في العالم - عالم الضباط الشهوانيين - يجب أن أبدو أمامهم عنيداً وأعرف قيمة ما عندي. وقلت لمحمد أبو العز بدون اهتمام:

السلاح هو عملي وعلي أن أعرف السوق، وبعد توقيعكم صفقة الأسلحة من تشيكوسلوفاكيا انقطعت عنكم جمع مصادر الأسلحة في الغرب. ولكن حتى تصلكم الأسلحة التشيكية، وحتى يستطيع طياريكم قيادة الطائرات النفاثة الجديدة ستكونوا معتمدين على الطائرات البريطانية الموجودة لديكم حالياً. ولكن المدافع اللازمة لهذه الطائرات والذخيرة والمعدات الأرضية اللازمة للعناية والصيانة لا يمكنكم الحصول عليها إلا مني أنا.

وهنا صوب الكولونيل أبو العز نظراته الصارمة علي واتخذ وجهه شكلاً مهدداً ثم قال:

(صحيح، إن كل ما قلته صحيح، لكنني أقسم لك بأنني لن أدعك تستغل أوضاعنا وظروفنا). قلت أن (آدم أنوير) لا يستغل أي وضع، فلقد عرضت عليك كل شيء، وبسعر أقل من سعر السوق. وكان باستطاعتي أن أبيعك المعدات قطعة قطعة وأحصل على ضعف الثمن منك. ولكني لا أحب أن أستغل (إخواني المسلمين). قال.. دعك من الأخوة الإسلامية فهي لم تمنعك من أن تبيع السلاح لأعدائها، وبواسطة أسلحتك قتلت المئات من المسلمين وآلاف النساء اغتصبن في شوارع القرى، ثم قطعت أجسادهن بالرماح التي بعتها لأعداء السلام، وإن رجلاً مثلك نصف أرمني، كان عليه أن يكون أكثر تواضعاً وحساسية في مثل هذه الأمور.

وهنا تدفق الدم إلى وجهي وقلت بغضب:

ماذا تقصد بذلك؟

وقال الضابط المصري وقد رأى أن صفقة السلاح تحولت إلى حوار قومي ملتهب:

أرجو المعذرة، لم أقصد لك سوء، ولكني أقترح أن نتفاوض في العمل وليس في الأخوة. وأقول لك أن بضاعتك غالية الثمن بالنسبة لي.

قلت متسامحاً: المسألة بسيطة ٢ مليون دولار و٧٪ لي ونقل السلاح على حسابكم. اتفقنا.

كان محمد مدكور أبو العز الليلة غير ما عهدته تماماً. وكنا نحتفل بالنهاية الناجحة لصفقة الأسلحة الكبيرة، الصفقة التي أنقذت سلاح الجو المصري خلال فترة الانتقال الخطيرة. وكانت هي الصفقة التي أدخلت إلى جيبي الآلاف وخلال الحفلة سال جزء من تلك الآلاف إلى الحناجر العطشى وعند نهاية الحفلة، عند الوداع تدفقت الدماء المحصورة في أجسادنا إلى أحضان النساء المحيطات بنا. كان معنا في منزلي بباريس (أقصد في شقتي بفندق هيلتون باريس) ضابط آخر من سلاح الجو المصري كان أبو العز يناديه باسم (عبدالحميد) بينما كان الخادم الذي يقوم على خدمتنا يدعو باسم (مسيو داغري) وفي ذلك الوقت لم أستطع أن أتصور بالطبع أنه بعد سنوات قادمة سيقف (داغري) في قفص الاتهام في بلاده، بسبب ما أفعله أنا إلى حد ما.

كانت الحفلة مثيرة تتصاعد مع أصوات الموسيقى الصاخبة وكان معنا الضابط البريطاني الذي سبق أن صدق على بيع المعدات، وبذلك أصبح من الأغنياء إلى الأبد، وظل يشرب الخمر حتى الثمالة. ثم قام واحتضن فتاة في الفندق وألصقها بجسمه وقام بحركات بذيئة اعتبرها من نوع الرقص. وكان معنا أيضاً رجل فرنسي ضابط هو الآخر ولكن بلباس مدني صدق على نقل المعدات إلى ميناء (مرسى) كان ثملاً هو الآخر حتى أنه لم يكن يخجل من أن يمد يده ليداعب الأجزاء الحساسة من جسم راقصة التعري الواقفة بجانبه. ومع كل كاس جديدة أفرغناها في الحفلة ومع كل تنهيدة ألم مفتعلة من الفتيات بعد أن يختلي بها أحد الحضور في هذا الوقت من الحفلة (كان معروفاً أنه بعد انتهاء الحفلة يستطيع كل

واحد منا أن يختلي بفتاته) كنت أشعر انني أخطو خطوة إلى الأمام في مهمتي. وكأنني إنسان مريض القلب في مدينة بعيدة وقد نجح في تحقيق بداية مشروعه الغريب.

رأيت أن أبو العز قد تثاقل هو الآخر تحت تأثير الشراب والنساء وربما بسبب نجاحه الكبير في عقد الصفقة التي سترفعه في نظر المسؤولين في القاهرة وراح يحتضن الفتاة السويسرية، الفتاة التي استدعيتها خصيصاً له هذه الليلة وعمدت أن أرفع قدره كثيراً أمامها وأنا أدعوها للحفلة ولكني أدركت أنه لم يكن داع لجهدي. فإن ذلك الضابط الجميل استطاع أن يستحوذ على قلب الفتاة منذ اللحظة الأولى، وكانت سيطرته عليها تزداد كلما كان يتمنع عليها ويقاوم رغباتها. ولكنه الآن وقد استسلم لها أرى من الفضل أن ندعهما معاً ونخرج. ولكن في تلك اللحظة دق جرس الباب وقمت افتحه وأنا أتوقع أن أجد خادم الفندق يأتي لنا بدفعة جديدة من الطعام والشراب. فتحت الباب وأمسكت القبضة بقوة لئلا أقع على الأرض. وهنا شاهدناها ترتدي فستاناً ضيقاً فاضحاً إنها (دومنيك) دومنيك لاكوست صاحبة المغامرات التي أمضت معي أول ليلة بصفتي (آرام أنوير) في فندق الكرمل حيفا.

إحذر مكر النساء

٢٢ تشرين أول ١٩٥٥

■ لوحدها قالتها دومنيك وهي تفتح ذراعيها وتلقي بنفسها علي بحركة شهوانية مجنونة لا تعرف الخجل ثم أردفت (مون شير). وبينما كنت أضغطها إلى جسمي، وبينما كانت شفتاي لا تزالان تتمتمان (دومنيك) كان عقلي يعمل بسرعة، يحاول إيجاد مخرج من هذه الورطة المريعة من الفخ (الناعم) الساذج الذي أطبق علي فجأة أقوى من قيود الحرير. ولكن بالرغم من اليأس الذي انتابني. عدت بذكرياتي إلى معلمي فيشل وقلت في نفسي، وأنت كذلك يا فيشل يمكن أن تخطئ وكنت أدرك أن القسم الأكبر من هذا الذنب يقع على عاتقي، فلولا انجرافي لقضاء ليلة في السابق في حضن دومنيك الليلة الأولى في شخصيتي الجديدة لما كانت تبحث عني الآن، ولما وقفت هنا بكل قامتها المنتصبة الشهوانية، لولا انجرافي في ذلك الوقت، لما وقفت دومنيك هنا أمام المجموعة التي تربط بين ماضي الخاص - الذي زرت فيه إسرائيل - وبين أشخاص يجب أن لا يعلموا بأي حال من الأحوال بذلك الماضي. هدأت نفسي قليلاً وأدركت أنني في هذه الليلة لا أستطيع أن أحل المشكلة وأنه يجب علي - على الأقل - أن أبعدها عني حتى أجد الحل لها.

قلت مفتعلاً التعلق بها:

دومنيك كيف وصلت إلى هنا؟

ثم جذبتها بخفة إلى الممر واغلقت الباب وقلت لها: لا يمكنك الدخول عندي في الوقت الحاضر، فلدي حالياً مقابلة تتعلق بالعمل، صفقة هامة.

ضحكت وقالت:

صفقة عمل، تتخللها أصوات النساء، وأنغام الموسيقى الصاخبة وعربدة رجال سكارى، وتقول صفقة عمل.

قلت جاداً:

نعم يا عزيزتي هل تسكنين هنا؟

قالت:

بالطبع، وبذلك عرفت أنك مقيم هنا. واستطردت وهي تذكرني باول عبارة لها قالتها لي حينما التقينا بحيفا، هل تشرب كاساً معي؟ قلت:

طبعاً، ولكن بعد أن أتخلص من ضيوفي وسآتي إليك، ولكن في أية غرفة تقيمين؟

كان ضيوفي جميعهم في ذروة النشوة التي عندها يفترق الشمل إلى أزواج أزواج، وكل زوج لوحده، في حديثه ونكاته. وحاولت أنا كذلك - مجاراة الحضور - والتظاهر بالسكر والنشوة، فتوجهت إلى إحدى الحاضرات، واحتضنتها بيدي اليسرى ورفعت باليد اليمنى كاس الشراب وقلت:

في صحة الأخوة بين فرنسا والإسلام.

ثم وضعت الكاس واقترب مني محمد مدكور أبو العز بخطى متثاقلة وقال هامساً في أذني:

أنا ذاهب مع فتاتي إلى غرفة نومك.. أتمنى لك التوفيق.

قلت له محاولاً عدم الاهتمام واضفت: وأنا على أي حال ساغادر مكاني إلى غيره بعد قليل. وغمزته بغمزة ذات معنى..

وأمسكت بقوة بالفرنسية الجالسة في حضني وتكاد تقع على الأرض ورفعتها على كتفي، وحملت حقيبتها الصغيرة بيدي الأخرى، وخرجت بها إلى الممر. وأنزلتها بالمصعد الكهربائي حتى قاعة الاستقبال وطلبت من البواب أن يحضر لنا سيارة أجرة. ولما ركبت السيارة وأغلقت الباب خلفها ودسست في يد السائق مبلغاً من المال سلمته العنوان الذي يجب أن يوصلها إليه وقلت:

أرجو أن تقوم بإدخالها إلى منزلها بنفسك.

وألقى السائق نظرة على المبلغ، وعلت وجهه ابتسامة سرور وقال:

مرسي، مسيو، مرسي، سادخلها بالطبع إلى منزلها صحيحة كاملة.

وعدت إلى المصعد وضغطت الزر ثم نظرت إلى المرآة الموجودة هناك لألقي نظرة على شكلي وقلت لنفسي:

(آرام) ماذا تكون أنت ! وسيلة لغاية أم الغاية نفسها!

وفي تلك الأثناء وأنا داخل المصعد صممت على ضرورة قتل دومنيك وقررت أن تلحق دومنيك بقائمة الأشخاص الذين يجب أن يزولوا من العالم لأنهم اعترضوا سبيل (آرام) وربما يكون هو نفسه الآن يحتضر، ويعاني سكرات الموت في آخر نوبة قلبية تقرر مصيره.

ولكن كل ذلك لم يعكر علي وعلى ضيوفي التمتع في الليلة الأخيرة فدومنيك لا تعرف أن مصيرها قد تقرر من جانبي.

في غرفتي، غرفة نومي، كان الكولونيل المصري الأسود (أبو العز) يتدحرج مع فتاة سويدية شقراء، استأجرتها خصيصاً له. كان غارقاً معها في بحر من اللذة العارمة داخل فراشي، وفي غرفة أخرى، هي غرفة الضيوف، كان ضابط إنجليزي برتبة ميجر قد انتهى هو وفتاة سمراء من مراكش، من ارتشاف المتعة الجسدية، وكان يشاركه تلك الفتاة، ضابط مصري آخر برتبة ميجر، سيصبح في يوم من الأيام قائد القوة الجوية في سيناء.

تركت الجميع على حالهم وذهبت إلى تلك المرأة الشهوانية التي قررت القضاء عليها وقلت لها: دومنيك، دومنيك، مون أمور يا حبيبتي.

وراحت دومنيك تلوي جسدها الغض الناعم الذي تستره غلالة رقيقة شفافة ومدت لي يدها، وفمها وكل جسدها الشهواني.

كان رجل المخابرات الفرنسية ينتظرني في الصالة الكبيرة، يشرب على مهل قوته من كاس ملون، ولما اقتربت منه، قام بأدب وانحنى لي قائلاً:

مسيو أنوير؟

- نعم، قلتها وأنا أحاول أن أكون طبيعياً في الحديث.

من حضرتك؟

قال: الملازم جيون من المخابرات.

جلسنا، وطلبت بعض الشراب،ولكن الملازم رفض أن يشرب بحجة أنه لا يشرب أثناء تاديته لوظيفته، قلت له: ما الذي تريده يا سيدي؟

قال: هل يعرف سيدي مدام دومنيك لاكوست؟

قلت باسماً: دومنيك؟ نعم، نعم أعرفها.

قال: متى شاهدتها لآخر مرة؟

وهنا كست وجهي حمرة خفيفة، وقلت: يوم أمس، أمس صباحاً حيث ودعتها هنا في الفندق فهي تسكن هنا حيث التقينا...

وقال: هل تعرفون بعضكم منذ وقت بعيد؟

ترددت في الإجابة تماماً كما يتردد أي رجل يجري معه تحقيق في الأمور الجنسية والغرامية... وقلت: لقد التقينا قبل... سنة تقريباً.

قال: أين؟

قلت: في تركيا.

قال: أنت واثق مما تقول؟

قلت: بالطبع أنا واثق من ذلك تماماً.

قال: وهناك أيضاً أمضيت معها بضع ليالي؟

قلت: ليلة واحدة فقط، و(وكانت هذه الجملة الوحيدة الصحيحة في حديثي).

قال: وهل التقيتما خلال السنة الماضية؟

قلت: كلا، وإنما حضرت مدام لاكوست فجأة إلى غرفتي في منتصف الليل.

قال: وذلك بعد مرور سنة كاملة على لقائكما الأول لم يدم سوى ليلة واحدة كما قلت؟

قلت: ربما كانت تلك الليلة من الأهمية بحيث ظلت عالقة بفكرها وظلت تبحث عني حتى وجدتني هنا.

قال: نعم، سمعت بأنك فنان في ألوان الحب.

قلت: ولكن لماذا تسأل عنها، عن دومنيك؟

قال: لقد وجدت دومنيك لاكوست صباح اليوم في حديقة أحد المنازل في طرف المدينة وهي عارية وبرأسها رصاصة مسدس.

قلت: لا يمكن، كيف حدث ذلك؟

قال: هل لديك فكرة عن الفاعل؟

قلت: كلا (ولم انطقها وإنما حركت رأسي بمعناها)

قال: هل لمقتل دومنيك علاقة بأعمالك التجارية في السلاح؟

قلت: بأعمالي التجارية؟ كلا، فليست هناك أية علاقة.

وقال: هل يمكن أن يكون عملاء إسرائيليون قد قتلوها؟

قلت: عملاء إسرائيليون، ولكن لماذا، فهل تعتقد أنهم خطفوها ليحققوا معها عني، ولما لم تقل لهم شيئاً قتلوها؟ هل تعتقد ذلك؟

خلال هذا الحوار تذكرت، أنني بعد أن رأيت دومنيك على باب غرفتي في الفندق، بلغت الأمر احد عملاء إسرائيل، ووعدني بان يتدبر الأمر، ولكن كيف علمت المخابرات الفرنسية بعد يوم ونصف فقط بأن عملاء إسرائيل هم الذين قتلوها؟ إذن كم من الوقت سيمر حتى تكتشف المخابرات الفرنسية بأني أنا نفسي عميل إسرائيلي؟

قال الملازم (جيون) رداً على سؤالي السابق:

لا يمكن أن يكون عملاء إسرائيل هم الذين قتلوها من أجلك، فإن مدام لاكوست زارت إسرائيل قبل سنة تقريباً في نفس الفترة التي تعرفت فيها عليك. فربما هي نفسها عميلة لإسرائيل.

وهنا تنفست الصعداء، فقد زالت جميع مخاوفي، واستمر الملازم قائلاً:

على أي حال، فإننا سنواصل التحقيق في القضية، ولكن أحب أن أقول لك يا مسيو أنوير بأننا لا نحب الأشخاص الذين يكونون هم آخر من رأى رجلاً حياً قد قتل بشكل مجهول. قلت بغضب: ألا تعتقد بأن يكون عملاء إسرائيل قد قتلوها عمداً لتشويه سمعتي عند المخابرات الفرنسية؟ قال: كل شيء ممكن، ولكن مع كذلك فإننا لا نحب آخر رجل يرى إنساناً حياً قبل أن يقتل. وسجل هذا الكلام عندك.

قلت: ساحذر ذلك مستقبلاً، وقبل ان أدخل أية امرأة إلى فراشي سأسألها دائماً ألست معرضة للقتل في الأيام القريبة فإن كان كذلك ابتعدت عنها وإلا أبقيتها.

وحمل الملازم جيون قبعته وانصرف قائلاً لي:

يا مسيو أوير، إن المخابرات الفرنسية شكت فيك، ونحن لا نعارض بأن يأتي الأجانب إلى بلادنا ويقوموا بأعمال تجارية مهما كان نوعها ولكن الأعمال التي تجري في أعقابها جثث عارية ملقاة في الحدائق نعمل على اقتلاعها. وودعني بأدب وقال: وعلاوة على ذلك يا مسيو أنوير تدل الوثائق التي تحملها مدام لاكوست بانها لم تزر تركيا مطلقاً، الله معك يا مسيو.

السفر إلى مصر

٣١ كانون أول ١٩٩٥

■ نزلت ليلة رأس السنة إلى باريس وأنا أشعر بمرارة، فإن الثورة القائمة في الجزائر ضد فرنسا تحولت إلى حرب حقيقية. وسقطت الحكومة الفرنسية مرة أخرى وأعلن عن إجراء انتخابات جديدة. ولكن أحداً لم يقتنع بانها ستؤدي إلى أي تغيير يذكر. وأظهر قادة الجيش استياءً متزايداً من إجراءات الحكومة.

ولقد شعرت أكثر فأكثر بأن دوائر الاستخبارات العسكرية تضيق الخناق علي بالرغم من أن عميلنا الخاص الموجود بوزارة الخارجية الفرنسية وعدني بأن يكون الخط الرسمي (سياسة البلاد) مؤيداً لأصدقائي الجدد. ولكن إحساسي الداخلي كان يقول لي أن أيامي في باريس معدودة. لم أدم على ذلك فإن باريس، في الحقيقة - بالنسبة لمهمتي الحقيقية - ما هي سوى محطة متوسطة في طريقي، ولكني عمدت استغلال الأيام المتبقية لي في باريس إلى آخر حد في المتعة واللذة.

وهذا المساء أقمت حفلة كبيرة. كانت الجماهير في باريس تطوف الشوارع بمناسبة رأس السنة، شبان وشابات يسيرون في جماعات متشابكي الأيدي، وفي منزل (لويز) الكبير و(لويز هذه صديقتي الجديدة) أخذنا نستعد لحفلة صاخبة تستمر حتى الصباح مع توقف عند منتصف الليل حينما تطفأ الأنوار فجأة مدة ساعة. ولكنني الآن والحفلة لم تبدأ بعد

اجلس في مكان غريب علي، مقابل رجل لا يعبر وجهه عن شيء، كما لا يختلف عن آلاف الوجوه الأخرى. وباختصار وجه عميل محترف.

في جبال الجزائر تهطل الأمطار منذ حوالي شهرين بصورة متواصلة، قال لي ذلك الرجل الذي كنت أعرف أنه مبعوث من طرف فيشل، والواقع أن أسلوب فيشل في المعاملة كان على أساس القاعدة التالية:

(ابدأ الحديث عن موضوع يتراءى لك بعيداً، ولا قيمة له ثم فاجئ المستمع بتحول حاد وادخل صلب الموضوع مباشرة).

وقال الرجل العميل لي بنفس أسلوب فيشل:

- الجيش الفرنسي لا يستطيع أن يستخدم هناك وحدات كبيرة في مثل تلك الظروف، ثم واصل:

- ولكن الثوار كذلك لا يقدرون على إلحاق الأضرار به لنقص الأسلحة المناسبة لديهم. وسألت العميل:

- ماذا يريدني فيشل أن أبيع لثوار الجزائر قنبلة ذرية؟ قال:

- كلا وإنما راجمات ٦٠ ملمتر، من النوع الذي ستشتريه من فائض الأسلحة الفرنسية. لم أسأله كيف عرف فيشل نوع السلاح الذي سأشتريه ولكني قلت: لماذا يريد فيشل أن أفعل ذلك وأشوه سمعتي في فرنسا؟

قال: سيطردوك من بلادهم، وعندها ربما تحصل على دعوة من صديقك لزيارة بلاده، بل ربما تقيم هناك مدة طويلة. قلت: ولكني لا أستطيع أن انقل حوالي ١٠٠ مدفع هاون وحوالي ٢٠ ألف قنبلة من فرنسا للثوار، فالمخابرات الفرنسية تضيق الخناق عليّ باستمرار. قال:

- عليك أن تبيع كل شيء بصورة رسمية محترمة لتاجر سلاح في الرباط بالمغرب وذلك التاجر يعمل في خدمة بن بيلا، وسواء نجح التاجر المغربي في إيصال السلاح إلى الثوار أم

لا، فهذا ليس شانك، وربما حينما تقوم أنت بتسليم السلاح للتاجر، سنتولى نحن إبلاغ المخابرات الفرنسية بذلك.

كنت أعرف أن هذه الخطة، من خطط فيشل العادية يصيب فيها ثلاثة عصافير بحجر واحد، فمن جهة، تشوه سمعتي في فرنسا واضطر إلى السفر إلى مصر، ومن جهة أخرى سيدفع ثوار الجزائر أموالاً طائلة ثمناً للسلاح، ولكنهم لن يتسلموه، ومن جهة ثالثة يحظى عملاء فيشل في باريس بعطف ومحبة المخابرات الفرنسية وربما بالتالي يأمل فيشل أن تعطيه المخابرات الفرنسية الأسلحة المصادرة كهدية لبلاده أو ربما يحظى بجائزة أكبر، فالصحف تكتب منذ عدة أسابيع عن طائرات مستير وعدت فرنسا بها إسرائيل ولكنها لم تتسلمها، حتى الآن. وقلت للرجل: كيف حال فيشل؟

قال: انتهى دوره، إنه يحتضر تقريباً.

لم يفزعني هذا النبأ إذ كنت أعد نفسي منذ زمن لمواجهته ومع ذلك فقد شعرت أن شيئاً ما بداخلي بدأ يضمحل ويتلاشى. إن فيشل لندسبرغ ذلك النسر الكبير، ذلك الرجل الذي روحه روح طفل، وعقله عقل عالم، هل يمكن أن ينتهي دوره ويخرج من اللعبة؟

قلت: حسناً، سأبيع للتاجر المغربي الراجمات مقابل الثمن سلفا، ولكن انتظروا بضعة أيام بعد أن أسلم السلاح للتاجر حتى لا يشك بأنني أنا الذي وشيت به، ثم خرجت إلى الشارع وأنا حائر هل أفرح أم أبكي. وأخيراً قررت أن أفرح وأشرت بيدي لسيارة أجرة.

عند منتصف الليل أطفئت الأنوار في منزل لويز، وغرقت الصالة الكبيرة في ظلام دامس. بدأنا نتحسس في الظلام ونحن ضائعون في العتمة. الرجال يبحثون عن النساء، والنساء يبحثن عن لرجال، وأمسكت بيدي إحداهن، تلمستها فوجدتها لذيذة.

بعد يومين شكلت حكومة جديدة في فرنسا، واشتد أوار الحرب في الجزائر، وتقلص توريد السلاح من فرنسا إلى مصر يوماً بعد يوم، بعد أن علمت فرنسا بأن الأسلحة تتحول إلى الثوار الجزائريين.

لم يقابلني هذه المرة الملازم جيون، وإنما حضر اثنان من المخابرات الفرنسية إلى غرفتي في الصباح الباكر وسلماني أمر طرد من فرنسا خلال ٢٤ ساعة. ولكن استطعت بواسطة

صديق بوزارة الخارجية أن أمدد الأمر ليومين آخرين، وانهيت جميع أعمالي في باريس وتقابلت مع الكولونيل محمد مدكور ابو العز وابلغته بأنني سأنتقل إلى سويسرا، ولكن الضابط المصري تطلع بي طويلاً ثم قال:

- انور بك، هل تأذن لي بأن ادعوك باسم سلاح الجو المصري لزيارة بلادي؟؟ وعندها سترى ماذا نفعل بالسلاح الذي اشتريناه منك.

لم اجب، وإنما أحسست كأن امرأة اشتقت إليها وتلهفت عليها مدة طويلة بدون أمل، تستجيب لي الآن، تدعوني بشهوة للقائها، وسكت، وفسر أبو العز سكوتي بأنه موافقة على تلبية دعوته ثم قال:

- إن قائد سلاحنا الجوي الجنرال محمود سيعتبرك ضيفه الخاص. وحركت رأسي علامة الرضا، ثم استمر أبو العز.. كذلك فإن مدير مخابراتنا يرغب منذ مدة في التعرف عليك. وهنا شعرت بعنكبوت يزحف على عمودي الفقري، شعرت بعرق بارد يكاد يتصبب من جميع خلايا جسدي، لكن وجهي لم يتأثر.

- (يسرني جداً أن ألبي دعوتك)، قلت لأبي العز، وأنا أحني رأسي تأدباً. كانت هذه هي إحدى المرات النادرة خلال أحاديثي معه التي تخرج فيها من فمي جملة صادقة المعنى.

اللقاء مع مدير المخابرات المصرية

٢٦ آذار ١٩٥٦

▣ أمضيت طيلة ذاك الصباح أجري مشاورات - بقلبي طبعاً - مع فيشل. كنت أسائل نفسي:

ماذا يقول فيشل عني؟

لقد استدعيت إلى مكتب البريجادير صلاح نصر قائد سلاح الاستخبارات المصرية، وحدد الموعد لي التاسعة تماماً. فهل أذهب إليه في الوقت المحدد؟ إذن كيف أظهر له استقلالي وكوني تاجر أسلحة، يعطف إلى حد ما على نظام الحكم الثوري في مصر، في حين أنني بنفس الوقت رجل حر، رجل همه تجارة السلاح.

وبعد حوار طويل مع فيشل قررت أن أتأخر عن موعد المقابلة مع صلاح نصر بضع دقائق، ولست أشك أنه لا يوجد في بلاد النيل كلها عشرة رجال غير أعضاء مجلس الثورة أنفسهم يجرأون على التأخر عن موعد محدد لمقابلة صلاح نصر. ولكني أنا (آرام أنوير) تاجر سلاح تركي، دولي، *أمه الأرمنية* مريام تورهان الجميلة يتجرأ على التأخر. كان صباحاً قاسياً علي، لم أستطع أن أركز فكري في العمل الذي سأقدم عليه، وربما هو أخطر عمل يطلب مني، وفجأة شعرت بالشوق نحو أمي المجهولة، الأرمنية الجميلة التي توجد صورتها في درج الطاولة بغرفتي في فندق (القاهرة). ربما يكون سبب شعوري بالعزلة والوحدة ناجم عن

النبأ الذي وصلني عشية سفري إلى مصر عن وفاة فيشل، ولم يكن لدي الوقت حين ذاك ولا القوة لهضم الخبر والرد عليه. فقد كنت منصرفاً كلياً نحو التفكير في سفري إلى مصر، نزولي إلى عرين الأسود. واليوم، وقد مرت ثلاثة أسابيع على وصولي القاهرة وطلب مدير المخابرات المصرية مقابلتي، شعرت بمدى عزلتي ووحدتي، فأنا هنا، في البلد الذي سأقيم فيه إلى ما شاء الله اشعر بأن حبل المشنقة معلق فوق رأسي، ينتظر مني أقل هفوة ليحيط بعنقي بشدة.

رفعت رأسي وابتسمت لنفسي، أن آرام أنوير لم يدع إنساناً يخدعه. آرام أنوير لن يخيب ظن فيشل الطويل فيه، فيشل الذي صنعني من جديد، الذي شق لي طريقاً على جثث النساء، وبأموال طائلة على حساب حرمان سلاحي الجوي من المعدات العزيزة الضرورية له.. غسلت شعري، وصبغته جيداً حتى جذوره التي بدأ اللون الحقيقي يظهر عليها. وحلقت ذقني وسكبت العطر على جسدي، وارتديت أجمل ثيابي وهكذا أصبح آرام أنوير جاهزاً لكل شيء. وصلت القاهرة قبل ثلاثة أسابيع مع صديقي البكباشي (كولونيل) أبو العز، كان وصولنا بعد الظهر، ووجدنا المدينة الكبيرة في ظلمة صفراء بسبب عاصفة رملية شديدة منعت هبوط الطائرة، مما اضطرها أن تحاول الهبوط في أحد المطارات السرية الأخرى البعيدة عن مطار القاهرة، مثل مطار الماظة، إمبابة، حلوان، لكنها لم تتمكن فعادت بالتالي إلى المطار الدولي. ولما هدأت العاصفة الرملية شاهدنا على الأرض ثلاث بنايات غريبة الشكل، إحداها أكبر من الثانية، كانت هذه أهرام الجيزة شعار مصر القديم، الذي تذكر الناس بالماضي الجليل لبلاد النيل، وخلف نهر النيل شاهدنا مدينة القاهرة التي بناها المسلمون من الحجر الأبيض المنقوش والذي أخذوه من الأهرام، بين الأهرام والقاهرة كان يمتد أطول وأغرب نهر في العالم، النهر الذي يجري شمالاً والذي تفيض مياهه في أواخر الصيف فيجرف آلاف الأطنان من الطمي المخصب من جبل الحبشة، ويجعلها تستقر في المنطقة الضيقة في قلب الصحراء وعلى ضفاف النهر تقوم منذ القدم، حتى اليوم، منذ أيام الفراعنة، أكواخ اللبن التي يقيم فيها اثنان من كل ثلاثة من سكان مصر، وهناك بعيداً إلى الجنوب يقوم السد الكبير الذي يحاول المصريون الآن مضاعفة حجمه. وفي الشمال والشرق تمتد البلدان التي يحلم حكام بلاد النيل بها منذ وجود الأهرام. ولكن هناك أيضاً على شاطئ البحر المتوسط تقوم بلادي، تنتظر مني ما أستطيع أن أفعله من أجل أن تظل قائمة هناك على شاطئ البحر المتوسط.

كان البريجادير صلاح نصر، كبقية قادة الحكم والجيش في مصر، رجلاً في مقتبل العمر، في مطلع الثلاثينيات. ولكنه كان يختلف عن بقية زملائه الضباط. ولما نظرت إلى الصورة التاريخية التي تضم الضباط الأحرار الذين قاموا بالثورة المصرية، وجدت أن واحداً منهم فقط غير محبوب وهو أكبرهم سناً ويجلس في وسطهم إنه الجنرال محمد نجيب.

وفي إحدى المرات، وقد كنت أقف على بُعد خطوات قليلة من وزير الحربية المصري أمير اللواء عبدالحكيم عامر، فهمت السبب الذي من أجله قال لي فيشل، لا تخفه، فإن وجه (عبده) (لقب عبدالحكيم عامر) تبدو عليه جميع الصفات الإيجابية بالنسبة لضابط، ولكن صفاته لا تخيف كل من يريد العمل بالسياسة أو .. التجسس، بدون مبرر، فهي لا تزيد عن كونها البساطة، والاستقامة، والإخلاص، وطيبة القلب. وكلها صفات عبده فلا تخشى جانبه، وبالفعل لم أشعر تجاه الرجل (عبده) لا بالكراهية ولا بالمحبة، مع أنه ابن الكراهية.
أما صلاح نصر فكان مختلفاً عنهم: فتعابير وجهه لم تكشف تقريباً عن عمره الحقيقي وربما كان منظره اليوم، هو هو قبل عشر سنوات، وهو هو بعد عشر سنوات. كان نحيف الجسم، لباسه العسكري متهدل على صدره وكتفيه، يلبس نظارة سوداء حتى أثناء جلوسه إلى مكتبه الكبير. كان حجمه صغيراً بالنسبة للغرفة الكبيرة ذات الأثاث الفاخر التي يجلس فيها، حتى كأنه يبدو كعنكبوت صغير يجلس في وسط شبكة كبيرة.

من هنا دخلت إلى البناية الكبيرة الموجودة داخل المعسكر وفي طرف هليوبوليس عند حدود الصحراء تماماً، لأقابل صلاح نصر الساعة كانت التاسعة وثلاث دقائق تماماً. واصطحبني ضابط شاب إلى مكتب صلاح نصر، ودق الباب، وأدى التحية العسكرية وأعلمه بمقدمي. سرت إلى الأمام أتوقع التحية المصرية المعتادة (سعيدة).

السلام عليكم، قالها بصوت مرتفع وهو ينظر إلى ساعة يده، وقلت على الفور: وعليكم السلام. كانت تحيته غير مألوفة في مصر. وكذلك كان ردي عليها. ولكنها كانت الرد الملائم لتحيته، وقلتها فوراً وبدون تردد، اجلس من فضلك وأشار صلاح نصر إلى كرسي من الجلد الوثير. جلست وعلى شفتي ابتسامة بلا معنى. وقلت بلا مبالاة تحت أمرك.

من أنا حتى أصدر لك الأوامر؟

بدأ حديثه قائلاً: إن الكولونيل أبو العز يمدحك كثيراً، ويقول بأنك قمت بمساعدتنا في اللحظة الحاسمة. عدلت من جلستي على الكرسي، وكان مكيف الهواء قد جفف العرق الذي ألصق قميصي الحريري بجسدي، إذ كان الحر حتى في مثل هذا الفصل شديداً في القاهرة، وفي شوارع هليو بولس الواسعة المستقيمة وهو الحي العصري في القاهرة. كانت تختلط العواصف الرملية بغبار الشوارع ليل نهار. وكنت أرتدي معطفاً خفيفاً. وقلت أرد على كلامه.

يؤسفني أن أخيب ظنك ولكن من المبالغ فيه القول بأنني جئت لمساعدتكم. وكل ما في الأمر أنني عرضت عليكم بضاعة كنتم بحاجة ماسة إليها، الحقيقة أنني لم أحاول أن استغل بذلك ظروفكم القاسية.

وهنا دخل نائب يحمل طبقاً عليه أكواب القهوة الساخنة والحلويات. وعندها: تذكرت القهوة التي شربتها قبل حوالي عام ونصف عام في مكتب فيشل، وقدمتها لنا يومها فتاة باسم روثي، وهي الفتاة التي انضغط جسدها عند تقديمها القهوة بين الطاولة وجسدي، وهي التي قادتني بعد ذلك إلى الفراش واستدعت صديقتي نعومي لتفاجئنا بذلك الوضع المحرم. أما هنا فالذي قدم لنا القهوة، رجل برتبة نائب، وسرعان ما انصرف من المكتب وفجأة شعرت بارتياح حقيقي، هنا مكاني وهنا سأضرب جذوري عميقاً ولن يستطيع أحد أن يكتشف ما أخفيه وراء وجهي الأملس. قال نصر.. إننا نريد أن نشكرك لكونك لم تستعمل تلك المناسبة للضغط علينا. ثم سكت مدة طويلة وبعدها أضاف: أنت تعلم يا أنوير بك أن هذه البلاد تصادف كثيراً من المشاكل، حتى يقيض الله لها من يهب لمساعدتها، وعندها أبدأ أسأل نفسي، لماذا فعل فلان ذلك؟ وأبقي السؤال معلقاً في الفضاء موجهاً وغير موجهاً نحوي. وعندها تذكرت ما قاله فيشل مرة: لا تحاول مطلقاً أن تتذكر أية معلومات، ولكن إذا وقعت في فخ، فادخله بمحض اختيارك. ولذلك قررت الدخول والإجابة فقلت: أنا رجل أعمال يا بريجادير، وحينما قلت لمحمد مدكور بأنني لا أريد أن أضغط على إخواني المسلمين، ذكر لي السلاح الذي بعته لأعداء السلام ولكني رجل يعيش من وراء بيع السلاح ولا يهمني ما يفعل بذلك السلاح أو يستخدم ضد من، وهز نصر راسه موافقاً ثم واصلت:

ولكن رجل الأعمال الحقيقي يجب أن يعرف كيف يضع حداً لنفسه، وهنا رمقني ذاك العنكبوت بنظرة فاحصة من وراء نظارته السوداء وقال بصوت حفيف غريب عليه:

فكرنا في أن نعطيك وساماً من سلاح الجو المصري وسام شرف.

وابتسمت ابتسامة سخرية، ولكني حرصت على أن لا يراني اسخر منه وقلت: لقد أخذت منكم وسام شرف، أوسمة من النوع الذي أحبه الأخضر والأزرق (يقصد المال ثمن البيع).

قال نصر: حسناً فعلت، إنك لم تأخذ نفس الوسام من إسرائيل. والواقع أنهم يدفعون أكثر منا. فقد كانوا بحاجة إلى هذا السلاح أكثر من حاجتنا إليه.

قلت: كلا لم يكونوا بحاجة له أكثر منكم، بالرغم من أن دعايتهم تزعم العكس. وعلاوة على ذلك فإن الإسرائيليين، كبقية اليهود في العالم لن يفهموا ما هو العمل الشريف. فهم دائماً يطلبون روحك مع السلاح الذي تبيعه لهم.. وإن كل ما لا يسير مع الإسرائيليين حتى النهاية يعتبروه عدواً لهم وأقول لك بالمناسبة، إنه بعد أن انتهت صفقة السلاح، بيني وبينكم حاول الإسرائيليون الإيقاع بي من حبائل جاسوسية في فرنسا.

قال نصر: صحيح إنها مدام لاكوست:

قال: ومن أين لك آثار الدمل على ظهرك؟

الواقع أنني دهشت لذلك، وظهرت الدهشة على وجهي وارتسمت على قسمات وجهي أسئلة كثيرة أولها، بالفعل كيف عرف هذا الرجل بآثار الدمل الموجودة على ظهري؟

ولكن عرفت فيما بعد السر، فخلال وجودي في سويسرا تعرفت على فتاة هناك باسم (لورا) وكانت تلك الفتاة تفضل ونحن في الفراش أن تلف رجليها وراء ظهري ورأت العلامة، ولما سألتني عنها يومها قلت لها: إنني كنت عشيقاً لزوجة أحد الأشخاص في تركيا، وذات ليلة داهمنا الزوج في منزله في فراش واحد فأطلق علي الرصاص من مسدسه وأصابني في ظهري ونتج عن ذلك كما ترين هذا الأثر.

وسألت صلاح نصر بصوت غاضب.. وماذا تعرف عني أيضاً؟

قال: أعرف سبب آثار ذلك الدمل، وبما أنك تحكي للنساء وهن في فراشك كل شيء فلا يجب أن تستغرب علمي بكل شيء عنك. أنا أعرف عنك أيضاً بأنك مغرم ومجنون

بالنساء وتفاخر بذلك، واقول لك حافظ على علاقاتك جيداً في الخارج، سنكون بحاجة لك، فالطائرات النفاثة ليست آخر شيء نريد الحصول عليه وفي بلادنا نقيم ٢٠٠ مدرسة ابتدائية كل عام و١٠ مؤسسات للدراسة العالية، ويدرس لدينا اليوم مليون ونصف طالب في المدارس الابتدائية و١٠٠ ألف طالب جامعي. وخلال سنوات عند اكتمال السد العالي وتطور الصناعات الثقيلة سنكون دولة كبرى في هذه المنطقة. وكل من يمشي معنا على طول الطريق، سيكون جزاؤه محفوظاً. وعند افتراقنا قال لي بصوت ناعم:

كل إنسان يدخل بلادنا يا أنوير بك نفتح عليه عيوننا ليل نهار، لئلا يحدث له مكروه. ولذلك فنحن نقوم بمراقبتك وحمايتك من المساوئ. ولكنني أنتظر منك بالمقابل الإخلاص التام.

كانت هذه هي أول مرة خلال حديثنا الطويل لم أستطع أن افهم ما يرمي إليه من الحماية التي سيقدمها لي مقابل الإخلاص التام. ولكني عرفت أن هذا النصر على الأقل من ناحيتي مصنوع من الورق.

العرض الكبير

٢٩ أيار ١٩٥٦

▣ كان مطار الماظة يمتد على مدى البصر من النيل حتى التلال الصغيرة المنتشرة بين حقول القطن والأرز. كما انه من العسير رؤية نهاية المطار حتى من رأس برج المراقبة العالي. وفي ذلك المطار مباني من الإسمنت ومستودعات كبيرة للوقود، والذخيرة وقطع الغيار، وطائرات مصفوفة، وكان المطار أشبه بمعسكر جيش كبير يستعد للحركة. وكان رجال الأعمال الأرضية وصيانة الطائرات ينتشرون في المطار يؤدون مختلف الأعمال. وعلى شرفة برج المراقبة كان يقف صديقي الجديد محمد صدقي محمود قائد الأسطول الجوي. وكان وجهه متجعداً في الوقت الذي لا يزيد عمره عن الثلاثين بكثير، وكان يخفي وجهه بمنظار ميدان يتطلع من خلاله إلى ما يجري في أرض المطار. وإلى جانبه كان يقف صديقي الذي عرفته في باريس الميجر عبدالحميد عبدالسلام دغيري، وفي الجانب الآخر البكباشي جمال الدين محمود عفيفي رئيس العمليات الجوية. وبينما كنت أتكئ على حاجز الشرفة، كنت أتطلع بدون أن أثير أي انتباه إلى ما يجري هناك. ولكن تحت ستار عدم الاكتراث الذي كنت أتقنع فيه، كان عقلي يصور كل شيء بدقة، حتى أصبحت قادراً على أن أعيد ما رأيته هناك بعد عودتي إلى منزلي الجديد الواقع في بناية بطرف القاهرة على طريق هليو بوليس. ولقد أراد أصدقائي الجدد الذين أمضيت معهم أمسيات وليالي حمراء أن أشاهد القوات التي كانوا يفاخرون بها، وهي الأسراب الجيدة من الطائرات الروسية النفاثة التي وصلت مصر

مؤخراً. وقد فهمت وعلمت أن مطار الماظة الحربي كان أكبر مطار عسكري في مصر وفي حشد حوالي نصف القاذفات النفاثة الروسية من طراز اليوشن، كما حشد فيه أيضاً سرب الطائرات البريطانية الحديثة، وهي نفس الطائرات التي ساهمت بإنقاذها قبل بضعة أشهر حينما بعث لمصر قطع الغيار والذخيرة والمعدات الأرضية لها بدأ رجال الأعمال الأرضية يبتعدون عن أرض المطار ويدخلون المباني، وتقدمت مجموعة من طائرات الميج واصطفت على المدرجات ومن خلفها اصطفت طائرات الداكوتا والميتنور وأخيراً درة التاج قاذفات القنابل من نوع اليوشن. وارتفعت أصوات المحركات وانطلقت طائرات الميج بسرعة خاطفة وارتفعت في الجو تشكل رسوماً وأشكالاً مختلفة. ثم استعدت طائرات اليوشن كأنها تقول للمشاهدين أن طائرات الميج الصغيرة لا تذكر بالنسبة لحجمها الكبير وأجنحتها الطويلة، والتفت طائرات الميج والإليوشن في السماء وتوجهت كلها شرقاً إلى القاهرة وفي العودة، ثم سارت بمحاذاة نهر النيل. وهنا وقعت الكارثة فإن طائرة ميج صغيرة خرجت فجأة عن التشكيلة الجوية وهي تتخبط بجنون في السماء وراحت تقترب من الأرض ورأينا جسماً صغيراً ينقذف منها. ومظلة تنفتح، ثم غارت الطائرة في الأرض وسمعنا صوت انفجار مدوي ومعه ارتفعت سحب من الغبار والدخان الأسود. وسمعت محمد صدقي محمود الذي كان يراقب ما يجري بالمنظار الكبير يسب ويشتم ثم يأمر أحد الضباط بإجراء التحقيق ومحاكمة الطيار بأسرع وقت. وعادت التشكيلات الجوية الأخرى إلى أرض المطار.

قمت بتصوير الرسالة وتصغيرها حتى أصبحت عبارة عن نقطة سوداء بحجم رأس الدبوس. والصقت هذه النقطة (الرسالة الصغيرة) على المغلف الذي عنونته إلى (زيجفريدلاها) وكيل بورصتي في زوريخ. والصقت على النقطة الصغيرة ورقة الطوابع المصرية وأدخلت المغلف في درج طاولتي. ولو جاء واحد وأزال الطوابع وقام بتكبير النقطة السوداء ٢٠٠ مرة يستطيع أن يرى فيها مجموعة من الأرقام وكل منها يتكون من أربعة أعداد. ولو عاد أحد إلى الورقة التي كتبت عليها الرموز السرية لاستطاع أن يؤلف من تلك الأرقام جملة كاملة مفيدة هذا معناها:

إلى المسؤول من - روما ق.

يبدو أن سلاح الجو المصري قد فشل في استيعاب الطائرات النفاثة. إن ٦٠ طائرة فقط في حالة جاهزة للعمل. طائرة الميج ١٥ لا تصلح للمعارك الجوية مع الطائرات المقاتلة الأخرى،

وإنما هي تصلح لمقاتلة القاذفات. والقوات العاملة تشمل سرب طائرات اليوشن وسربي ميج ١٥ وسرب فامعباير وسرب ميتئور. طائرات الميج موزعة في مطارات الماظة وكبريت، وأبو صوير طائرات النقل موزعة في مطارات الماظة والقاهرة غرب الأقصر.

يجري توسيع مطارات الماظة، والقاهرة، وإنشاص ليكون باستطاعتها استقبال النفاثات. الطائرات البريطانية بوخنا موزعة في مطاري فايد والماظة سيناء خالية من الطائرات يجري إعداد مطار بير حمة لاستقبال طائرات الميج. وإعداد مطاري العريش وبير كفكفا لطائرات بوخنا البريطانية. لا أعتقد أن بوسع المصرين استيعاب الطائرات النفاثة قبل سنتين.

إن الأشهر الثلاثة التي أمضيتها حتى الآن في القاهرة حققت جميع رغبات فيشل الطويل. تركت مصر مرة واحدة فقط قبل حوالي شهر وسافرت إلى فرنسا، وما أن وصلت فرنسا حتى قابلت صديقي الموظف الكبير بوزارة الخارجية الفرنسية واستطعت بمساعدته أن أحصل على تصريح بنقل آخر دفعة من الأسلحة التي اشتريتها من فرنسا إلى مصر، وكانت تلك الصفقة عبارة عن عشرات الدبابات الحديثة والمدافع المضادة للطائرات التي تحولت فيما بعد إلى خردوات حينما قصفتها الطائرات الفرنسية بالقرب من مطار الفرنسية واستطعت بمساعدته أن أحصل على تصريح بنقل الساعة بين الضباط المصريين. ووضع محمد صدقي محمود يده الواسعة علي كانه يخشى أن يسلبني منه ضابط كبير غيره. وصارت تتوالى الدعوات علي لحضور الحفلات في بيوت ضباط سلاح الجو وفي نواديهم الراقية. كان الضباط في منازلهم يمثلون عائلات محترمة، يتحدثون عن مستقبل بلادهم التي نجحت في أن تضع نفسها في مركز اهتمام العالم كله. وكانوا يتحدثون عن السد العالي الذي سيغير معالم البلاد وعن الأسلحة الحديثة التي تتدفق مع الأصدقاء الجدد - الاتجاه السوفياتي - والتي جعلت من الجيش المصري قوة عالمية. وكان ضباط سلاح الجو يتحدثون مع زوجاتهم عن آخر الكتب التي صدرت في السوق وعن الأدباء القدماء،مثل توفيق الحكيم وطه حسين ويوسف السباعي ذلك الضابط الذي تحول إلى كاتب فذ، وعن زوجة محمد مندور العزيز التي اكتشفت فجأة أنها شاعرة موهوبة.

كان هذا في المنازل، أما في النوادي العسكرية حيث كنا نمضي الأيام اللذيذة والليالي الحمراء، فكانت تحضر نساء أخريات وبصحبتهن كان الضباط غيرهم في منازلهم. كان من

بينهن نجوم السينما. كنا نجلس مجموعات مجموعات حول الموائد نشرب شراباً يطلقون عليه عصير فواكه ولكنه خمر الإذاعة، وكانت فرق الفنانات تظهر أمامنا تسخر من المجتمع القديم وتغني لنظام الثورة. وما كانت الفنانة تنتهي من وصلتها الغنائية أو الراقصة حتى تاتي إلينا، إن قوة الجاذبية في الملابس العسكرية هناك كانت تأسر قلوب جميع الفتيات والطالبات من الأسر المحترمة يتدفقن علينا.

إن سكان أكواخ اللبن المترامية على ضفاف النيل لم يحصلوا تحت ظل الثورة التي قامت باسمهم على أي شيء، ولكن هؤلاء الضباط في النوادي الراقية التي تحيطها الحدائق الغناء حصلوا على كل شيء ويتمتعون بكل شيء. وكان قائدهم سلاح الجو المصري محمد صدقي محمود يشجعهم ويدفعهم للمزيد من المتعة.

قال لي صدقي محمود مرة بعد عودتي من فرنسا، بينما كان الطيارون يرقصون مع فتياتهم في الأنوار الخافتة على أنغام الموسيقى الشرقية، إن الطيار الماهر هو عاشق ماهر. فالطائرات تماماً مثل النساء ولا تكون جميلة إلا في العمل الذي من أجله وجدت المرأة التي تقوم بأعمال الطبخ، تكون في منتهى المثالية، ولكن ترتدي فستاناً عصرياً مشدود الأطراف مكشوف الجوانب، وتشرب كاساً من الويسكي وترتمي على صدر طيار شاب، نجدها تغيرت تماماً، نجدها أكثر جاذبية ورونقاً فلماذا؟ لأنها تكون تنفذ عملها الخاص بها، عملها الذي خلقت من أجله، إنها على وشك أن تنام مع الرجال، ومن أجل ذلك خلقت وهكذا هي الطائرة.

كانت عيني قائد سلاح الجو المصري تتقدان بنار غريبة، وجهه الأسمر يعلوه الاحمرار، كنت أصغي إليه باهتمام حقيقي، ربما لم ينجح صدقي محمود في أن يقيم سلاحاً جوياً مشهوراً ولكنه أحب مهنته، بل كانت له فلسفة خاصة به إزاء السلاح الذي يقوده.

قال لي صدقي محمود في ذلك الوقت: (الطائرة التي تلقي قذيفة على الطيار) فلذلك يجب أن يكون رجلاً حقيقياً أعني عاشقاً مدلهاً. الهدف مثلها مثل الرجل الذي يركب امرأة، وبما أن هذا العمل كله يفعله قلت لصدقي:

أرجو ذلك، وآمل أن لا يلقي طياروك جميع قذائفهم على الأهداف ساعة التمرين، بل يحتفظوا ببعضها للفنانات والطالبات الموجودات هنا.

وعض صدقي على شفتيه السفلى بشهوة وقال:

انظر إليهم هل ينقصهم أي شيء؟

والواقع أن الطيارون المصريين كانوا شباباً حلوين. صحيح أن قاماتهم قصيرة، كبقية الشعب المصري وأجسامهم ممتلئة قليلاً كعادة أهل الشرق، ولكنهم شباب فيهم الجمال ويفاخرون بمهنتهم ومراكزهم. يرقصون مع خيرة نساء بلاد النيل، يعرفون أنهم سيأخذونهن الليلة إلى الفراش. ليبرهنوا على نجاحهم في الامتحان الذي وصفه لهم قائدهم.

كنا نجلس حول إحدى الموائد، أنا وقائد سلاح الجو وضابطين كل منهما برتبة رائد، من المقربين إلى صدقي محمود، وهما صديقي (عبدالسلام دغيري) و(إسماعيل محمد لبيب) الذي كان كما عرفت تلك الليلة خبيراً في الدفاع الجوي. كنا نجلس وبجانب كل واحد منا فتاته، وبما أنني كنت تلك الليلة ضيف الشرف، وبما أن الرائد (لبيب) اعتبرني ضيفه الخاص، تقديراً على خدماتي بإحضار المدافع المضادة للطائرات التي اشتريتها من فرنسا فقد حرص بأن يسلمني فتاة جميلة إحدى نجوم السينما تدعى (دنيا). ورأت (دنيا) هذه أن من واجبها أن تعلمني كيف أحب المصريين وأحب أنوثتها، وفعلت كل ما أرادت تلك الليلة. بين الحين والحين كنا نقوم نرقص، وكانت دنيا تعلمني أن الرقص معناه الالتصاق جسداً بجسد. حرصت أن لا أكثر من الشراب، ولكني شعرت في آخر الليل أن زمام لساني قد أفلت وكذلك كان جميع الموجودين، وخاصة الطيارين وفتياتهم، فقد بلغ الجميع ذروة النشوة والصخب، ولم يكن داع لحذري. وفي إحدى الرقصات اصطدم بنا ضابط طويل برتبة رئيس، سرعان ما جاء يعتذر ثم عرفني على نفسه قائلاً:

قائد الجناح صالح عبدالنبي من مطار الأقصر.

وبما أنه لم يكن داع لأعرفه على نفسي، إذ المفروض أن الجميع يعرفونني قد جرى التعارف بين الفتاتين وجلسنا الأربعة إلى إحدى الموائد لنستريح، ونتناول كأساً من الشراب. سألت قائد الجناح صالح بعد أن استلقينا على الكرسي: هل جئت من الأقصر إلى هنا من أجل هذه الحفلة؟

- كلا قالها مبتسماً بسبب السكر والتأدب معاً، لقد جئت للاشتراك في دورة طائرات اليوشن فسنستلمها قريباً، كان هذا يتكلم بحرية لأنه يعرف أنه يتكلم إلى صديق القائد، على المورد الرئيسي لسلاح الجو المصري. قلت له:

فهمت من خلال أحاديثي في القيادة أن هذا المطار سيكون من أكبر المطارات قال:

بل اليوم يعتبر هذا المطار هو الثاني بمساحته بعد مطار الماظة، فقد جرى توسيع المدرجات إلى أكثر من كيلومترين ونعمل باستمرار بإضافة مدرجات جديدة إليه، إني أدعوك لزيارة المطار والمحطة الجديدة، فلدينا طائرات نقل روسية تستطيع أن تحمل سرية جنود كاملة دفعة واحدة. وسألته متظاهر بأنه سؤال عابر:

كيف يجد رجالكم التدريب على الطائرات الروسية النفاثة؟ فهي تعتبر جديدة عليكم بالنسبة لطائرات الغامباير والميتيور؟

فانحنى قائد الجناح صالح نحوي ليقول:

- إننا لا نتدرب ما فيه الكفاية، ولكن هذا هو شعوري الخاص بالطبع ربما من المتعذر زيادة التدريب لأكثر من هذا. إذ لا يسمح لنا بالطيران سوى ٢-٣ ساعات في الشهر فقط. ولكن لا داعي للطيران أكثر من ذلك. دعوته لنعود إلى الرقص، فشكرني وسألني بأدب محاولاً أن يدلل على محبته لي:

هل ترقص معها وأشار إلى صاحبته؟

تبادلنا الفتيات طوال الرقصة ثم عدت مع دنيا إلى مائدة القائد، الذي ابتدرني قائلاً:

رأيتك تتحدث مع قائد الجناح عبدالنبي، فما هو رأيك فيه؟

كنت مضطراً أن أتعلم كيف احترم صدقي محمود، وكان يعرف رجاله، يحبهم ويهتم بأمورهم. فقلت مجيباً على سؤاله:

إنه ضابط جدي، يسير في الطليعة.

ونظر إلي القائد وابتسامة خفيفة امتدت بين تجاعيد وجهه ثم قال:

- إن لك نظرة لا تخيب يا آرام فعبد النبي هو من خيرة رجالنا. ولكنه دائماً متسرع. إن الطيار الممتاز يا آرام مثل العاشق الممتاز يجب أن يعرف متى يسرع ومتى يعمل ببطء رويداً، رويداً.

افترقنا في ساعة متأخرة من الليل، وصحبني الرائد لبيب بسيارته حتى المنزل الذي اشتريته قبل بضعة أيام في طرف حي (هليو بوليس) فودعته أنا ودنيا وسرت معها إلى المنزل الذي تحيط به وتغطيه الأشجار. وفجأة استدارت دنيا والتصقت بي وقالت هامسة:

إن أحداً في الحديقة. والصحيح أني شاهدت شبح رجل يهرب من الحديقة ويقفز عن السياج ويتوارى، وقلت لدنيا:

لا تخافي، إنه واحد من الحراس الذين أرسلهم صديقي صلاح نصر ليهتموا بسلامتي.

ومررت بيدي بخفة على ردفيها المتلتلتين وفتحت الباب، كنت آمل أن يكون رجال صلاح نصر قد تمكنوا من إجراء تفتيش دقيق في المنزل.

المخبأ السري

٣ تموز ١٩٥٦

■ نادى المؤذن من فوق المسجد، (الله أكبر الله أكبر) وصحوت من النوم. وقد اختفى صوت المؤذن، ولكن جرس التلفون ظل يدق. استدرت في الظلمة ورفعت السماعة قائلاً: صباح الخير، من انت؟

أنا محمد لبيب، هل سمعت الأخبار؟ نظرت حولي، دنيا بجانبي تتلوى تحت الغطاء، تشد صدرها العامر، الذي يشتهيه ملايين المصريون ويرونه بأحلامهم في قصور القاهرة وفي الأكواخ الممتدة على النيل. قلت أية أخبار يا حبيب؟ إننا لم نستيقظ بعد. قال أرجو المعذرة، ولكن الأمر مستعجل جداً، إن القوات الفرنسية على وشك أن تنزل في بور سعيد، وطلبت السفارة من جميع الرعايا الفرنسيين أن يغادروا البلاد خلال يومين. أفاقت دنيا مذعورة، وضمت يدي اليسرى على جسدها العاري وامسكت السماعة بيمناي وكانت دنيا تتململ تحت يدي، ثم وخزتني بإصبعها تحت إبطي، وانفجرت ضاحكاً. وهنا قال لبيب غاضباً:

ما الذي يضحك في هذا؟

حكة كلا كلا، وطلبت من دنيا أن تكف عن مزاحها.

وسألني لبيب، ما الذي يشغلك في مثل هذا الصباح، الا يمكنك أن تكون جدياً مرة واحدة، إننا في حالة يائسة يا آرام، سيهاجموننا من الجو والبحر.

قلت مستغرباً: ولماذا تقول لي ذلك انا بالذات؟ الم تستعدوا لمثل هذه الحالة منذ أن أعلن الرئيس عبدالناصر تاميم قناة السويس؟

وقال لبيب واليأس يبدو عليه: يا أنوير بك، أنا المسؤول عن الدفاع الجوي في منطقة القناة. لقد وعدتنا بان تشتري لنا أجهزة رادار من تركيا. قلت له:

سنلتقي عندك في المكتب بعد ساعة، مجرد أن أرتدي ملابسي فقط.

تناولنا طعام الفطور على شرفة غرفتي المطلة على النيل، وكان مطار الماظة يتراءى أمامنا بعيداً عند الأفق، ما كانت تبدو أمامنا جدران مصنع الصواريخ الجديد الذي أقيم عند طرف (هليو بوليس). وبالقرب من هناك يوجد معسكر القيادة المصرية وبجانبه سفارة الشقيقة الكبرى (الاتحاد السوفياتي) ووجود جميع المنشآت الهامة في تلك المنطقة جعلت من الشراء فيها عملاً تجارياً كبيراً. وعلاوة على ذلك كانت للمنزل ميزات أخرى جعلته ملائماً لطبيعة عملي الحقيقي، كان صاحبه بناه خصيصاً لي.

اشتريت ذلك المنزل في فصل الربيع بعد وصولي القاهرة بمدة قصيرة من شخص يدعى (طارج) وكيل تاجر إنجليزي للمواد الكيمياوية، وقد قرر ذلك الوكيل مغادرة مصر وبيع المنزل. واثناء المفاوضات التي أجريتها معه في صالة الاستقبال المكيفة الهواء أكد لي ضرورة دفع الثمن بواسطة شك مسحوب على أحد البنوك السويسرية، وقال:

إن أموالي التي كنت أخفيها في الفجوة السفلى لم أكن أستطيع دائماً إخراجها من مصر، ولذلك لا أحب أن تدفع لي ثمن المنزل هنا، فتبقى أموالي داخل مصر دون أن أستطيع إخراجها.

والصحيح أن الفجوة السفلى التي تحدث عنها هي التي دفعتني أكثر من أي شيء آخر لشراء المنزل. وحينما ترددت إزاء السعر المرتفع الذي طلبه قادني إلى غرفة عمله، ومن على أحد الجدران أزاح صورة كبيرة، وظهر تحتها ثقب، أدخل فيها مفتاحاً، ثم جذب باباً صغيراً من الفولاذ كان مستوياً مع الجدار ولا يمكن تمييزه بالعين. وخلف هذا الباب الصغير أدار

جهاز فتح صغير، وعندها فتح باب مصفح يغطي قاعة فولاذية كبيرة داخله كلها في وسط الجدار ثم قال:

ما رأيك؟

سألني وأضاف: لا تحتاج لمثل هذا.

واستمر يقول كأنه يكشف سراً: إنني أعلم بماذا تشتغل.

ضحكت وقلت له: وهل تعتقد أن الرجل المحترف الذي سيجري تفتيشاً عن مبالغ كبيرة من المال محفوظة داخل هذه القاصة سيعجز عن كسرها أو معالجتها بأية طريقة؟

قال طارج: تفحصها جيداً، إن فيها شيئاً خاصاً.

أثار ذلك اهتمامي، ورحت أتفحص القاصة من كل جانب وتحسست مكان اتصالها بالجدار ومررت بإصبعي على جدرانها الداخلية وعلى سقفها وأرضيتها، فلم أجد شيئاً خاصاً بها. ورمقني طارج بنظرة غاضبة، ثم تقدم من طاولة، وأخرج من درجها جسماً أشبه ما يكون بإزميل حاد، ثم أخذه وانحنى داخل القاصة وغرس الإزميل فيها وبعد جهد بسيط ارتفعت قطعة فولاذية مربعة صغيرة من أرض القاعة، ومرة أخرى سحب طارج مفتاحاً صغيراً من جيبه وأدخله في الثقب الذي نجم عن خروج قطعة الفولاذ المربعة ورأيت أرضية القاصة ترتفع من أحد جوانبها، ثم قام طارج برفع الأرضية وظهرت تحتها فجوة كبيرة، عبارة عن قاصة أخرى. ثم عاد طارج وأغلق القاصة ثم قال لي:

يا مستر انوير إن أعمالك لا شك تعود عليك من حين لآخر بمبالغ كبيرة لا تحب أن يعلم بها أحد غيرك. وكل رجل أعمال تتوفر لديه مثل تلك المبالغ، أنا كنت أحتفظ هنا دائماً برزمات كبيرة من الجنيهات الإنجليزية أو دولارات. إن الرجل الذي صنع هذه القاصة موجود في إنجلترا وسأكون هناك قريباً، وبذلك لا يظل في مصر أي إنسان يعلم بأمر القاصة سواك. ما رأيك كم تستحق هذه الصفقة؟

قلت: لا بأس سأشتري المنزل.

كنت احمل معي دائماً مبالغ كبيرة من العملة الأجنبية تحرمها قوانين الجمهورية المصرية، كما كنت احتفظ بنسخ من الرسائل التي أبعث فيها إلى وكيلي في سويسرا (زيجريدلاها) اعلمه فيها كيف يتصرف بالأموال. وكانت عندي فواتير مستندات توضح بسهولة أن المبالغ التي ربحتها من تجارة السلاح مع المصريين هي أكبر بكثير مما كنت أعترف به لهم. كانت عندي بلا شك معلومات وافية تهم صلاح نصر، لو استطاعوا أن يصلوا إلى القاصة الجديدة هذه لعثروا على المبالغ التي وضعتها كلها في القاصة العليا، أما السفلى فوضعت فيها أشياء أخرى مثل آلة تصوير خاصة - ميكروفيلم - وأدوات صغيرة لتحميض وطبع الصور، وتحويل الوثائق إلى صور صغيرة بحجم عين الذبابة، وعلبة معدنية تحتوي على سائل يحول الأوراق عند سكبه عليها إلى مادة لزجة على الفور. وفي علبة أخرى كانت لاسلكية صالحة للاستخدام مرة واحدة فقط. وكان في القاصة السفلى أيضاً صحن صغير يحتوي على عدد من الحبوب الصغيرة البيضاء وكل حبة منها تقتل رجلاً سليماً خلال ٢-٣ دقائق. كنت أنا ذلك الرجل السليم الذي خصصت له تلك الحبوب البيضاء وكان لا يزال في القاصة السفلى مكان كبير يتسع لإخفاء جهاز لاسلكي يعمل على موجة قصيرة وبقوة عالية.

أنهينا طعام الفطور - أنا ودنيا - وهنا وصلت الخادمة العجوز التي كانت تتولى تنظيف المنزل يومياً.

قلت لدنيا: يجب عليك أن تبحثي لك عن صديق آخر، فإن علاقتك معي لن تفيدك بشيء فاليوم أنا هنا، وبعد سنة حيث تنشب حرب في جزء آخر من العالم سأطير إلى هناك إلى البرازيل أو السويد مثلاً.. وراء تجارتي، كانت الصحراء على بُعد مئة خطوة من منزلي. وكان وهج الشمس الحار يلفح وجوهنا، مع أننا لا نزال في بداية النهار. وعلى بُعد قليل منا كانت قناة الإسماعيلية المؤدية إلى بحيرة التمساح حيث تتسع قناة السويس، تلك القناة التي تربط المحيطات والبلدان والتي تقرر مصائر شعوب ودول لا يبعد مكانها عنا أكثر من مسيرة أسبوع واحد في سفينة سريعة.

وفي الكراج، الكائن عند نهاية حديقة المنزل، كانت تقف السيارة التي استأجرتها مؤخراً لتنقلاتي، استأجرتها ولم أشترها لأؤكد لمعارفي بأن إقامتي في القاهرة مؤقتة وليست

دائمة. وكنت انتقل أنا ودنيا، بين الحفلات الكبيرة وضواحي القاهرة ثم أعود إلى هليو بوليس التي يطلق عليها مصر الجديدة.

عدت إلى المنزل بعد ساعتين، وأعطيت الخادمة إجازة لأسبوع ثم فتحت القاصة وحشوت محفظتي بالنقود، ثم فتحت القاصة السفلى، وقمت نسخ الرموز اللاسلكية وحملت حبة بيضاء لفغتها بقطعة من الورق وأغلقت القاصتين ثم ألصقت الحبة البيضاء بمادة لاصقة على جانب الطاولة. وقلت في نفسي إذا اكتشفوا هويتي الحقيقية أثناء غيابي سينتظرونني هنا، وعندها، سأجد بلا شك الفرصة لأصل إلى الطاولة وآخذ الحبة البيضاء وأبتلعها وبعد لحظات يكون (آرام انوير) في عالم آخر تركت المنزل وتوجهت إلى المطار وكانت القيادة المصرية قد حجزت أجهزة حديثة لحساب سلاح الجو المصري، وهي نفس أجهزة الرادار التي كانت قبل بضعة سنوات منصوبة على الحدود بين تركيا والاتحاد السوفياتي. أما اليوم فلم تعد قيمة لتلك الأجهزة في تركيا بعد ان وضعت على حدودها شبكة رادار واسعة وحديثة أكثر بالتعاون مع الدول المشتركة في حلف بغداد. وكانت أجهزة الرادار التركية السابقة لازمة لمصر لتكمل على طول قناة السويس ومنطقة الدلتا. وكانت القوات الإنكليزية قد تركت في مصر بعد جلائها أجهزة رادار محلية فقط، بينما رفضت الشقيقة الكبرى - الاتحاد السوفياتي - تزويد مصر بأجهزة الرادار بحجة إنه لا توجد في مصر القوى البشرية المؤهلة والمدربة على استخدام الرادارات الحديثة.

وصلت المطار في نهاية الوقت المحدد لإقلاع الطائرة، ووصلت في أعقابي سيارة أخرى. وخرج منها تاجر ممتلئ البدن وقطع تذكرة للسفر إلى تركيا وصعدنا معاً إلى الطائرة، وجلس كل منا في مكانه وفجأة شعرت أن التاجر البدين سيكون بلا شك الظل الذي سيتبعني في كل مكان في تركيا، وحتى عودتي إلى مصر. وكان علي أن أقوم بالسفر إلى إسرائيل من تركيا لمقابلة المسؤولين عني فكيف أفعل وهذا الظل التاجر يتبعني في كل مكان. وكانت الرسالة الأخيرة التي وصلتني إلى مصر من وكيل أعمالي (زيجفر يدلاها) من سويسرا تتضمن نقطة صغيرة سوداء بحجم عين الذبابة، ولما قمت بتكبير النقطة وحل رموزها علمت أن المسؤولين يطلبون عودتي إلى إسرائيل حالاً.

اللواء محمد نجيب

٣ آب ١٩٥٦

■ كان الرجل الجالس قبالتي يتكلم طوال ربع ساعة بدون توقف وأنا انصت لكل كلمة، وشعرت كيف أن العزلة تمسك بي بإحكام. لقد مات أستاذي فيشل الطويل، وحل محله أقزام. وكان محدثي يكرر الحديث حول نفس الموضوع ويقلبه على كل جوانبه، يشرح ميزاته وخصائصه كأنه يريد أن يقنع بذلك نفسه قبل أن يقنعني أنا.

قال: الحراسة ضعيفة جداً، ويمكن بسهولة تمرير ورقة صغيرة إليه.

قلت: أعرف ذلك، فأنا الذي قدم لك معلومات حول الحراسة.

قال: صحيح، ولذلك يكون ميسوراً بالنسبة لك أن تصل إليه.

وقررت أن أضع حداً لحديثه. فليس من أجل هذا خاطرت بالقدوم من مصر عبر تركيا إلى إسرائيل ليلاً، بعد أن أبقيت (الظل) التاجر المصري البدين الذي تبعني إلى تركيا ينتظر مخدوعاً أمام باب غرفتي.

قلت لمحدثي: لن يكون ميسوراً علي الوصل إليه. والأهم من ذلك لن أغامر بكل ما أحرزته من تقدم في عملي خلال سنتين من أجل عمل فارغ من هذا النوع.

وعندها تذكرت ما قاله قائلاً:

إذا فرضوا عليك أعمالاً ثانوية غير مهمة، ارفضها بكل شدة. وإذا ضغطوا عليك، اطلب مقابلتي شخصياً. وإذا لم أكن موجوداً اطلب مقابلة مدير المخابرات نفسه وحدثه عن ذلك.

ولكن فيشل الآن ليس حياً. ومدير المخابرات نفسه هو الذي يطلب مني تنفيذ تلك الفكرة الخرقاء. قال لي محدثي (مساعد مدير المخابرات الإسرائيلية) نحن الذين نقرر ما إذا كان العمل فارغاً أم لا... و .. وأكملت بدلاً منه قائلاً: ربما ولكن يجب أن لا أقوم بمثل ذلك العمل، فقبل مدة هناك، عندما كنا في القاهرة نقوم بتنفيذ بعض الأعمال الاستخباراتية، لاشك كنا نعرف ماذا كانت النتيجة، واحب أن أقول لك بصراحة إذا كنتم تصرون على قيامي بذلك العمل، فذلك يعني أنه ليس لكم عميل واحد صادق تعتمدون عليه في القاهرة غيري. فإذا كان الحال كذلك بالفعل، فبالطبع يجب أن لا أخاطر أنا من أجل ذلك العمل، أعود وأقول من أجل عمل فارغ.

فرد علي قائلاً:

- حسناً عد إلى غرفتك، سنلتقي هنا غداً بحضور مدير المخابرات نفسه.

قلت: ليس لي غرفة، ولن أقابلكم غداً، وقد قلت لك أن الظل، يرابط على باب غرفتي في الفندق بتركيا بعد أن تسللت من الغرفة ليلاً بدون أن يراني ويجب أن أعود الليلة إلى هناك قبل أن يكتشف أني لم أكن في الغرفة. ولذلك سأعود في الطائرة التي تقلع إلى تركيا عند منتصف الليل أتسلل إلى غرفتي بدون أن يشعر بي أحد. وفي الصباح سأخرج مع صديقتي - كأننا لم نفترق طوال الليل - ليلاحقنا الظل من جديد.

إن الظل في الوقت الحاضر يعتقد أنني مع صديقتي، نتبادل الحب والغرام، وقد قلت لها - لصديقتي - أن تقف داخل الغرفة وهي مضاءة، ليراها الظل وهي تحتضن رأس التمثال الذي لا شك يحسبه الظل أنه رأسي أنا فما رأيك بذلك؟

رد علي: يبدو لي كل ما ذكرته لا أهمية له ومن ناحية أخرى فإن المهمة التي أكلفك بها تربطها علاقة كبيرة بالمهمة الرئيسية التي تقوم أنت فيها بالقاهرة! قلت غاضباً: إن المهمة الرئيسية لي في القاهرة إقامة علاقات وثيقة مع كبار قادة سلاح الجو المصري، وتقديم التقارير المطلوبة والمعلومات إليكم. وهذا كل شيء. وهذه مهمة كبرى شاقة وهي بنفس الوقت لا تكلفكم شيئاً وأن إعادة الجنرال محمد نجيب إلى كرسي الحكم فكرة

خاطئة لأن الرجل نفسه عاجز تماماً. لقد كان محمد نجيب ولا يزال مجرد لعبة بأيدي ضباط الثورة. فهو لم يكن يعرف الموعد الذي تقرر للقيام بالثورة، وكل ما في الأمر أن الضباط الأحرار كانوا بحاجة له، بمثابة أب لهم فقط. هل تعرف من الذي أخبر محمد نجيب ليلة الثالث والعشرين من يوليو بقيام الثورة ونجاحها؟ إنهم الإنجليز وهم الذين استدعوه ليكبح جماح الضباط، واليوم وهو معتقل في منزله تحت الحراسة مجرد ببغاء منتفخة في قفص. فهل مثل هذا الشخص يسعى الفرنسيون لإعادته إلى الحكم؟ إن حراسه سيقتلوه قبل أن تتمكنوا من إطلاق سراحه. ولو فرضنا أنكم نجحتم في إطلاق سراحه فإنه لن يبدو حتى كلعبة وإنما كلعبة من قش. وأنا لن أحاول الاتصال به ولن أغامر بكل ما أحرزته من نجاح من أجل فكرة مهبولة.

كانت هذه أطول خطبة ألقيتها في حياتي، وخلالها كنت أشتاط غضباً ولأول مرة أضرب الطاولة بيدي. لقد مضت سنوات طويلة وأنا بحكم عملي أنصت ولا أتكلم. ولكن في هذه الليلة الوحيدة كنت أحس أن فاصلاً كبيراً يقوم بيني وبين الماضي. كنت أحس نفسي غريباً في وطني الأم، أسرع في العودة إلى البلد الذي يكتنفني فيه الخوف باستمرار. وفي تلك السنين، منذ أن أدخلني فيشل إلى الفراش مع فتاة واستدعى صديقتي الحامل - نعومي - لتراني في الفراش مع امرأة غيرها. ولكنني لا أستطيع أن أغضب على فيشل، كان فوق ذلك.

بدا مساعد مدير المخابرات يتحدث الآن في صلب الموضوع وقال:

يهمنا الحصول على معلومات مفصلة جداً عن القوات المصرية في سيناء، والمطارات، أنواع الأسلحة والطائرات، توزيع القوات الأرضية بالتفصيل إذا استطعت. والأهم من ذلك الحصول على خرائط دقيقة للمعسكرات والمواقع والطرق الصالحة للمرور والمناطق غير الصالحة للحركة، والخطط الاستراتيجية المصرية بالنسبة للحرب في سيناء. إن هذا الرجل يكاد يفقدني صوابي. إنه يطلب معلومات مفصلة أرسلتها إليه من مصر قبل بضعة أسابيع فقط. فما الذي حدث له؟

قلت له بحذر: بالنسبة للمطارات فقد أرسلت لكم معلومات وافية عنها، أما بخصوص أنواع الطائرات في سيناء فليس في سيناء طائرات بالمرة فيما عدا طائرات نقل قديمة. كذلك أبلغت عن أماكن توزيع السلاح الجوي المصري وأبديت لكم رأيي الشخصي في السلاح الجوي وقلت أنه ليس لهم سلاح جوي حقيقي تقريباً. ففي المرحلة الحالية لا تزال الصفقة

التشيكية تشكل عبئاً ثقيلاً عليهم. وبخصوص خططهم الاستراتيجية فقد أبلغتكم بذلك وقلت إن التحصينات موجودة تماماً على الحدود، وسيقوم سلاح الجو المصري بحمايتها من بعيد بواسطة طائرات الميج.

ولكن ليس لديهم سوى سربين صالحين، أحدهما في مطار (كبريت) والثاني في (أبو صوير) وعلاوة على ذلك فإن طائرة ميج ١٥ لا تناسب حسب رأيي ورأي خبراء الطيران مثل هذه الأعمال هذه الطائرة مخصصة فقط لمقاتلة القاذفات، فنيران مدافعها بطيئة ولا يستطيع الطيار استخدامها إلا وهو يطير على ارتفاع منخفض وبسرعة بطيئة. كما أن كمية الذخيرة التي تحملها هذه الطائرة قليلة، وتنقصها أجهزة أوتوماتيكية كثيرة بحيث أنه حينما تشتبك الطائرة في معركة جوية أو بإطلاق النار على قوات أرضية يكون الطيار مشغولاً بتوجيه الطائرة ولا يمكن لنيرانه أن تصيب أو تفيد. وبالإجمال أعتقد أن المصريين ليسوا مستعدين حتى الآن للحرب أية حرب على نطاق واسع حقيقي.

ولما انتهيت قال محدثي:

إن آرائك هذه لم توافق عليها المخابرات، وقال الاختصاصيون بأن الجيش المصري في سيناء يشكل خطراً على وجودنا ونريد منك أن تأخذ معك إلى مصر جهاز إرسال حينما تبدأ الأمور بالتوتر، سنجري معك عدة اتصالات في الأسبوع.

لم أتمكن من اللحاق بالطائرة التي توجهت إلى تركيا في منتصف الليل فقد أمضيت ساعة كاملة أتعلم طريقة استخدام جهاز الإرسال اللاسلكي الذي سلم إلي والذي لم أعرف بأية وسيلة سأدخله إلى مصر. ومع أن الجهاز كان صغير الحجم بالنسبة لقوته إلا أنه ملأ حقيبة غير صغيرة وهو مفكك الأقسام.

لقد حسب فيشل الحساب لكل هذا في حينه بل حسب حساب صدور أوامر وتعليمات خرقاء إلي، ولكن فيشل لا يستطيع الآن أن يمنع المسؤولين عني من القيام بالعمل الذي تتحول إليه أجهزة المخابرات في كل بلدان العالم إذا كان رؤساء تلك الأجهزة أغنياء، سذجاً والواقع أن جميع أجهزة المخابرات وحتى الباردة المزاج منها يتهددها خطر وجود رؤساء أغبياء لها.

وهكذا كان المسؤولون عني يحبون أن يحسوا بأنهم لهم جاسوساً في مصر، ولذلك من الضروري أن يكون معه جهاز لاسلكي، ويبدو أن وسيلة الاتصال البسيطة المأمونة بواسطة رسائل إلى وكيلي (زيجفر يدلاها) لم تكن كافية لإشباع رغباتهم وشعورهم بأنه ينقصهم شيء ما.

ومع ذلك وجدت أن معهم الحق حينما قال بان وسيلة الاتصال بسيطة وهي رسائلي (زيجفر يدلاها) التي لا تعتبر وسيلة سريعة.

والآن والساعة الثانية بعد منتصف الليل دخلت الطائرة المتوجهة إلى تركيا عن طريق قبرص وبيدي حقيبة مليئة بمادة هي أخطر في نظر الكثيرين من مادة (النيتروجلسرين).

عملية تهريب

٢٥ أغسطس ١٩٥٦

▣ يقع المطار الصغير في مدينة دمياط على شاطئ البحر المتوسط في طرف نهاية بحيرة المنزلة. وهذه البحيرة عبارة عن مستنقع كبير. أكبر مستنقع في منطقة الدلتا. وتدخل مياه البحر إلى هذه البحيرة التي تحيط بها أراض خصبة بسبب وجود الطمي الذي يجرفه إليها نهر النيل من جبال الحبشة على بُعد ستة آلاف كيلومتر. ولا تعيش في البحيرة سوى الأسماك وعصافير البحر وكذلك الصيادين. ولكن في صباح هذا اليوم لم يسمح لصيادي الأسماك بالاقتراب من الطرف الغربي لبحيرة المنزلة حيث المطار الصغير. وقدم إلى المطار في ذلك اليوم كبار الشخصيات لاستقبال سفينة تركية، يجري سحبها إلى المياه بقارب بخاري.

وكان من بين تلك الشخصيات التي حضرت لتستقبل حمولة السفينة القادمة من تركيا قائد سلاح الجو المصري محمد صدقي محمود يرافقه البكباشي جمال الدين محمود عفيفي من فرع العمليات الجوية، وصديقي لبيب مدير فرع الدفاع الجوي، والصديقين اللذين تعرفت عليهما في باريس قديماً وهما البكباشي محمد مدكور أبو العز، والصاغ عبدالحميد عبدالسلام دغيري. كان هؤلاء هم المسيطرون على سلاح الجو وجاؤوا الآن ليروا الحمولة الثمينة التي أحضرتها من تركيا، ألا وهي أجهزة الرادار التي ستكمل شبكة الدفاع عن القناة بوجه العدوان الإنجلو - فرنسي المتوقع في كل لحظة. مكثت في تركيا أربعة

أسابيع تقريباً ابحث عن أجهزة الرادار، وخلال ذلك أهرب بعض الأسلحة الأوتوماتيكية الخفيفة إلى جبال كردستان. أما التاجر البدين (الظل) الذي كان يتعقبني طوال الوقت سيقدم - ولا شك - تقارير في غير صالحي بسبب إرسال السلاح إلى كردستان كما أن تقاريره ستوضح أيضاً مدى حبي للمال وللنساء.

فأنا بعيد عن موطني، أتجول معظم الوقت في مدينة كبيرة، ولذلك سمحت لنفسي بأن تظهر مدى شغفي بملذات هذا العالم.

كانت الأموال تسيل في يدي كنهر النيل الذي لا نهاية لمياهه، وكل فتاة مشهورة في أنقرة، فتاة تحترم نفسها، رأت من واجبها أن تساهم في تبذير أموالي. ولكن الآن تركت كل ذلك ورائي. فأنا أقف حالياً على ظهر السفينة (١/ق) أناضوليا، انظر بهدوء للمياه الزرقاء التي تخف زرقتها كلما اقتربنا من الشاطئ الذي تتدفق إليه بكل عام ملايين الأطنان من الطمي. واقتربت السفينة من المرسى الصغير، وكنت ألوح بيدي إلى أصدقائي الذين كانوا يردون علي بحركات حماسية تعبيراً عن الفرح.

نزلت إلى الشاطئ وتصافحنا بحرارة، وكان أكثرهم حماساً صديقي لبيب الذي عاد وقال:

يا أنوير بك.. أنت دائماً تقف معنا عند الشدة. أنت صديق حميم للجمهورية المصرية. ربت على كتفيه وابتسمت وقلت:

يا محمد لبيب يا بؤبؤ عيني، لا تركن على أصدقاء مثلي، فأنا على استعداد دائماً لأبيعك مقابل صفقة سلاح كبيرة. ضحك الحضور فيما عدا محمد مدكور أبو العز الذي ظل طيلة الوقت مقطباً وجهه، وبعد ذلك الوقت بإحدى عشرة سنة حينما اقتيدوا جميعهم إلى السجن العسكري ما عدا أبو العز، كان لديهم الوقت الكافي ليتأملوا إنذاري ذلك. ولكنهم كبقية الناس لم يستمعوا إلى إنذاري الحكيم. وضحكنا كلنا بصوت مرتفع، وقال لي محمد صدقي محمود:

بعد أن تكمل جميع الاستعدادات ستكون في ضيافتي وسنخرج معاً إلى بالقى (مكان نزهة جميل غرب الإسكندرية) سنعطي بنات الإسكندرية فرصة الحياة. ومرة أخرى ضحكنا، فيما عدا أبو العز. ثارت مخاوفي القديمة منه، وقررت، في قلبي أن أبحث عن طريق

لإبعاده، وإقصائه عن المكان الذي تتقرر فيه شؤون سلاح الجو. وكنت أعرف أن سلاح الجو المصري قادر على التقدم بدون أبو العز.

تم إنزال الصناديق الكبيرة التي تحتوي على أجزاء أجهزة الرادار الثمينة بحذر كبير من السفينة إلى المرسى. وكان من بينها صندوق واحد لا يتطلب إنزاله الحذر الكبير. وعلى ذلك الصندوق كتبت بحروف بارزة كلمات (أنوير - شخصي - هليوبولس / مصر) وجرى تحميل الصندوق على سيارة شحن صغيرة بجانب حقائبي المحشوة بالملابس. وقيل للسائق بأن يوصل هذه الحمولة حتى باب منزلي، وينتظر قدومي هناك. وتحركت أنا نفسي بسيارة صدقي محمود، وطوال الطريق كان يحدثني عن احتمال الغزو المتوقع. فقد كانت مصر قد أممت القناة والإنجليز والفرنسيون يعتزمون استرجاعها بقوة السلاح عن طريق غزو منسق بين الأسلحة المصفحة والمشاة من ليبيا والسلاح البحري من قبرص. ولم يذكر صدقي محمود شيئاً عن العدو الإسرائيلي.

أدخلت بمساعدة سائق الشاحنة ومعاونه صندوق المشروبات إلى شرفة مطبخ المنزل. وفتحت الصندوق بواسطة فاس ووزعت على الحضور زجاجة لكل واحد بالرغم من تظاهرهم بالرفض. وعندما انصرفوا فككت بقية أجزاء الصندوق وظهرت علب كبيرة من الكرتون مكتوب عليها اسم الشركة التي تنتج الويسكي وعليها صورة الرجل الإسكتلندي بتنورته التقليدية وهو يرقص على أنغام المزمار. أدخلت الشراب إلى المطبخ وأغلقت جميع الأبواب وفتحت إحدى علب الكرتون وكانت عليها علامة خاصة، وأخرجت ما بداخلها وكان جهازاً لاسلكياً يعمل على موجة قصيرة وبقوة كبيرة، وسلك الأنتين (هوائي للجهاز) ويمكن وضعه داخل الغرفة، وبقية التوابع الأخرى، ثم فتحت القاصة الحديدية في جدار المنزل، تفحصتها فعرفت أن الأيدي في غيابي عبثت بها، أما القاصة الحديدية السفلى فلم يهتد إليها أحد. فتحتها وأدخلت فيها الجهاز وتوابعه، وأعدت إغلاقها واستلقيت على فراشي. إن طريقاً طويلاً قد قطعته في العامين الأخيرين وأنا الآن متعب للغاية. وفي أحلامي رأيت الجنرال محمد نجيب يمد لي يده من فوق سور منزله المحجوز فيه. رأيت أنه كان يعلم بأن هذه الفرصة الأخيرة له ليهرب من سجنه ويعود ليقف على رأس الثورة التي قام بها إلى الطريق الذي انحرفت عنه. ولكنه كان يعرف كذلك بأنني لن أمد له يدي. ورأيت التعب باد عليه وانه اخذ يتزحلق إلى الوراء ليقع في حديقة منزله، ولم أستطع أن أفعل شيئاً.

فهناك عند زاوية البيت المجاور رأيت فيشل الطويل والكولونيل أبو العز ينظرون إلي. لم استغرب وقوفهما معاً ولا يحول احدهما التستر من الثاني، ذلك لأن هدفاً واحداً لهما وهو أن يدفعا آرام أنوير إلى الأمام بكل قوة.

صحوت من نومي، وأنا أتلمس بيدي ردفي دنيا وقلت لها:

تعالي هيا نهرب من هنا، لنذهب إلى متنزه بالقى، فهناك ينتظرنا صدقي محمود ومعه جميع فاتنات الإسكندرية.

الفخ

٨ تشرين أول ١٩٥٦

■ لقد جرى تصليح وتوسيع الطريق الواصل بين القاهرة وأسوان، واستغرق العمل فيه مدة طويلة بدأت في صيف سنة ١٩٥٥، وعندها بدأت فكرة إنشاء السد العالي. هذا السد الذي يهدف إنشاؤه إلى زيادة مخزون المياه بمعدل ٢٥ ضعفاً عن المخزون الحالي من مياه نهر النيل. والمؤكد أن إنشاء السد سيستغرق مدة طويلة. والعمل في السد يتطلب الاتصال وتوسيع الطرق، ووصل الاتصال حتى الآن إلى مدينة (قنا) وعند المدينة ينحرف نهر النيل بعد أن يسير باتجاه الشرق على طول عشرات الكيلومترات بخط مستقيم نحو الأقصر. وعند الأقصر يعود النهر إلى التعرج نحو الغرب ثم يعود ويستقيم حيث يعبر الصحراء إلى الجنوب باتجاه أسوان ومنها إلى قلب منطقة خط الاستواء.

كانت سيارة الشفروليه الكبيرة التي استخدمها وهي من نفس النوع الذي يستخدمه الرئيس عبدالناصر نفسه كانت تلتهم الطريق بسرعة كبيرة وأصوات محركها تختلط بأصوات احتكاك العجلات بالشارع. كنا نسير نحو الجنوب في منطقة زراعية تكثر فيها القنوات الخاصة بالري والتي تشرف عليها الحكومة المصرية نفسها. ومررنا على عشرات الجسور فوق قنوات المياه. وكان الفلاحون ينتشرون في المزارع يروون من مياه النيل حقول القطن والأرز. وقلت في نفسي: لو كان الرئيس عبدالناصر قد انصرف إلى إنشاء السد العالي فقط ولم ينصرف إلى شراء القاذفات النفاثة، لكانت بلاده قد انتعشت وازدهرت وكان بوسع

المهندسين الإسرائيليين أن يقيموا هناك الصناعات الخفيفة والثقيلة. وقطعت هذا الحديث الذي كان يدور بيني وبين نفسي، وأدركت أنني ارتكب به خطأ كبيراً، ولكن السبب في ذلك كانت (صوفي).

صوفي ياسين.. الفاتنة القبطية، التي أمضي معها منذ حوالي الشهر عدة ساعات في كل يوم تقريباً. وفي الأيام التي يتعذر علي لقاءها كنت أحس ان شوقي إليها ينقلب إلى مرض حقيقي في سائر أنحاء جسدي.

قابلتها في حفلة نادي الجزيرة، نادي الضباط الفخم، الذي يقوم على جزيرة وسط نهر النيل مقابل القاهرة. وعرفنا على بعض في ذلك النادي ضابط مصري برتبة رئيس طويل القامة من قاعدة الأقصر الجوية، وهو قائد الجناح (صالح عبدالنبي). وأتذكر ذلك اليوم جيداً فقد كان في اليوم العاشر من شهر سبتمبر، بعد اسبوعين من عودتي من تركيا حاملاً أجهزة الرادار والمدافع المضادة للطائرات التي اشتريتها من تركيا. وكان الجو الذي يسود القاهرة جو ترقب وتوقع للضربة الكبيرة التي يمكن أن تنزل في أية لحظة. ولم يقم أحد من المسؤولين في القاهرة بوضع خطة دفاعية، إذ لم يكن أحد يعرف من أي ستنزل الضربة، وماذا يجب أن يحضر لها. كان الجميع يشعرون بأنه حينما تنزل الضربة سيجدون الطريقة التي يردون بها عليها.

إن هذا الشعب الغارق منذ مئات الأجيال في أوحال نهر النيل والجندي الساذج الذي سيحارب عند صدور الأوامر إليه، والضباط الذين جرى تدريبهم سنوات طويلة، جميعهم سيهبون ضد الغزاة حينما يعرفون من أين سيأتي الغزاة. وعلى الكثيرين في القاهرة نزل شعور كئيب، شعورهم بالساعة الأخيرة لحياتهم. وكان آلاف المواطنين الأجانب يتجمعون على أبواب وزارة الداخلية المصرية ليحصلوا على أذونات السفر ومغادرة البلاد. عائلات كثيرة كان أجدادهم أول المستوطنين في القاهرة، يوم كانت مدينة صغيرة لا يزيد عدد سكانها على ربع مليون نسمة، أخذت تنهي أعمالها في المدينة وتبيع عقاراتها بأبخس الأثمان وترحل. ومع أن جميع المواطنين المصريين كانوا يتمنون رحيل هؤلاء الأجانب إلا أن هؤلاء الأجانب كانوا يقفون على أبواب وزارة الداخلية يرجون ويتوسلون إعطاءهم أذونات المغادرة والرحيل. فإن وزارة الداخلية ورئاسة (السفاح) وهو اللقب الذي كان يطلقه معظم اهالي

القاهرة على وزير الداخلية زكريا عبدالمجيد محي الدين، لم تفوت أية مناسبة لتثبت للأجانب مدى قسوة الجمهورية المصرية.

ورحل أكثرهم، وخلفوا وراءهم أحياء كاملة في القاهرة خالية، وأقيمت الخنادق من أكياس الرمل في المواقع والمنشآت الحساسة والحيوية في المدينة، والاجتماعات تتوالى بين كبار قادة الجيش.

ولكن أحداً منهم لم يفعل شيئاً. الجميع كان بانتظار الضربة التي ستنزل تماماً كالمرأة التي استسلمت لغاصبها قبل أن يصلوا إليها، بعد أن فعلوا بها ما أرادوا، هبت لتنتقم من شرفها المثلوم.

أعلنت حالة الطوارئ في سلاح الجو المصرح في بداية شهر سبتمبر، ثم ألغيت بعد أسبوع حينما لم يقع أي حادث. وفي ذلك اليوم اجتمعنا في حفلة بنادي الجزيرة. دخلت النادي بصحبة الرائد لبيب وفتاته. ولم تكن معي في تلك الحفلة صديقتي (دنيا) بسبب انشغالها في أحد الأدوار بفيلم سينمائي جديد يدور حول قصة غرام وطنية، وكانت دنيا تأمل في أن يرفعها دورها الرئيسي في هذا الفيلم إلى مصاف نجوم السينما الشهيرات.

جلست في النادي، وأنا أحاول أن أخفي مشاعر القلق. وكان يبدو لي كل شيء كأحلام ضائعة. لا يخضع لحكم المنطق، ولا يستطيع أن يصمد أمام المنطق. إن أشياء كثيرة تعلمتها من (فيشل) ولكن كانت تنقصني رباطة جاشه ومقدرته على تقبل كل حال كأمر واقع ومواجهته كما يجب. كان فيشل يستطيع إذا توفر له الوقت الكافي، أن يقوم بتنظيم جهاز مخابرات نقال في أي مكان في الدنيا. ولكنه أنفق جميع علومه علي أنا. وأنا لم أستطع أن أفهم فكرة اشتراكي في مؤامرة تهدف القضاء على جيش، ليس قائماً تقريباً، كما أنني عجزت عن تكييف نفسي على ما يجري هنا. انتظار سلبي عدم فعل أي شيء لمواجهة حرب مؤكدة الوقوع. هل هو دينهم الذي جعل منهم لا مبالين بهذا الشكل؟ ولكني أعرف أن ضباط الجيش ليسوا متمسكين بأهداف الدين. إذن هل السبب في ذلك هو تعلقهم واعتمادهم على خيرات النيل، ذلك الاعتماد القائم منذ بداية تاريخهم، وبذلك شعروا بعدم قدرتهم على محاربة المنتظر؟ ولكني أعرف أن ضباط الجيش ابتعدوا كثيراً عن آبائهم الفلاحين.

شعرت أنني أقوم بمهمة شيطانية ضد جيش الرياح وفي تلك اللحظة ومن خلال الأصوات الغنائية، سمعت صوت عبدالنبي الذي أميزه عن غيره بسهولة يقول:

أنوير بك سعيدة يا صالح قلتها بفرح، ولقد تعلمت أنه من الضروري مناداة كل إنسان باسمه الشخصي دون إضافة اللقب، إذا كان ذلك ممكناً، وذلك لأجل خلق اتصال شخصي فوري معه. وها أنذا الآن أتصرف كما تعلمت.

(كيف حالك يا آرام؟) قالها صالح وبدون أن ينتظر جوابي ثم استطرد:

اسمح لي أن أقدم لك (صوفي ياسين) طالبة جامعية في كلية الآثار وهي تحاول أن تبرهن على.. وهنا لم أسمع بقية كلامه، فقد رفعت وجهي، وكانت تقف أمامي، بصورة قريبة ومجسدة فتاة أحلامي. كيف أعرف أن لوني قد امتقع، وشعرت بأن أنفاسي قد انسلخت مني ولكن عجزت عن فعل أي شيء. وضغطت بيدي على الطاولة حتى آلمتني وأنا أحاول أن أتظاهر بالابتسام. وأخيراً نجحت، وابتسمت، وأدركت خلال ذلك أن شفتي السفلى قد تحركت بحركة غير محمودة، وعرفت بعد ذلك السبب هو وقوعي تحت تأثير وسحر هذه الفاتنة التي قلدت شفتي حركات شفتيها الناضجة بدون إرادتي. كانت لها شفتان ممتلئتان، لذيذتان، والسفلى منهما مسترخية بعض الشيء إلى الأسفل. وأذكر أنني في ذلك الموقف لم أفكر إلا بشيء واحد هو أنني كنت على استعداد لدفع أي ثمن، من أجل تقبيل هاتين الشفتين، وأحس بأنهما تستجيبان لقبلتي. ابتسمت لي ابتسامة خفيفة، فثارت مشاعري، وتطلعت من طرف عيني إلى صالح عبدالنبي، كنت أتخيل أنه يسخر مني، ولكن سرعان ما عاد فكري إلى التركيز في الفتاة الفاتنة الساحرة التي أراها أمامي.

قمت وصافحتها وقلت (آرام أنوير) يا ست ويسعدني التعرف بك، (صوفي ياسين) قالت بصوت ناعم يثير الشهوة، تتراقص فيه الحنيات، واستطردت:

سمعت الكثير عنك يا أنوير بك وأنا أتمنى منذ مدة أن أراك.

شعرت أن نغمة غريبة تحاول الاختلاط بصوتها الناعم، صوت جرس الإنذار ولكني لم أسمع سوى نغمات جرس فضي. وقفت قريباً منها، جبهتها العالية مقابل ذقني وصدرها المرتفع يلامس قميصي الحرير. واستطعت مرة أخرى أن أسيطر على حواسي، تلك الحواس

الخمس التي جهد فيشل كثيراً في تصويرها وجعلها وسائل حربية ممتازة. لن أكشف سراً بالطبع قلت وأنا أحاول أن أعطي صوتي نبرة جادة، إذا قلت لك بأنك جميلة.

(كلا) قالت صوفي، فهذا أول أمر يقوله لي كل رجل.

(إذن) قلت سأكشف لك سراً آخر أنت مدينة لي بشيء ما. (بماذا؟) قالت مندهشة. أنت مدينة لي بقلبي، فقد أخذتيه مني حينما وقع نظري عليك، وضحكنا ولكن قلبي لم يضحك لأنه كان أسيراً بالفعل.

في ساعة متأخرة من تلك الليلة وبعد أن رقصنا عدة مرات ملتصقين ببعض في جميع أجزاء جسدينا روحينا، قالت لي صوفي فجاة:

دعني أذهب إلى منزلي، إنني أشتهيك جداً، ولكن ليس الليلة، في أول يوم لتعارفنا على بعض. وكانت هذه أول مرة في تاريخ علاقاتي بالنساء أرضخ فيها لرغبة امرأة بدون جدال.

بالقرب من مدينة الإسكندرية، وهي الميناء الذي أقامه (الإسكندر المقدوني) ورأى أيام ازدهار حكم الرومان، كما رأى أيام فقر قبل أجيال، تقع بحيرة (مريوط). وتعتبر الشواطئ الجنوبية لهذه البحيرة مكاناً ممتازاً للصيد. فالعصافير تنتشر بكثرة بين الأشجار، ومن جميع الأنواع. وبعد وقت قليل من افتراقي عن صوفي في نادي الجزيرة وصل عدة أشخاص إلى شاطئ بحيرة (مريوط). أحدهم ظل داخل السيارة الفخمة بينما اختبأ أربعة بين الأشجار. وشخص سادس كان طويل القامة رفيعها، يرتدي بدلة أنيقة وعلى رأسه قبعة ذات غطاء للجيش، ظل ظاهر دون البقية، وكان يحمل بندقية صيد ويربط على وسطه حزام الخراطيش، وعلى عنقه حزام المنظار. راح يسير هذا الشخص بين الشجيرات ببطء حتى عثر على مطلبه بدأ هذا الرجل ينقر بلسانه مقلداً صوت العصفور، فهذا العصفور في مكانه، وهنا أطلق الرجل النار عليه وأسقطه على الأرض. وبسبب العيار الناري سقطت القبعة أيضاً عن رأس الرجل وظهر وجهه لي تماماً.

كان الرجل زكريا محي الدين بضينة، وزير الداخلية المصرية، ورئيس جهاز المخابرات والتجسس الذي يلقبه الشعب باسم (السفاح) بينما يلقبه جميع أصدقائه باسم (السكاكت).

وفي مساء ذلك اليوم، وأذكر أنه يوم ١١ سبتمبر حضرت إلى جامعة عين شمس لأخذ صوفي بعد انتهاء دراستها. وقد تأسست هذه الجامعة قبل سنوات. ولكن الحكومة حرصت على العناية بها وتطويرها لأن الجامعة القديمة، جامعة القاهرة لم يعد فيها متسع للطلاب. ومع أن وزارة التربية والتعليم المصرية وجهت جل اهتمامها إلى العلوم إلا أنه أقيمت في هذه الجامعة كلية الآثار.

كان مئات الطلبة والطالبات يخرجون من الكلية إلى الخارج ومن خلال نافذة السيارة رأيتها قادمة، تختال زهواً، تختلف عن الجميع وتسير بدون الحركات المفتعلة المعروفة عن جميع النساء المصريات. أنوثتها الشابة، الناضجة، كانت تنفجر من وجهها الفتان. جبهتها المرتفعة، أكتافها الدقيقة عيناها العميقتان الكبيرتان، كل ذلك كان يدل على جمالها وسمو نفسها.

شفتاها المتلثتان، وذقنها، وكل شيء فيها كان يدل على مدى نضارتها وشهوتها كامرأة، تماماً كما كنت أتمنى. وحينما شاهدتني، افترقت عن زملائها وركضت باتجاهي، وفستانها يداعب مفاتن ساقيها. وفجأة تقطب جبيني وتذكرت أن صديقتي السابقة التي تركتها في إسرائيل، كانت تركض بهذا الشكل، بنفس الطريقة.

(سأناديك ياسمين...)

قلت لها في نفس الليلة في غرفتي، في سريري المزدوج الواسع، سأناديك باسم الزهرة التي تنبعث منها رائحة شهية وأوراقها دائماً خضراء، الزهرة التي تأخذ منها أجود العطور، ولكن جذعها بحاجة إلى ركيزة، حتى تزهر كما يجب.

كان يجب أن تكون شاعراً رقيقاً، قالت لي صوفي وهي تضحك. ثم عادت والتصقت بي، شفتاها المتلثتان تبحثان بنهم عن شفتي.

مرت أربعة أيام، والناس يعيشون في شبح الغزو، أربعة أسابيع في عالم خيالي حاول فيه إنسان برتبة كولونيل وجد نفسه زعيماً للعالم العربي أن يضع شعباً من الفلاحين والتجار في مقابل إنجازات القرن العشرين، يساعده في ذلك ضباط يقضون أيامهم ولياليهم في النوادي والمواخير.

وفي المطارات المحيطة بالقاهرة، كانت تقف إلى جانب بعضها البعض الطائرات النفاثة والطائرات القديمة البريطانية، ومستودعات الأسلحة والذخيرة، وسيارات الوقود والأجهزة الإلكترونية التي لم يكن أحد يعرف استخدامها. ولم يشأ أحد أن يفرق هذه المواد عن بعضها وهي التي ستكون أول هدف للغارات الجوية. كما لم يشأ أحد أن يقيم الحواجز قرب القناة، تلك القناة التي أثار تأميمها العالم بأسره، وأنا كنت في عالم خيالي خاص بي. عالم يمكن أن ينمو فيه حب حقيقي بين جاسوس إسرائيلي وطالبة قبطية. عالم يمكن أن يتحقق فيه أشياء فوق إرادتنا.

أربعة أسابيع مرت، ولم يقع الغزو، ولذلك قررنا اليوم أن نسافر إلى مدينة الآثار (قبطس) الواقعة بين قنا والأقصر. ففي هذه المدينة اكتشفت قبل سنين بعيدة آثار هامة منها عمود من (الجرانيت) محفور عليه اسم (تحوتمس) الثالث وهو الملك الذي كان يسكن في عهده أجدادي القدماء في مصر. وكانت تجري في هذه المدينة حفريات مختلفة، ورغبت صوفي في أن أشاهد المكان على أمل أن تشترك في الوفد الذي سيحضر لإكمال الحفريات الأثرية في هذه المدينة.

كانت السيارة تلتهم الطريق، وكانت صوفي تجلس بجانبي تماماً كأنها في حضني. ويدها كانت تداعب بلطف فخذاي. قلت لها: احذري لا أستطيع قيادة السيارة بهذه الحالة، فربما يقع لنا حادث.

قالت: لا أخاف الحوادث، اقصى شيء يمكن أن يصيبني فيها هو الموت.

قلت: بل ربما يتحطم في الحادث أنفك أو فمك اللذيذ. ولكن صوفي، مثلها مثل ضباط سلاح الجو المصريين لم تهتم بتحذيري.

غادرنا منزلي صباحاً فور استماعنا إلى أنباء الساعة الثامنة صباحاً وبعد أن عرفنا أن العدوان المرتقب لم يقع. تناولنا طعام الغداء في مطعم صغير في مدينة قنا، أكلنا (الدوالي) أوراق العنب المحشوة بالأرز واللحم والثوم، وشربنا القهوة المصرية. ووصلنا مدينة (قبطس) حوالي الساعة الثانية بعد الظهر. وخلال الطريق الطويل حدثتني صوفي عن الأقباط في مصر، وهم بقايا النصارى الذين اعتنقوا المسيحية قبل أكثر من ١٥٠٠ عام ورفضوا استبدال دينهم بالدين الإسلامي. وقالت لي: إننا أمة عريقة حافظت على ديانتها في جميع الظروف.

وهنا، مرة أخرى بدأت تدق في أذني أجراس الخطر. إن الحاسة السادسة التي حرص فيشل على تنميتها أكثر من الحواس الخمس الأخرى افاقت. لقد حاولت صوفي أن تثير بي شعور المصير المشترك. ولكن ماذا يهمني، انا تاجر السلاح التركي واحد من أمة فخورة، تكره جميع الأقليات فيها، ماذا يهمني من أمر الأقباط؟ ولكن أنا في الحقيقة لست تركياً. وإنما من أقلية تشبه تماماً الأقلية القبطية.

وعدت وابعدت عني هذه الأفكار باعتبار أنني لست سوى (آرام أنوير) ابن التاجر الغني في مدينة (سميرنة) ووالدتي (مريام نورهان الجميلة). ولن أقع في الفخ. وقلت لصوفي: كذلك نحن لا نحب أبناء الأقليات عندنا. إذ أنه من الصعب على شعب فخور أن يهضم وجود الغرباء فيه. فنحن أبناء المصريين القدماء.

قلت: الله أكبر، هل تؤمنين بهذا الكلام؟ أنتم الأقباط، حافظتم على النصرانية التي أخذتموها من الاحتلال البيزنطي. وآخرون اعتنقوا ديانة الإسلام. وهذا هو الفارق، إن إله المنتصرين يبدو دائماً أقوى وأكبر وأنت طالبة الآثار في الجامعة تصدقين هذه الأفكار؟

فجاة تغيرت نفسانياً، وابتعدت صوفي عني قليلاً، وانطوت في الطرف الثاني من مقعد السيارة. ووقفنا بالقرب من بناية قديمة، في آثار (قبطس)، واشارت صوفي بإصبعها إلى طريق يؤدي إلى الأسفل، ويتعرج في سهل منبسط ثم يرتفع عبر واد ضيق حتى جبال الصحراء الغربية. وخلف تلك الجبال التي ترتفع حتى ١٥٠٠ متر تمتد الصخور حتى البحر الأحمر.

قالت صوفي: هل ترى ذلك الطريق المار بالوادي؟ بواسطة هذا الطريق كانت (قبطس) مركزاً هاماً للقوافل في العهد الهليني. وكانت فيها تلتقي القوافل من الجنوب والشمال، وتشق الطريق بين الجبال نحو مدينة (برنيكا) على شاطئ البحر الأحمر.

شعرت أن قشعريرة اجتاحت جسمي مع أن الشمس كانت محرقة، تذكرت أن (برنيكا) هي إحدى ملكات اليهود القدماء وقالت صوفي أن برنيكا نفسها مدينة هامة، وهي تدعى على اسم ملكة (برنيكا).

وسألتها: إلى أي عهد يرجع تاريخ الملكة برنيكا؟

قالت: إلى عهد مصر الوسطى.

كنت على استعداد لأن أقسم بانه لم تخلق على الإطلاق اية ملكة مصرية باسم (برنيكا)، وكنت اعرف كذلك ان مدينة برنيكا الواقعة على شاطئ البحر الأحمر تأسست قبل كثير من مولد الأميرة (برنيكا) الجميلة ابنة الملك أجريفاس الأول وهي أخت أجريفاس الثاني، وعشيقة تيتوس الروماني. وهي بطلة تمثيلية (راسين) التي تدرس كعلاقة من علاقات العهد الكلاسيكي الفرنسي، وهي بالتالي من بقايا اليهود القدماء.

هل سافرت مسافة ٦٠٠ كيلو متر من القاهرة حتى أنجح في امتحان حول برنيكا؟

الحقيقة الناصعة

٨ تشرين أول ١٩٥٦

■ كنت متعباً بسبب رحلتنا إلى (قبطس)، ومحاولاتي المستمرة في التظاهر بغير شخصيتي الحقيقية.. التي أصبحت من صفاتي الرئيسية.. نجحت هذه المرة أيضاً وأعتقد أن صوفي صدقت تماماً بأن تعبي ناجم عن الرحلة الطويلة. فخلال الطريق كانت صوفي تحاول مداعبتي على المقعد وكنت أرمقها بالنظرات خلسة، أتفحص وجهها وجسدها المكور داخل ثيابها المجعدة. ليالي كثيرة امضيتها ثملاً مع هذا الجسد أداعبه التهمه حتى النهاية. أما الآن وأنا أحرص على التظاهر بابتسامة عاشقة من طرف فمي، كان فكري يعمل منفصلاً في شيء آخر بعيداً عن شهواتي، وذكريات الليالي الحمراء. منفصلاً عما تراه عيني ويشتهيه قلبي.

عدت إلى جميع أحاديثنا، أحللها بإزميل حاد بارد، أزيل الأجزاء التي لا أهمية لها في تلك الأحاديث، وابحث عما إذا كان يختبئ فيها شيء من المكيدة والخداع. كنت أتنقل بالحديث من قسم لآخر كالمسلم يعد حبات مسبحته، لم أصل إلى نتيجة، ففي جميع الأحاديث التي دارت بيننا، وفي جميع الأوقات التي كنا نفقد فيها السيطرة على أعصابنا وندع الشهوات والملذات تسيطر علينا، لم أنطق بكلمة واحدة يمكن أن تلحق الضرر بي. وأن تكشف شيئاً من هويتي الحقيقية.

اعدت لنا صوفي وجبة مساء خفيفة، مع الشراب البارد وتناولنا الطعام على الشرفة. اكلنا بصمت، وراسي يميل من حين لآخر على صدري متظاهراً بانني اقاوم كابوس النعاس. ثم دخلنا إلى المنزل واستلقيت على السرير الكبير. واغمضت عيناي بينما ظل إزميل التحليل الحاد يعمل في فكري.

غمرني نور الصباح حينما صحوت على دغدغات صوفي. كانت قد ارتدت ملابسها وسرحت شعرها وقالت لي:

إنني ذاهبة، تعال مساءً لتاخذني من الجامعة..

قلت: بالطبع يا قلبي.

نزلت السلم الداخلي في المنزل، ثم سمعتها تفتح الباب الخارجي وتغلقه، فعدت ونمت من جديد. ولم أفق من النوم إلا بعد أن قرعت الخادمة العجوز جرس الباب عدة مرات. فتحت لها الباب وقلت:

اعدي لي وجبة كبيرة، مع كمية من القهوة واحضريها إلي إلى فوق.

دخلت الحمام، وتحممت لمدة طويلة، مرة بالماء الساخن وأخرى بالبارد وأعدت الكرة مرة أخرى. ثم تناولت الطعام. كان عبارة عن سلطة بزيت الزيتون، وبيضة مسلوقة بداخل صحن حمص، وشربت من القهوة الساخنة التي كانت تضع بها الخادمة دائماً حبوباً خاصة لها نكهة لذيذة منعشة.

كان علي أن أسرع، فقد اقترب موعد الاتصال اللاسلكي الأسبوعي ويجب أن أتصل بهم، وكنت قد رفضت أن اتصل باتصالات معينة في أوقات منتظمة، لأن الاتصالات المنتظمة في ساعات معينة تجعل من السهل على العدو أن ينصت إليها ويكشف الأمر. ولذلك فقد اتفقت معهم على إجراء اتصال لاسلكي قصير مرة في الأسبوع، في أي يوم من أيام الأسبوع، وقد كان ذلك من واجب المحطة الرئيسية أن تظل منصتة لي طوال أيام الأسبوع، أي في الساعة الرابعة مساء وفي اليوم الذي يليه في العاشرة صباحاً.

أعطيت إجازة للخادمة العجوز بحجة أنني سأغادر المنزل وكانت تعرف الخادمة أنه لا يمكنها البقاء في منزلي أثناء غيابي. خرجت الخادمة تجر ساقيها على الطريق خارج المنزل،

وكانت ارض ذلك الطريق مفروشة بالحصى الصغيرة، ثم قمت بتفحص الأبواب والشبابيك واحداً واحداً للتأكد من إغلاقها بإحكام. ثم صعدت إلى الطابق الثاني وأخرجت من درج صغير مفتاح القاصة الحديدية وفتحتها، ثم تحسست مكان مفتاح القاصة الثانية وفتحتها واخرجت جهاز الإرسال.. وضعته على الطاولة وسحبت سلك - الأنتين - الهوائي وأخرجت الرموز اللاسلكية. ولكن في تلك اللحظة بالذات خطرت في فكري خاطرة مريعة مخيفة.. تذكرت وقع اقدام الخادمة العجوز حينما خرجت على الطريق المفروش بالحصى تجر ساقيها وتذكرت انه في صباح ذلك اليوم، حينما غادرت صوفي المنزل، بينما كنت في الفراش لم اسمع لقدميها اي وقع او صوت على ذلك الطريق. صحيح أنني سمعتها تفتح الباب الخارجي ثم تغلقه، ولكني لم اسمع وقع اقدامها تخطو على الحصى.

وعند باب الغرفة في الخارج رأيت عينها مشدودتان إلى عيني كانت هناك تقف صوفي ياسين.

يجب التخلص من الشاهد

٩ تشرين أول

■ راحت الأفكار تمر في خيالي بسرعة، وبدون ترتيب، لقد حذرني فيشل من المرأة وأكثر من امرأة اعترضت سبيلي لاقت حتفها، والآن هل يمكن أن يقبض علي بواسطة هذه الجاسوسة التي استخدمت معي أبسط وأقدم وسائل مكافحة التجسس، الابتسامة الماكرة والصدر العاري، وجسد في الفراش، ثم سقوط في المصيدة. هل يمكن أن يحدث كل هذا مع تلميذ فيشل؟

امتقع لون وجه صوفي واصبح بلون غرفتي. وأطل الخوف من عينيها وهما تنظران إلى عيني. ثم ما لبثت أن استدارت إلى الخلف وولت هاربة، فتبعتها بدون وعي، ولحقت بها ولطمتها بضربة من كف يدي المفتوح على مؤخرة عنقها. كانت الضربة حادة وقاسية بحيث أن كل من تنزل عليه لابد أن يهبط على الأرض ككيس من الحبوب انفرط فجأة.

قبل أكثر من اربعين سنة في نادي الجواسيس الذي أقامته اليزابيث شرجميلر في شارع - لا بابينير رقم ١٠ في - أنتفورفان - ، وهي المرأة المعروفة أكثر بلقبها - السيدة دكتور - وضعت عدداً من القواعد الأساسية بالنسبة لتصرف الجواسيس ويتوجب على كل تلميذ جاسوس أن يحفظ تلك القواعد الأساسية عن ظهر قلب، وتقول إحدى تلك القواعد: (صادق فقط النساء المعروفات لك والمخلصات لك).

وأنا مررت بهذه القواعد، والآن أجدني أتذكر ابتسامة الهزء التي ابتسمها قائد الجناح عبدالنبي حينما رآني استسلم لإغراء صوفي. ولكن من الذي أرسلها يا ترى؟

إن رجلاً واحداً فقط، يتجرأ على ذلك. ويستطيع أن يخطط لمثل هذه العملية من أولها إلى آخرها، ينفذها بدقة متناهية. رجلاً واحداً فقط، من مثل مركز فيشل، يستطيع أن يتغلب على أفضل تلميذ من تلاميذ فيشل، وهذا الرجل، عرفت الآن أنه صياد ماهر رئيس صيادين.

لقد استطاعت (صوفي ياسين) أن تخدعني. ففي الصباح حينما أبلغتني أنها ذاهبة إلى الجامعة لم تغادر المنزل، وإنما قامت بفتح الباب الخارجي، ثم أغلقته واختبأت في داخل المنزل. ولهذا لم أسمع في الصباح وقع أقدامها على الطريق المفروش بالحصى خارج المنزل. ولكن ليس المجال الآن للتفكير بما حدث. فهي الآن ممددة هنا، بعد أن شاهدت جهاز الإرسال وسلك الانتين - الهوائي - وورقة الرموز اللاسلكية.

(يجب أن تموتي يا صوفي. وسأناديك ياسمين).

قلتها لها مرة في هذه الغرفة في إحدى الليالي الملتهبة. ويومها كانت رياح الصحراء، وحرارة دمائنا قد جففت جلدها وجعلته ناعماً يثير الشهوة ويومها قالت لي، كان يجب أن تكون شاعراً. نعم سأكون شاعراً يا صوفي، ولكن أشعاري لن تروق أذنيك. هدأت أفكاري، وعادت أعصابي إلى برودتها - وأصبحت أفكاري منتظمة منطقية، إذا لم تكن تحب أن تكون ممدداً على طاولة خشب، وجسدك مجمداً بدرجة ٢٠ مئوية تحت الصفر كجسد الرجل الذي أؤدي دوره فأحرص إذن على أن لا تتجمد أعصابك ومشاعرك.

الأمر في غاية الوضوح، صوفي حبيبتي يجب أن تموت.

فتاة أحلامي، فاتنة صحرائي، طالبة الجامعة التي ركضت نحوي وفستانها يتطاير ليكشف عن ساقيها السمراوين، يجب أن تزول من العالم. إنها هي التي ستتمدد على طاولة خشب، ويقوم الأطباء المصريون بتشريح جثتها بأمر من الرجل الذي أرسلها ليعرف كيف ماتت.

حبيبتي صوفي.. زهرة حياتي.. يجب علي أن أقتلك.

تركزت أفكاري كلها في القضية المطروحة أمامي. القضية الملقاة في وسط غرفتي على الأرض، إنها العقبة التي يجب أن تزول من طريقي ولكن قبل ذلك يجب أن أقوم بالاتصال اللاسلكي. وعلى الفور فككت أزرار فستانها، فستان صوفي، وخلعته عن جسدها، ليتني أستطيع أن أدفن رأسي في أحضانها وأبكي.

ومرة أخرى اختلطت الأفكار برأسي.. رأيت أن طائرة - موسكينو - قديمة تنفجر في الجو، لقدمها، والطيارون يقتلون بمجرد هبوط طائراتهم القديمة على الأرض. ورأيت أسراباً عديدة من طائرات - اليوشن - تقف في مطار الماظة، ورؤوسها متجهة نحو الشرق. ثم هدأت أفكاري فقذفت الفستان المجعد على السرير إذ لن يحتاجه أحد بعد الآن. وجردت صوفي من بقية ملابسها بسرعة، وهكذا أصبحت عارية تماماً، ثم أوثقت يديها خلف ظهرها.

أمراً واحداً كنت أعرفه بكل تأكيد وهو:

أن أية امرأة لن تحاول الهرب وهي عارية. وكل امرأة تفضل أن تموت على أن تركض في الشوارع وهي عارية كما ولدتها أمها ويديها مقيدتين خلف ظهرها. أعدت جهاز الإرسال للعمل وأرسلت إشارة المحطة الرئيسية.

وكررت ذلك أربع مرات، وجاءني صوت المحطة الرئيسية ثم أرسلت العلامة اللاسلكية المميزة من روما إلى المسئول أمال.. انتهى. وأغلقت الجهاز. كانت المحادثة قصيرة جداً - لا جديد - وأحرقت أوراق الرموز. وانتهيت من هذه المشكلة . وأعدت الجهاز إلى مكانه وبعد أن أغلقت أبواب القاصتين وضعت المفاتيح في مكانها السري.

أستطيع الآن أن أتفرغ لقضية صوفي ياسين.

كنت أعرف أن صوفي تصحو خلال دقيقة أو دقيقتين وعندها لن تشعر بشيء سوى صداع حاد. ويجب أن أدعها تصحو قليلاً مع بقائها مكتوفة اليدين ممددة على أرض الغرفة ولكن يجب أن أبتعد عن استخدام العنف معها. فالعلاقات بيننا ليست علاقات محقق مع متهم، لكنها علاقات - ذكر بأنثى - وكل عمل عنيف، شأنه أن يثير أنوثتها ويشجع فيها العناد والمقاومة ولن أحصل على شيء عن طريق العنف، خاصة وأنا أعرف نفسي جيداً.

انا نفسي الذي كنت السبب في نقل الأسلحة المعدات الحربية العديدة من ناحية إلى اخرى في العالم، وقطعت بالأسلحة والمعدات البحار والبراري، لم يكن بحوزتي حتى مسدس قديم.

فتحت صوفي عينيها ونظرت لي نظرة استغراب وخوف، وعادت إليها ذاكرتها وحالتها الطبيعية وتذكرت كل شيء. كانت تضم ساقيها إلى بعضهما، وتكورت على نفسها قدر ما استطاعت واستدارت بظهرها إلي ثم عادت وجلست - مستلقية - القرفصاء ورأسها إلى الخلف تتطلع إلي وتحاول رسم ابتسامة على شفتيها.

زهرة صحراوية ادوسها بقدمي.

اطلق يدي، قالت صوفي هامسة، واغمضت عينيها بينما ابقت شفتيها منفرجتين قليلاً كانهما تدعو ان تعال إلي. جلست بجانبها وسألتها بم يشبه الهمس. من أرسلك يا صوفي؟ السفاح؟

ترددت صوفي قليلاً ثم هزت رأسها بالإيجاب.

كل إنسان في القاهرة يعرف من هو المقصود بالسفاح، فقد كان هذا اللقب، هو اللقب الرسمي تقريباً لمحيي الدين رئيس مصلحة التجسس والأمن الداخلي. وقلت لها:

- بماذا اخبرتيه؟ وكيف علمت انني أعمل لحساب الإنجليز؟ كنت أحاول خداعها، فقد أصبحت صفة المخادعة صفة رئيسية طبيعية في نفسي، وها أنذا أسلك طريق الخداع مع هذه المكتوفة التي لا تقدر على الحركة، والتي صدر الحكم عليها بالإعدام من قبل محكمة ميدان سريعة الحكم، تتكون من قاض واحد فقط. الإنجليز؟ قالت صوفي وهي تستدير إلي، لقد كان محي الدين يشك بأنك تعمل لحساب الإسرائيليين.

الإسرائيليون؟ قلت ضاحكاً ونهضت على قدمي، ولكن كيف أعلمتيه أنت؟

وابتسمت ولكن ابتسامتي لم تكن ابتسامة النصر. وسألتها كم مرة اختفيت هنا في بيتي بدون علمي؟

هذه هي المرة الرابعة قالت صوفي وأعتقد أنها كانت صادقة، ثم واصلت:

لقد مللت ذلك، ولكن فجاة سمعت الضجة التي أحدثها إخراج جهاز الإرسال - يا آرام - ماذا ستفعل الآن؟

قطبت جبيني، كمن يجد نفسه في البحث عن مخرج. ولكن في تلك اللحظة وجدت المخرج واضحاً جلياً. تقدمت من صوفي، وركعت إلى جانبها، وفككت الحبل عن يديها. كان جسدها يرتعش من الموت المنتظر، وخوفاً من العذاب الذي سأنزله بها، تعذيب الذكر للأنثى.

التصقت بجسدها العاري، وتحولت جميع مخاوفها وآلامها إلى رغبة جامحة، وشهوة عارمة، بعضها مصطنع، وبعضها حقيقي. إنها شهوة المرأة في ان تكون مداساً تحت الرجل الذي انتصر عليها.

صوفي حبيبتي جميلتي!!

رفعتها بين ذراعي، أشد جسدها الطويل إلى جسدي بقوة، أخفف من خوفها، وأنشر في جسدها رعشة جديدة.

خلف شاطئ الاستحمام في الإسكندرية، وراء شاطئ - بلقالي - الهادئ يدخل البحر في الأراضي المصرية مسافة طويلة ويشكل بذلك خليجاً صغيراً تتكسر أمواجه على الصخور الحادة المنتشرة في أرض البحر وفوق سطح الماء. وهذا المكان مهجور ومهمل بسبب خطورته للاستحمام، حتى أن العشاق الذين يتفرقون في منطقة شاطئ بلقالي للاختلاء ببعضهم لا يصلون إلى هذه المنطقة.ولكن في هذا اليوم، قررت أن يصل إلى هذه المنطقة عاشقان مدلهان ويغطسان في مياه البحر. وأحدهما ستسحبه التيارات المائية ويرتطم رأسه في صخور البحر، وعندما يلفظ أنفاسه سارفعه من داخل الماء وأسرع بالسيارة إلى المستشفى في الإسكندرية.. إن طريقة الموت هذه ربما تثير الشكوك حولي ولكنني لم أجد أفضل منها.

وإذا تزايدت الشكوك، سأقوم بتدمير جهاز اللاسلكي وأغادر البلاد. جلسنا القرفصاء، مغمضي العينين، نخاف أن نفتحها لئلا نرى الواقع الرهيب، رحت أداعب صوفي وألاطفها بخفة ثم قلت هامساً:

تعالي يا حبيبتي لنخرج من هنا نسافر نبحث عن أي مخرج.

كنت بحاجة إلى تعاونها، على الأقل حتى تصل السيارة وتركبها. فلا أستطيع أن اغامر بجرها جراً رغم إرادتها إلى السيارة. يكفي أن يرانا أحد الجيران أو اي إنسان وعندها سادفع الثمن غالياً.

ارتدينا ملابسنا باناقة، وتظاهرت بتناسي ما حدث، حتى لا تشعر صوفي بأنني اخفي شيئاً في نفسي. الأبواب مغلقة جميعها ولن تستطيع صوفي ان تهرب فقبل أن تحاول الوصول إلى المفتاح استطيع ان اوجه ضربة إلى راسها والقيها على الأرض مغمى عليها.

هبطنا بهدوء إلى الطابق الأرضي في المنزل، ولدى مرورنا بجانب غرفة المطبخ هربت صوفي وامسكت بقطعة خشب من المطبخ تستخدمها الخادمة في تحريك مواد الطبخ على النار، ورفعتها صوفي لتلقي بها على رأسي، ولكني قفزت خلفها واحتضنتها بقوة ومنعت يديها من الحركة وانزلت يديها إلى الأسفل، والصقتها إلى جسدي وهمست في أذنيها:

- لا تفعلي شيئاً من ذلك يا صوفي.

راحت صوفي تبكي بحرقة، وشعرت كانها تفرغ جميع مخاوفها ودموعها على كتفي فهدات من روعها، ثم سالت نفسي - ترى أي منا سينتصر بخداعه على الثاني - وخرجنا من المنزل، ممسكين بأيدي بعض، نبتسم، وعند وصولنا السيارة فتحت الباب أمام صوفي، وبعد أن دخلت أغلقت الباب استدرت لأدخل من الباب الثاني وعلى المقعد الخلفي ألقيت ملابس الاستحمام التي أخذتها من المنزل وتحركنا إلى الطريق المؤدي نحو الإسكندرية.

وبعد أن خرجت من المدينة أوقفت السيارة، وأخرجت من جيبي الحبل الذي كنت أربط به يديها في المنزل وقلت، هاتي يديك أربطهما يا صوفي، لن أدع الحبل يؤلمك، سأربطك من الأمام بلطف لئلا تقومي بعمل متهور، ربطت يديها، وطبعت قبلة على جبينها. لقد أحببتها حباً جارفاً، اما الآن فساقتلها بدون تانيب من ضميري، بدون أن تهتز يدي. لقد أخطات، ويجب علي أن أصحح الخطا وأواصل السير إلى الأمام. واصلنا السير على الطريق المستقيم المؤدي شمالاً إلى شاطئ البحر، نظرت إلي صوفي بعينيها السوداوين، وهمست بدون صوت تقريباً: أنا أعرف من انت يا آرام اسمك ليس آرام ولست بتركي، ولا تعمل لحساب الإنجليز ولا من اجل المال، إنك ستقتلني بعد قليل، أعرف ذلك، وبما أنني أعرف أني سأموت

بالتأكيد أقول لك كلمة أخيرة، لقد أحببتك. لم أجب بل ضاعفت سرعة السيارة بدون أي تفكير أو إحساس بما قالته.

على بعد ١٠٠ كيلومتر شمالي القاهرة، مقابل المدينة العمرانية الجديدة - طنطا - التي تعرض على أنها نماذج من أعمال النظام المصري الجديد، هناك ينحني طريق الإسكندرية القاهرة، ويمر بعدة منعطفات خطيرة. كما أن أعمال الإنشاء والعمران الواسعة التي تجري في تلك المدينة وضواحيها سببت زيادة في الحركة على الطريق ولكن المنعطفات الخطيرة هنا تمنع سواقي السيارات من رؤية الطريق على مسافة بعيدة، وصلت تلك المنعطفات، ولا تزال سرعة السيارة كبيرة كانت العجلات تحدث صوتاً حاداً وهي تدور في المنعطفات كأننا نهرب من أنفسها، وبنفس الوقت نقود أنفسنا بسرعة نحو النهاية التي خشيناها كثيراً.

وقع حادث مفاجئ في الطريق، سيارة شحن كبيرة من سيارات الشركة التي تقوم بالعمل هناك، جنحت في الجهة اليسرى وسارت في خط سيري المقابل تماماً. انعطفت نحو اليمين لأبتعد عن السيارة الكبيرة وأتحاشى الاصطدام بها، ولكنني فقدت السيطرة على سيارتي وخرجت عن الطريق العام، وسقطنا في واد سحيق واستقرت السيارة على ظهرها مستندة إلى جذع شجرة كبيرة. وتداخل جذع الشجرة بالسيارة من باب الأيمن وهشم صوفي. فقد سالت الدماء من رأسها وانتفخ وجهها حتى لم أعد أعرفه. وانفجر البنزين من محرك السيارة اشتعلت النار فيها. وقمت لأخرج من السيارة ثم عدت إلى صوفي وفككت الحبل عن يديها بسرعة لئلا يجدوها محروقة في السيارة وبقايا الحبل متفحم مربوط حول يديها. وقذفت بنفسي من شباك السيارة وهربت زحفاً على ركبي لئلا أتعرض لشظايا السيارة حينما تنفجر. وبعد ٣٠ خطوة من زحفي على أربع، وقع انفجار. ألقيت بنفسي مرة أخرى على الأرض وشعرت باللهيب الحار يمر من فوق جسدي ملامساً له ورأيت رجلاً يأتي مسرعاً نحوي. وفي هذه اللحظة سمحت لنفسي بالإغماء، تظاهرت بأني مغمى عليّ.

صور وعبر

٢٥ تشرين ثاني ١٩٥٦

■ على الجدار كانت تبتسم لنا صور (الريس) لدى قيامه بزيارة القاعدة الجوية في العريش قبل نصف سنة. وكان يقف إلى جانبه في الصورة قائد الجناح (الشرعبي) وهو أيضاً قائد القاعدة. وبعد تلك الزيارة رفع الشرعبي إلى رتبة صاغ (رائد).

وفي صورة ثانية يبدو - الريس بلباسه العسكري لدى قيامه بجولة في القاعدة وبجانبه اللواء - عبدالحكيم عامر - وبجانبه من الناحية الأخرى صديقي - محمد صدقي محمود - الجالس في هذا الوقت إلى جانبي يواسيني ويشجعني على الأكل الشراب.

وقلت في نفسي: عالم غريب، لا حدود فيه بين الصور والحياة نفسها. وبجانب تلك الصور كانت معلقة يافطة كبيرة تقول:

أعرف طائرة العدو - طائرة متينور وتحت هذه العبارة صورة لطائرة متينور وعلى وسطها صورة لنجمة داود بحجم كبير.

قلت في نفسي: إن جميع الجالسين معي هنا من طياري طائرات الميتئور ويعرفون هذه الطائرة جيداً، فلماذا وضعت هذه اليافطة الضخمة؟ وعلى جانب اليافطة شريط من الورق

عليه عبارة - بعد أن اتضحت للعدو حقائق التفوق المصري في الجو، راح يستخدم الطائرات المقاتلة النافثة، وطائرات المتينور هي الأولى من ذلك النوع - .

قلت في نفسي.. وهذا صحيح، فحتى فيشل كان يؤمن هو الآخر بتفوق مصر في الجو، ولكنني أنا الآن أعرف ما لم يعرفه أي إنسان في إسرائيل. فإن أية طائرة عسكرية ليست موجودة في العريش ولا حتى في شبه جزيرة سيناء بأكملها. كما أنه ليس في سيناء كلها مطار واحد يستطيع استقبال الطائرات النفاثة. إن هؤلاء الطيارين الذي يتناولون طعامهم معنا يضحكون على الفكاهات التي يلقيها قائدهم المحبوب صدقي محمود ليسوا سوى سباع بدون أسنان. إنهم يجلسون هنا على بُعد خمسين كيلو متراً عن حدود العدو، بينما الطائرات المخصصة للدفاع عن سيناء موجودة في مطار - كبريت - على بُعد مئات الأميال من هنا.

ما هي وظيفة هؤلاء الطيارين، ما عدد الاستعراضات الجوية أمام (الريس) أو قائد سلاحهم الجوي؟ فلو وقع الهجوم هنا لن يستطيع هؤلاء الطيارون أن يجدوا حتى طائرة نقل واحدة يهربوا فيها من الموت.

كانت زيارتي لسيناء بطريق الصدفة، فحينما خرجت من مستشفى طنطا الذي نقلت إليه بعد حادث التدهور، قال لي الطبيب:

أنوير بك يجب أن تعيش بهدوء لمدة بضعة أسابيع إذا كنت لا تريد العودة إلى المستشفى ثانية. فلزمت منزلي، أطالع مجلة المصور، وكان أصدقائي ضباط سلاح الجو المصري يأتون لزيارتي ومنهم (محمد لبيب) عبدالسلام دغيري، وحتى مدكور أبو العز. وأخيراً صالح عبدالنبي الذي اعتذر لي وسألني عن صحتي وقال لي: أنا الذي قتلتها يا أنوير بك.

نظرت إليه باستغراب: وأنا أقطب جبيني بدون معنى، ورددت عليه إن الله هو الذي أخذ روحها، كانت جميلة وملائمة جداً عالمنا ولكن هذا ما كتبه الله وهكذا صار، وحينما تقوم القيامة، ويبعث الأموات سنسجد على ركبنا نطلب السماح منها، وهكذا تحولت إلى رجل متدين أعترف بالقدر الذي يؤمن به كل مسلم.

وطأطأ عبدالنبي رأسه وقال: كذلك أخطأت بحقك فهل تسمح لي ذلك؟ ولكنني هززت رأسي نفياً وقلت: لم تخطئ بحقي يا صالح، وإنما منحتني أجمل شهر في حياتي، لقد جعلتني أقابل المرأة الوحيدة التي أحببتها حقاً، وسأظل مديناً لك بذلك.

وعندما انصرف صالح قلت في نفسي، لن أستطيع عما قريب أن أفرق بين الحقيقة والكذب.. وعندها سأكون جاسوساً كاملاً.

وقرع جرس التلفون في المنزل، كان المتحدث الرائد عبدالسلام دغيري، يعلمني أن قيادة سلاح الجو ستقوم بعد غد بجولة في القواعد الجوية بسيناء برئاسة قائد سلاح الجو نفسه. وقال أعلمني قائد الجناح عبدالنبي بأنك غارق في الأحزان والهموم المؤلمة وأنا أدعوك للانضمام إلينا لترى كيف يقوم رجالنا باستخدام الطائرات وتنسى همومك.

وهكذا انضممت إلى الجولة في سيناء، وزرت قاعدة بير كفكفا الجوية ومطار (بير حمة) الذي كانت مدرجاته تحت العمل لجعلها ملائمة لاستقبال طائرات الميج وأخيراً زرت قاعدة العريش حيث تناولنا طعام الغداء.. ولكني لم أشاهد بالمرة أية طائرات عسكرية مقاتلة أو قاذفة في تلك المطارات وقال لي صدقي محمود بأن الدفاع الجوي عن سيناء يعتمد على مطار (كبريت) وفي مطار كبريت المذكور كنت أعرف بأنه يرابط السرب رقم ن٢٠ المؤلف من ١٥ طائرة ميج ١٥، وهي غير ملائمة لضرب الأهداف الأرضية.

عرفت أن كل ما في الأمر عبارة عن عملية خداع كبيرة موجهة لي، فقد دار في خلدي أنه بعد أن أغادر المنطقة والمطارات ستأتي طائرات الميج واليوشن لتهبط في مطار العريش، ترافقها طائرات (فامباير - ومتيئور) وعندها سيضحك الطيارون ملء أشداقهم على نجاحهم في تضليل الجاسوس الإسرائيلي.

وفي قاعدة العريش انضم إلينا أثناء طعام الغداء الجنرال علي عامر قائد القوات الحربية في سيناء والزعيم عبدالوهاب القاضي قائد فرقة المشاة الثالثة التي كانت تدافع عن شمال سيناء وأواسطها. وتحدث الاثنان طويلاً مع صدقي محمود عن القوات الموجودة في سيناء وقدرتها على إحباط أي هجوم إسرائيلي في حالة قيام القوات الفرنسية والبريطانية بمهاجمة قناة السويس.

ومرة أخرى أصابتني الدهشة. فقد اتضح لي من محادثاتهم أن القوات المصرية في سيناء موزعة على أساس مخطط دفاعي فقط ولا تكفي لشن أي هجوم وتنقصها تماماً القوات المصفحة.

جلست بجانب المتحدثين والحزن والأسى باديان على وجهي وكنت أتظاهر بعدم الاهتمام بالحديث، بينما كان فكري يعمل بسرعة وجهد وهو يسجل ويصور كل شيء، ويقرر الحقائق ويشطب الاحتمالات، حتى يصل بالنهاية إلى المهم.

في ذلك اليوم كانت المحطة الرئيسية في إسرائيل تستمع إلى ابتداء من الساعة الخامسة مساء. ووصلت البيت في الوقت المحدد تقريباً، وقبل أن استحم من غبار سيناء جلست إلى جهاز الإرسال، لإرسال المعلومات التالية:

(قائد قوات سيناء الجنرال علي عامر (٠) الفرقة الثامنة الفلسطينية في قطاع غزة (٠) الفرقة الثالثة مشاة في شمال ووسط سيناء (٠) كتيبة سيارات حدود في محور الكونتيلا - المتيلة (كتيبة ٢١ مشاة و١٠ حاملات برن ومجموعة من مدفعية مضادة للطائرات وفرقاطة في منطقة شرم الشيخ (٠) وضعت لحماية خليج السويس سرية من الهجانة (٠) ليست في سيناء أسلحة مصفحة فيما عدا كتيبة دبابات شيرمان (٠) خصصت للقيام بهجمات مضادة في سيناء مجموعة لواء مصفح في معسكر فناراً في القناة (٠) لا توجد طائرات في سيناء (٠) الدفاع الجوي في سيناء من مطار كبريت (٠) الدفاع عن سيناء يعتمد على مواقع متحركة في رفح والعرش وأبو عجيلة (٠) القوات الخاصة لسيناء ومنها الفرقة الثانية مشاة موجودة في القناة وستبقى فيها إذا تعرضت القناة للهجوم. قائد الفرقة الثالثة هو عبدالوهاب القاضي وهو ضابط من النوعية القديمة يعتمد على التحصينات. في رفح يوجد اللواء الخامس وسرايا دبابات شيرمان والقائد هناك هو عبدالمجيد، وتوجد فيها تحصينات ضخمة. في أبو عجيلة اللواء السادس وفي العريش الكتيبة ١١ مشاة والكتيبة الثانية عشر وسريتي دبابات شيرمان. قائد الفرقة الفلسطينية يوسف عبدالله العجرودي انتهى.

كانت المعلومات طويلة جداً ومع ذلك يتطلب الموقف الآن إبلاغها كلها، فمع قرب نشوب المعركة هناك أهمية لكل خبر مهما كان صغيراً، في الوقت الذي تستحق المعلومات التي مررتها التضحية بكتيبة كاملة من أجلها. ومن ناحية أخرى فلست الآن أخشى إرسال معلومات مطولة باللاسلكي. لأن المنطقة زاخرة الآن بالمخابرات اللاسلكية من جميع

الاتجاهات ولجميع الاتجاهات، فبالقرب من منزلي يوجد معسكر القيادة، وبجانبه السفارة الروسية، وتوجد على مقربة منا المطارات العسكرية وهي ترسل مخابراتها اللاسلكية ليل نهار بدون توقف وفي غمرة هذا الازدحام اللاسلكي لن يستطيع إنسان تحديد مكاني شريطة أن أداوم على الإرسال في أوقات منتظمة.

أبلغتني المحطة الرئيسية أنها تريد إرسال معلومات لي فاستلمت ذلك وانتهى.. إن سباع النفاثات في سيناء لم تكن لها أسنان.

مشهد من المسرحية

٢ تشرين أول ١٩٥٦

▣ جلست في شرفة المنزل في حي هليوبولس وأنا أرى أمامي التاريخ وأحداثه. كانت طائرات (الكانبرا) البريطانية وطائرات (سايبر) التي أهدتها الولايات المتحدة لفرنسا تغير من الشمال وتنقض على مطارات الماظة والقاهرة غرباً وتفرغ عليها حمولات ضخمة ترتفع في الجو حتى تحطمت كاللعبة حينما يحطمها الأطفال. أما طائرات الكوماندو التابعة للسرب السابع وطائرات (الداكوتا) - السرب رقم ١١ فقد كانت هابطة في المطار منذ يوم أمس كأنها كتل محروقة، كما أن طائرات المتيئور السريعة في مطار الماظة، لم تساعدها سرعتها هذه المرة للإفلات من مصير الطائرات الأخرى. فقد تحولت جميعها إلى قطع صغيرة يتصاعد منها الدخان. ونزلت القنابل المحرقة على مستودعات مطار الماظة وأبراج المراقبة وورش الطائرات وحتى مباني السكن.

أما مطار القاهرة غرب، بما فيه من سربي الإليوشن ٢٨ وهي أسراب القاذفات الثقيلة فقد نجا أمس من قذائف الطائرات الفرنسية والإنجليزية المعادية ولكن اليوم لم يهتم أحد من المسؤولين لإبعاد تلك الطائرات من مرمى الخطر. وقد قدمت اليوم موجة جديدة من قاذفات (الكانبيرا) من ناحية الدلتا وحلقت فوق مطار القاهرة غرب وراحت تمر فوقه جيئة وذهاباً وتمطره بوابل من القنابل ذات الدوي الشديد.

إن هـذا المطـار منذ ساعة وهو بمثابة هدف للطائرات البريطانية والفرنسية، في البداية قصفت الطائرات مواقع المدفعية المضادة، وبالتالي تفرغت لـلمطار نفسه تفعل به ما تشاء تماماً مثل الغاصب الذي أرضخ المراة لمآربه ثم مارس معها شتى أنواع التعذيب.

دق التلفون في غرفتي. فرفعت السماعة وقلت:

- هلو، من يتكلم؟

- أنا قائد الأسطول الجوي صدقي محمود واريد مقابلتك في القيادة حالاً.

كان صدقي محمود يقف إلى جانب الشباك يـنظر كالمشدوه على أمواج القاذفات وهي تبزق النار والدمار على جميع المطارات، وتحول سلاحه الجوي إلى أكوام من الخردوات.

وكان معه في الغرفة أيضاً المقدم عفيفي مدير العمليات الجوية والرائد محمد لبيب رئيس فرع الدفاع الجوي، وكذلك المقدم محمد مدكور ابو العز.

استدار صدقي محمود نحوي لدى دخولي الغرفة، ورأيت على وجهه الانهيار المريع، وقال وهو يرتجف:

إنهم يقومون باغتصاب نسائنا أمام أعيننا بدون أن نستطيع أن نفعل شيئاً.

وحاول محمد لبيب أن يتحدث ولكنه فضل السكوت. أما محمود عفيفي فقد أرسل نظرة إلى الأرض. إلا أن مدكور ابو العز ظل يبدو عليه أنه لم يفقد صبره تماماً. ومرة أخرى حاول لبيب أن يقول شيئاً ما ولكن قائد السلاح الجوي أسكته بحركة من يده وقال لي:

(يا أنوير بك) أنت الرجل الوحيد هنا الذي اعتمد عليه وعلى عقله وسداد حكمه. وأنت ترى ما يفعلون بنا. خلال ساعات سيضيع كل شيء. جهود سنين طويلة.

شعرت أنه بعد قليل سينسى نفسه وينتحب كالنساء وشعرت أن كل قنبلة تسقط تسبب الآلام والمهانة وتماماً كان كل طائرة من طائراته مثل عشيقة تغتصب أمام عشيقها. ولكنه تمكن من السيطرة على نفسه وأخرج سيجارة من علبته الذهبية وأدناها من فمه بحركة عصبية، وأشعلها بالنار التي قدمه له عفيفي، وامتص منها نفساً كأنه ينتظر ان يأتيه الخلاص مني.

بدأت أفكر بسرعة، وببرود ظاهر. أن هناك مخرجاً واحداً فقط، يمكن به إنقاذ ما بقي سالماً من الطائرات. بدأت الحديث وقلت:

هناك خطة واحدة فقط لإنقاذ الطائرات وهي أن تصدر الأوامر فوراً إلى كل طائرة تستطيع أن تطير لتغادر جميع المطارات في منطقة القاهرة والقناة وأن تقلع جنوباً إلى الأقصر. حيث لا تستطيع الوصول إلى هناك سواء طائرات سايبر أو طائرات الكانبيرا وإذا وصلت ستنقطع في الجو من الوقود وهي عائدة إلى قبرص وبذلك تسقط في البحر.

دهشت مما فعله أبو العز في تلك اللحظة، فقد رفع سماعة التلفون بحركة عصبية سريعة وقال لعاملة المقسم:

أعطني فوراً وواحداً بعد الآخر كلاً من قائد مطار الماظة وقائد مطار القاهرة غرب، وقائد مطار انشاص فوراً، ثم أعاد السماعة إلى مكانها ورفع سماعة أخرى ليقول:

أعطني فوراً قادة مطارات أبو صوير وفايد وكبريت، ودق جرس التلفون ورد عليه أبو العز ليقول:

اصدر أوامر الإقلاع فوراً لجميع الطائرات القادرة على ذلك، جميع الطائرات عليها أن تغادر إلى الأقصر وتهبط هناك. ساقوم شخصياً بمتابعة تنفيذ هذا الأمر كيلا تدمر طائرة واحدة بعد صدور الأمر. الساعة الآن الثامنة و٥٥ دقيقة صباحاً مفهوم.

ودق الجرس الثاني، وعاد صدقي محمود يمارس عمله كقائد لسلاح الجو. وبعد نصف ساعة كانت الطائرات كلها قد أقلعت إلى الأقصر تقدم مني قائد سلاح الجو وأمسك رأسي بين يديه ونظر إلى عيني وقال بصوت غريب:

(لقد أرسلك الله لنا يا أنوير أفندي.. الله أرسلك)

لقد نسي صدقي محمود في غمرة الانفعال أن كلمة (أفندي) قد بطل استعمالها وتقدم كل من عفيفي ولبيب لمصافحتي وهزا كتفي تعبيراً عن امتنانهما وفرحهما. ولكن اكثرهم انفعالاً وامتناناً كان أبو العز، الذي ظل ينتظر حتى هدأ انفعاله ثم اقترب مني وقال:

اسمح لي يا انوير بك إذا كنت قد قلت أو فكرت بالسوء بالنسبة لك، أنت صديق حقاً..

ضحكت وقلت: إنك لم توفني أجري يا أبا العز، انتظر حتى آتي وآخذه...

وضحكنا جميعاً بصوت مرتفع، بينما كانت طائرات الكانبيرا تدور إلى الخلف وتختفي عن النظر فوق منطقة الدلتا وهي عائدة إلى قبرص لتتزود بالوقود والقنابل من جديد.

أنهى عفيفي، قائد فرع العمليات الجوية محادثاته الهاتفية ثم رفع عينيه وقال بنشوة المنتصر:

إن ٢٠ طائرة من قاذفات اليوشن ٢٨ قد تمكنت من الإقلاع من مطار القاهرة غرب، كانت هذه هي الطائرات الروسية الثقيلة ذات المدى البعيد وتستطيع حمل شحنات كبيرة من القنابل وكانت هي الطائرات التي تقلق كل مواطن في بلدي، وبسببها أرسلني فيشل إلى هنا.

بعد ذلك بحوالي ساعة ونصف، وفي منزلي الواقع على بُعد ثلاثة كيلومترات من قيادة سلاح الجو أرسلت إلى المحطة الرئيسية الخبر اللاسلكي التالي:

من روما

إلى المسؤول.

٢٠ طائرة اليوشن ٢٨ خرجت من القاهرة غرب إلى الأقصر (٠)

طائرات ميج خرجت من كبريت إلى الأقصر (٠) في الأقصر الآن ما يقرب من ٤٠ قاذفة اليوشن ٢٨ انتهى.

كنت أعرف أنه بعد مرور ساعتين فقط من هبوط القاذفات المصرية في الأقصر ستأتي إليها طائرات السايبر الفرنسية وتدمرها عن بكرة أبيها.

أبلغت امس عن خروج مجموعة لواء مصفح كان يرابط في معسكر (فار) إلى سيناء، ولما مر هذا اللواء فوق جسر الإسماعيلية وأصبح على شكل خط ضيق طوله كيلومتر

تصدت لـه طائـرات فرنسية وصلت مـن إسـرائيل وهاجمته بالصواريخ والرشاشات الثقيلة. ولم يصل هـذا اللواء إلى سيناء وإنمـا عـاد أدراجه تاركاً خلفه عشرات الدبابات الروسية من نـوع (تـي ٣٤) ذات المدفـع البالغ قطره ٧٥ ملم والتي تستطيع أن تدمر أية دبابة إسرائيلية قبل أن تصـل إلى المـدى المناسـب لرمايـته. وتـبلغ سـرعة هـذه الدبابـة ٥٥ كـيلومتراً في السـاعة وتستطيع أن تقطع صحراء سيناء بكاملها بدون أن تحتاج إلى التزود بالوقود من جديد. أما الدبابات الإسـرائيلية فهي دبابات شيرمان قديمـة خفيفة وليست لها كمـا يقـول الخبراء إمكانيات المواجهة مع دبابات (تي ٣٤).

في ذلك المساء أبلغني (لبيب) بأن سرباً من قاذفات اليوشن ٢٨ انتقل من الأقصر إلى أحد المطارات في المملكة العربية السعودية. وسيقوم سربان غداً بعبور البحر الأحمر والاختباء من القاذفات الفرنسية والبريطانية وكذلك انتقلت طائرات الميج من الأقصر إلى السودان ومعها سرب اليوشن ٢٨.

مـرت أربعـة أيـام حـتى وصلت طائـرات السايبر الفرنسية إلى الأقصر ولم يكن في المطار سوى عدد قليل من طائرات اليوشن ٢٨ فقضت عليها وعادت من حيث أتت.

جلست في منزلي أتطلع إلى الصورة التي تختفي وراءها القاصات الحديدية وفكرت بماذا سيقوله المسؤولون عني في إسرائيل إذا فتحت جهاز الإرسال ووجهت لهم الشتيمة تلو الشتيمة على تأخرهم في قصف مطار الأقصر.

المفاجأة الكبرى في تل أبيب

٢٠ حزيران ١٩٥٧

▣ لم اشعر بميل نحو الرجل المقابل لي، ولم أحاول أن اخفي ذلك. وربما لم يكن هو الآخر يشعر بميل نحوي ولكنه بذل جهده في ان يخفي ذلك عني.

كنت في ذلك الصباح عصبي المزاج، ربما كان السبب في ذلك بلوغي اليوم سن الثانية والثلاثين - على أساس أنني ولدت في اليوم الذي ولد فيه آرام أنوير الحقيقي. ولكن ليس من شك أن السبب الحقيقي لعصبيتي هي المقابلة غير المتوقعة مع (صوفي ياسين) شريطة أن تكون صوفي التي احترقت في السيارة على طريق طنطا قد عادت إليها الحياة وجاءت إلى تل أبيب. وزيادة على ذلك كانت صوفي سمراء البشرة شعرها أسود كالليل ومسرح إلى الخلف، وعينيها سوداوين عميقتين كليالي العشاق. أما نعومي التي قابلتها صباح اليوم في تل أبيب فقد كانت شقراء الشعر وعينيها بلون زيت الزيتون وفيما عدا ذلك فقد كان الشبه كبيراً بين الاثنتين حتى عجزت عن التمييز بينهما.

باختصار، كانت حالتي النفسية، هي الحالة التي يجب على الجاسوس إذا ما وصلها أن يبتعد فوراً عن العمل، ويبحث له عن مصدر رزق أهون واسهل مثل العناية بالحيوانات وما شابه ذلك من الأعمال التي لا تتطلب درجة خطيرة من الانتباه والحذر كما هو مطلوب من الجاسوس باستمرار.

كنت أنا الذي طلبت هذه المقابلة عن طريق مخابرة لاسلكية من مصر لأقابل المسئول عني. ولكن المسئول بالطبع لم يجد متسعاً يخصصه من وقته لمقابلتي، لمقابلة واحد من مئات عملائه المنتشرين في جميع أنحاء المعمورة.

لم يكن فيشل يتصرف كذلك. ولكن فيشل نفسه قال:

إن عهد المسؤولين القدماء قد مر وانتهى.

وصلت من تركيا في ساعة متأخرة من الليل، واستأجرت غرفة عند أرملة عجوز. وفي الصباح خرجت بسيارة للمقابلة في مكتب صغير بشارع جانبي تابع للشركة التي تعمل في استيراد الأغذية من تركيا. وأثناء سيري في الطريق شاهدت (نعومي) لقد تغيرت كثيراً منذ لقائنا الأخير حينما لطمتني على وجهي وخرجت بدون أن تقول شيئاً. ومع ذلك فهي لم تتغير كثيراً. لقد أصبحت نعومي خلال مدة غيابي امرأة، امرأة مدهشة بجمالها الداخلي الذي ينبعث منها. لم يكن بها شيء من جمالها السابق الذي يبهر العين كما كانت صوفي ومع ذلك فقد كان الشبه كبيراً بينهما. ومع أن نعومي حينما تركتها كانت أشبه بوردة لم تزهر بعد فقد عرفتها اليوم من النظرة الأولى. وعند ذلك غصت في مقعد السيارة وتابعتها بنظري من الشباك وسرعان ما اختفت عن ناظري،وهنا بدأت السرحان، هل هي نعومي حقاً أم لا، وأخيراً وصلت إلى مكان الاجتماع وأنا لا أزال سارح الفكر.

في مكتب شركة استيراد الأغذية التركية (إيمبور تورك) كان ينتظرني الوسيط، وهو رجل عادي، ولكن له عقلاً داخل رأسه يمكن به إقامة إمبراطورية عسكرية أو اقتصادية أو أن يجعل منه وسيطاً مجهولاً في شبكة تجسس، كما هو حاله.

بدأت حديثي معه قائلاً:

إنني أفهم أن المسؤول لم يكن بوسعه أن يكرس ساعة من وقته الثمين لأحد عملائه الصغار في بلد أفريقي غير مهم.

قال الرجل بهدوء:

- لقد طلب مني المسؤول أن أعتذر لك عن عدم استطاعته مقابلتك التي لم تكن متوقعة إلى حد ما.

قلت: صحيح فقبل أسبوع فقط أبلغتكم بذلك خلال ساعة الاتصال اللاسلكي الخاصة بأفريقيا.

قال: إننا نعتبر مصر من دول الشرق الأوسط، كما نقدر هنا عملك بدرجة لا تقل أبداً عما تقدره أنت.

قلت - وأنا أحاول أن أبدو ساخراً -:

لقد شعرت بذلك، وخاصة قبل شهرين ونصف حينما أبلغتكم أن جميع قاذفات القنابل النفاثة الثقيلة التي تخشونها كثيراً، متجمعة في مطار واحد لم تهيأ مدرجاته بعد لاستقبال مثل هذه الطائرات. ولقد قمت أنا نفسي بتجميع الطائرات المصرية هناك، أنقذتها من طائرات الكانبيرا البريطانية على أمل أن تفهموا الإشارة الصغيرة.

قال الرجل بهدوء:

لقد فهمنا إشارتك جيداً، ولكن مطار الأقصر كان ضمن المنطقة المخصصة للطائرات البريطانية، وقد رفضت هذه الطائرات أن تقصف المطار.

قلت: لكن بعد يومين، حينما أصبح المطار خالياً من الطائرات جاءت الطائرات الفرنسية السايبر إليه.

قال: لقد تناقشنا معهم يومين كاملين الفرنسيون كانوا يطلبون بإلحاح السماح لهم بتدمير الطائرات المصرية الثقيلة، ولم يسمح لهم بذلك إلا بعد يومين وشريطة أن يتم ذلك خلال ساعات معدودة.

تركت الجدال في هذه الناحية وانتقلت إلى ناحية أخرى.

قلت: أفهم بأن تقديراتي إزاء القوات المصرية في سيناء لم توافق عليها الدائرة لأنها لم تكن موثقة بالنسبة للمصادر الأخرى.

قال: تعرف بأننا لا نحدد سياسة وإنما ننقل معلومات عسكرية.

قلت: إن هناك أنواعاً كثيرة من الخونة، النوع الأول منهم هو الذي يقدم المعلومات للعدو. والنوع الثاني هو الذي يزود المسؤولين عنه بمعلومات كاذبة لينال رضاهم.

قال: لا أريد أن أتدخل في السياسة، ولكن من المؤكد أننا بالغنا جداً في تقدير القوات المصرية عامة وفي سيناء خاصة. ولم نتقبل المعلومات التي مررتها إلينا، حتى عرفنا الحقيقة عندما دخلنا سيناء.

وسألته كأنني لا أعرف شيئاً:

- وماذا وجدتم في سيناء؟

قال الرجل بما يشبه الهمس:

- كانت معلوماتك صحيحة إلى درجة كبيرة، مع أنك أخطأت في بعض التفاصيل، فمثلاً، الفرقة الثالثة كانت لها قوات مساندة أكثر بقليل مما ذكرته أنت ومع ذلك فقد كنت صادقاً فيما قلته عن السلاح الجوي. فمن مجموع ٢٠٠ طائرة ميج لديهم لم يستخدموا ضدنا قبل أن تبدأ العملية الإنجلو فرنسية سوى (٣٠-٤٠) طائرة فقط. وعرفنا أن طائرة ميج ١٥ ليست ملائمة حقاً لمهاجمة القوات الأرضية، وقد استخدموا هذه الطائرات كغطاء جوي لحماية طائرات الفامباير والمتيور التي كانت تهاجم قواتنا.

بدأت الآن أشعر بميل نحو الرجل، فلقد كان صريحاً ولم يخف عني شيئاً.

أمضيت عامين وأنا أسعى نحو الهدف فوق الجثث ومع المآسي وحينما وصلت ضاع كل شيء تقريباً.

جلسنا مدة ساعة كاملة، هدأت خلالها حدتي، فإن دوائر التجسس مثل أي عمل كبير لا تساوي أكثر من الرجل الذي يقف على رأسها. ويومها كانت تمر ببلادي فترة عصيبة، وانقضى عهد الرجال القدماء وجاء محلهم رجال جدد لم يحتلوا مراكزهم بنجاح بعد. ولذلك يجب علي أن أنتظر. فسيأتي يوم يضيق فيه الخناق على بلادي، وعندها سيهرع الرجال الجدد. لفك الخناق ويجب أن أكون قريباً قدر الإمكان من الجلاد الممسك بهذا الخناق وما أن تحين الساعة المناسبة حتى أقوم بشل يمينه في ضربة قاضية.

بدأ المطر ينهمر بغزارة في الخارج، وأطبق الظلام على الغرفة وسحبت أنفاساً من بقايا سيجارتي ثم أطفأتها في المنفضة التي كانت أعقاب السجاير تملأها. سنوات طويلة لم أدخن خلالها، ولكن اليوم أتيت على حوالي نصف علبة السجاير.

قلت بعد أن تحدثنا في جميع الأمور:

- يقلقني أمر واحد فقط، وهو أن يأتي يوم وأبلغكم فيه أن جيشاً مصرياً حديثاً ومسلحاً بأحدث الأسلحة المصفحة والطائرات السريعة يتوجه فعلاً نحوكم، فلا تصدقون ذلك، وبعد ذلك حينما تجدون الجنود المصريين يتدفقون عليكم تعترفوا أن معلوماتي كانت صحيحة جداً.

حديث مع الجزار

١٣ تموز ١٩٥٧

■ قال لي الرسول الذي جاء إليّ أمس الأول جملة واحدة فقط (زكريا محيي الدين يريد مقابلتك) ولكن هذه الجملة كانت لها أهمية أكبر من أهمية الأحاديث التي تستمر عدة ساعات. كانت الجملة شبيهة تماماً بالجملة التي قالها لي الرسول حينما حضر إلى بيتي في إسرائيل قبل ثلاث سنوات لمقابلة فيشل، وعندها تذكرت ذلك الرسول وتذكرت بيتي البعيد. يومها قال لي الرسول:

(فيشل الطويل يريد مقابلتك) وتذكرت أن فيشل حذرني كثيراً من زكريا محيي الدين.

ماذا يريد السفاح؟ قلت في نفسي تلك الليلة.

منذ نصف سنة وأنا أمضي معظم أوقاتي في سويسرا ومنزلي في (هليوبولس) بالقاهرة خالياً طوال الوقت ماعدا الزيارات القصيرة التي كنت أعود فيها إلى مصر. كان لي أعمال في سويسرا وكنت أخلط العمل الرسمي بالعمل الغير رسمي. كنت أحب أن أفهم أصدقائي المصريين عن طريق سفري إلى سويسرا بأنني رجل مستقل، تاجر دولي آتي متى شئت، وأغادر متى شئت. وكنت أحرص على المحافظة على ذلك، وبقدر ما كنت أبتعد عن مصر، وأمضي الوقت بعيداً عنها، بقدر ما كانت ثقتهم تزيد بي وتزول أية شكوك ضدي.

ومع ذلك فقد فعلت لهم (للمصريين) الكثير، فإن حرب السويس القصيرة وحرب سيناء، وخاصة قصف المطارات العسكرية والمنشآت الحربية اقتلعت أنياب الجيش المصري وحطمت سلاحه الجوي وأبقته بدون سلاح مصفح، وبدون أجهزة رادار ولا مدافع مضادة للطائرات، وبدون سيارات عسكرية ولا ذخيرة.

وبالرغم من الانتصار السياسي، وبالرغم من شحنات الأسلحة التي بدأت تصل من جديد على غرار صفقة الأسلحة السابقة، فقد كانت مصر لا تزال شبيهة بالمرأة التي تدور في ثياب ممزقة بين الناس. ومن خلال ثقوب الثوب يطل جسدها وهو يجتنب عيون الناس إليها. ولذا كان من الضروري أن يسلح الجيش المصري من جديد قبل أن يتمكن الأعداء من تكرار العدوان.

قمت بشراء أسلحة خفيفة، ودبابات نصف مجنزرة، ومدافع مضادة للمدرعات لحساب دول مختلفة في العالم، وخلال ذلك كنت اشتري كل ما تقع عليه يدي لحساب أصدقائي المصريين.

ومر العالم بثورة صناعية وثورة في المعدات الحربية تراكمت من جراء ذلك أسلحة كبيرة في المستودعات، وقد كانت إلى الأمس تعتبر حديثة، بينما تحولت اليوم إلى خردوات، فصارت الدول تستبدل بسرعة آلات الدمار القديمة بآلات دمار أحدث، وتستبدل الطائرات بما هو أفضل منها. وكذلك الحال بالنسبة للدبابات والمدفعية عرضت جميع المعدات التي استبدلت للبيع لمجموعات القتل من الفريق رقم (٢). وكان أصدقائي لا يزالون من هذا الفريق. فاشتريت أسلحة لم اشاهدها بعيني وكنت أرسلها بالسفن إلى مصر لتوزع على المستودعات ويجري توضيبها وترتيبها وتسجيلها بنظام ولكن ليست لها أية فائدة. فالدبابات علاها الصدأ بدون أن تجد من يدير محركاتها الكبيرة. مدافع حديثة لم تطلق طلقة واحدة لأن أحداً لم يعرف كيفية استخدام أجهزة التوجيه فيها. أما أجهزة الرادار فقد كانت تدور باستمرار وتكشف أجساماً غريبة مشبوهة ولكنها ليست سوى طائرات تجارية مسموح بالمرور بالطرق الجوية المعروفة.

إن بلادهم لم تكن بحاجة إلى السلاح الحديث، ولكنهم أرادوا ذلك فقدمته لهم وأشبعت رغباتهم التي لا تعرف الشبع.

وفي غضون ذلك حرصت على الاحتفاظ بالمظهر الخارجي لحياتي فقد واصلت مصادقة النساء ومعاقرة الشراب، وكان عملي التجاري يجتنب بنات الجنس اللطيف، وكان جميع تجار الأسلحة الذين يتعاملون معي يعرفون انني اقيم لهم في نهاية كل صفقة حفلات صاخبة تشترك بها الفاتنات من الدرجة الأولى.

كان السويسريون يقولون (أنوير باند - أي - فرقة أنوير) لمجموعة الفتيات التي تحيط بي باستمرار ونقوم بتوفير أسباب المتعة والرفاهية لي ولجميع من يتعامل معي.

ولكن اليوم وبعد نصف سنة من الحياة الصاخبة الماجنة اشعر بأن من واجبي أن أعود إلى مصر، ولكن لم يخطر لي من قبل أن الرجل الذي سيعيدني إلى مصر هو محيي الدين بالذات الرجل المسؤول عن دوائر التجسس التي من أول واجباتها أن تكشف أمثالي.

وفي نفس المساء، أجريت حديثاً تلفونياً غريباً مع أحد الأشخاص في سويسرا. وبعد ذلك حجزت مقعداً في طائرة (يونيتد اراب إيرلنيز) ستطير غداً إلى القاهرة، وبكرت في النوم، ولكن النوم ابتعد عن عيني، وفكرت في أمور كان من غير المستحسن أن أفكر فيها، وقدرت احتمالات وإمكانيات ثم أهملتها، وأخيراً وصلت إلى استنتاج:

إنني لا أعلم ولا أستطيع أن أعمل شيئاً من المحتمل أن عثروا على السيف المزود في بيتي الذي في داخله جهاز البث، ومن المحتمل كذلك أن تكون آثار المشتبه بهم أو أموراً أجهلها هي التي كشفت غياب (أنوير) وانني لا أستطيع أن أرفض الذهاب إلى مصر، ولذلك فلم يبق أمامي إلا أن أقف أمام الرجل الذي يناديني، وأمد عنقي لأرى، هل يلف حوله حبل المشنقة (؟)

في بيتي الكائن في حي هليوبولس لم يظهر شيء يثير الشبهة، وعند وصولي إليه أسرعت إلى الحمام ثم أخذت اتصل مع أصدقائي في التلفون، وفرحوا لمجيئي وطلبوا أن يروني في أقرب وقت لكنني أجلت كل شيء إلى اليوم التالي بعد مقابلتي مع زكريا عبدالمجيد محيي الدين وزير الداخلية ورئيس مصلحة الاستخبارات والأمن الداخلي والمستشار لشؤون السودان ورئيس لجنة المراقبة لمكاتب الحكومة. والمشرف على تنفيذ توزيع أراضي الإصلاح الزراعي في مصر.

وخلال الحديث منعت نفسي من الابتسام عدة مرات ذلك لأن وجه الشبه بين محيي الدين وفيشل الطويل لم يكن في المظهر الخارجي فقط، وربما كنت مبالغاً في مدى وجه الشبه بينهما من اجل تخفيف خوفي والتغلب عليه.

كانت خلف قبة قميصي المنشاة، تلك (الحبة) البيضاء الصغيرة التي تكفي لقتل رجل بعد ابتلاعها بثلاث دقائق، وكان وجود هذه الحبة يذكرني باستمرار أمام من أقف الآن. وكنت في الصباح قد تصورت بمخيلتي ما سيحدث لي عند دخولي إلى مكتب زكريا محي الدين، تصورت الحالة التالية:

عندما ادخل، يفتح الباب من جديد ويدخل عدد من رجال الشرطة، وهنا أقف وادخل يدي بهدوء إلى ما تحت قبة القميص وأخرج الحبة البيضاء من تحتها وابتلعها بسرعة. وقبل أن يتمكن رجال الشرطة من توجيه بعض الأسئلة إلي أكون قد فارقت الحياة.

ولكن الأمور سارت على عكس ذلك حينما وصلت إلى مكتب محي الدين.

(اجلس) قال لي محيي الدين، وقد زال بريق العناد من عينيه قليلاً، وجلست محتفظاً بهدوء نفسي ومظهري بينما كان قلبي يدق بشدة كعصفور ينتفض داخل القفص. كنت أعرف انه لا تفيدني هنا لا الجدية التي تظاهرت بها أمام صلاح نصر، مدير المخابرات العسكرية، ولا التودد الزائد الذي كنت اتظاهر به أمام أصدقائي ضباط سلاح الجو المصري. فأمامي يجلس الرجل الذي ضرب بيد من حديد على كل محاولة ضد نظام الحكم، الرجل الذي نجح - إلى حد ما - في اصطيادي بواسطة جاسوسة جميلة[1].

تفرس محي الدين بوجهي جيداً، وبدت عيناه مسالمتين إلى حد ما، ثم قال فجأة بدون اكتراث:

عندي سلام لك..

أرخيت شفتي كاني أستعد بكليتي لتلقي الضربة، التي لم أكن أعرف من أي جانب ستاتي، ولذلك وقفت مستعداً لتلقيها من كل جانب.

---

(١) صوفي ياسين.

قلت: من أين السلام:

قال: من والدتك. وانحسرت أسنانه قليلاً، تماماً كما تبدو للشاة أسنان الذئب عند افتراسها، تلقيت الضربة بدون مقاومة.. وقلت في نفسي:

وهكذا حانت نهايتك يا ابنر جاك (نفس الجاسوس) وانكشف أمرك.

ثم قلت له باستغراب:

والدتي؟ كنت افكر انها توفيت منذ مدة طويلة فما الذي حدث؟ هل علمت بأنني اصبحت رجلاً ثرياً؟

كنت جاسوساً. وكان من واجبي أن أواصل عملية الخداع والتضليل إلى ما لا نهاية حتى ولو كانت والدتي موجودة بالفعل وتقف وراء الباب.

قال محي الدين:

(كلا) لقد أجريت في تركيا تحريات واسعة عن أعمالك هناك ووجدت والدتك تصارع المرض فهل ماتت؟ قلتها بدون اهتمام.

قال: نعم ماتت قبل أسبوع واحد، ولكنها استطاعت أن تسمع الكثير عنك وتهديك سلامها.

لم أحاول أن أتظاهر بالحزن، فقد مر أكثر من عشرين سنة لم أشاهد خلالها أمي، ولذلك فإن محاولتي التظاهر بالحزن عليها ستبدو محاولة زائفة مفضوحة، وقلت لنفسي:

ماذا يقصد هذا الرجل من ذلك؟

ثم قلت له:

لقد كانت امرأة مسكينة، لم تكن حياتها سعيدة: ما رأيك بسلاحنا الجوي؟ سألني محيي الدين وهو يقوم بقفزة حادة في الحديث تماماً مثل قفزات فيشل. لست خبيراً عسكرياً وإنما اشتري السلاح لأبيعه ولكن لا من أجل أن أستخدمه قلت له.

تظاهـر مديـر المخابرات المصرية بالابتسام، محاولاً قبول جوابي. ثم سألني.. لماذا أنقذت قاذفـات الأليوشـن المصـرية أثنـاء عمليـة السـويس؟ إنـك بذلـك خسرت مبالغ طائلة، والمعروف أنك تعمل من أجل المال.

هـنـا أحسست بفخ ناعم يطبق علي، أن السفاح يحاول بالتودد والصداقة أن يحشرني في زاويـة ضـيقة، ليرغمـني على الاعتراف بأن لي أهدافاً هي غير جني الأموال من التجارة بالسلاح. ثـم قلت لـه: رأيـت صـديقي، قـائد الأسـطول الجـوي (صـدقي محمـود) يكاد يتقطع مع كل قنـبلة تسقط عـلى طائرته، وشعرت أن الإنجليز والفرنسيين يومها يقومون باغتصاب جميع بناتنا.

فقـال: لقـد وصـل عـدد الطائـرات الصـالحة للاسـتخدام عـند صـدقي محمـود إلى عـدد الفتيات الصالحات للاستخدام في سلاحه الجوي. وتوقف عند هذا الحد ولم يكمل، ثم سألني:

ولكن كيف حال فتياتك أنت؟

لم أرغب في الدخول بهذا الموضوع ولذلك قلت باقتضاب:

(بأحسن حال). قال:

إن واحدة من فتياتك، كانت موفودة من قبلي لتتجسس عليك.

وهـنا سـدد إلـي نظـرة بـاردة، أحسسـت كـأن عينـيه تحفـران وكـراً في جبيني وعقلي. وتجمـد قلـبي وفكـري وخلت منهما الأحاسيس والمشاعر، ولكن وجهي المعتاد على الأزمات ظل محتفظاً بمظهره الخارجي الذي لا يكشف عن شيء، ثم قلت لـه: من هي جاسوستك - دنيا؟

فهز رأسه نفياً ثم قال:

لقـد علمـت مـنها إنـك لا تعمـل مـن أجـل المـال والنسـاء فقـط، مـع أنـك تـتظاهر بـذلك. ولكـنني تجاهلت كلامه وعدت أسالـه عن جاسوسته فقلت: هل هي فدوى؟ ولكنه لم يجب. ثم قلت صوفي ياسمين إذن، كنت أعتقد أنها تحبني.

(كـانـت تحـبك فعـلاً) قال محيي الدين ذلك ثم أردف، ولكن بالتالي شككت أنا بأمرك، وعلى وجه الخصوص شككت بأنك جاسوس إسرائيلي.

ماذا؟ قلت صارخاً بحدة.

سكتنا لحظة، وكان نظري موجهاً إلى عيني الرجل المرعب في وادي النيل. كانت نظرة انتقام، نظرة كراهية.

(يا محيي الدين (أفندي))

قلت وأنا أتعمد استخدام اللقب المكروه وأشعر بأنني اقتطع كل كلمة من جبل الكراهية.. إذا كان في مصر من يعتقد أنني جاسوس إسرائيلي، ولم أستطع أن أكمل فقد تحشرج صوتي من الغضب فرد محيي الدين قائلاً:

(إن إنساناً لا يشك بك اليوم يا أنوير بك).

فسألته ساخراً: لماذا؟ هل قررت فجأة أن أتوقف عن التجسس؟

رمقني محيي الدين بنظره، وقد أحس بالغضب يتفجر من جسمي قرر في نفسه أن يهدئ من روعي فقال:

إن طائرات الإليوشن، ما كان لأي جاسوس إسرائيلي أن يحاول إنقاذها وهي القاذفات التي تخشاها إسرائيل كثيراً. وحينما علمت بأنك نصحت صدقي محمود بأن ينقلها إلى الأقصر كنت أتوقع أن تلحق بها الطائرات المعتدية إلى هناك وتدمرها. ولكن الأعداء لم يفعلوا ذلك في اليومين التاليين. فلو لم يكن صدقي محمود غارقاً حتى أذنيه في أعماله النسائية لوصلت جميع الطائرات إلى السعودية وسلمت من القصف.

هززت رأسي موافقاً على كلامه ثم قلت:

حينما حرمت الإسرائيليين من المعدات الجوية التي كانوا يتلهفون للحصول عليها، وبعتها لكم بسعر أقل من السعر الذي عرضه الإسرائيليون علي..

وهنا أوقفني محيي الدين عن متابعة الكلام بلطف وقال:

إن كل جاسوس ماهر كان يسلك نفس المسلك، والإسرائيليون جواسيس منذ القدم. منذ أيام (رحاب). قلت باستغراب: رحاب؟ قال محيي الدين باسماً: آه، ألا تعرف رحاب، إنها عاهرة من أريحا. ثم سألني بشكل مفاجئ:

ما رأيك بالعدوان الإسرائيلي على سيناء؟

قلت: لا أعره أي اهتمام خاص، فقد كنا جميعاً مشغولين بالعملية الإنجلو - فرنسية.

قال: كذلك إنني لم أهتم بالعدوان الإسرائيلي، ولكني تعلمت منه أمرين:

أولاً - لقد ثبت من الخطط الحربية لإسرائيلية أنهم كانوا يجهلون تقريباً توزيع قواتنا في سيناء. وهذا أيضاً يرجع الفضل فيه لك.

ثانياً - سيمر وقت طويل قبل أن يستطيع جيشنا الوقوف أمام الجيش الإسرائيلي ولكن أرجو أن لا تقل هذا في الخارج رغم أنها الحقيقة بعينها.

قلت: ولكن لم تعطى لجيشكم أية فرصة، بسبب العدوان الإنجو / فرنسي من الخلف.

قال: كلا.

وهنا استغربت لماذا يلقبه زملاءه بالساكت، فقد تحدث كثيراً وزيادة عن اللزوم، فهل هذه من صفات مدراء دوائر التجسس؟ وتذكرت أن فيشل هو الآخر كان يتكلم كثيراً بحضوري.

واستمر قائلاً:

كلا ستمر سنوات طويلة قبل أن يكون بوسع الجيش الإسرائيلي أن يتغلب على قواتنا الأرضية، ولذلك..

وقاطعته قائلاً:

لا شك أنك تعني الصواريخ.

كنت اعرف أن لهذه الكلمة فعل السحر في جميع بلاد النيل. ولم يكن ذلك سراً، فالمتحدثون الرسميون أشاروا إلى ذلك بوضوح في عدة مناسبات. وتخيلت العلماء الألمان يشرفون على صناعة الصواريخ في مصر تحت إشراف البروفيسور (باول جاركة) الذي التقيت به كثيراً وكنت أعرف أنه علاوة على عمله بالصواريخ يقوم بإجراء تجارب لإدخال التحسينات على أجهزة الرادار المصرية، وعرفت أكثر من ذلك أن جميع أعماله رغم

الأموال الطائلة التي تستنزفها هذه التجارب لا تجني أية فائدة. فلم يحرز العمل بالصواريخ أي تقدم. ولم أكن أعرف أسباب فشل العمل، مع انني علمت بوجود الفشل نفسه من العقيد (محمود الدين خليل) مدير الاستخبارات الجوية وهو رجل بدين له شارب ثخين أشبه بشارب ضابط الماني، وقد حدثني عن ذلك قبل ثلاثة اشهر. كذلك أخبرتني (فاندا) سكرتيرة شقراء لمدير مصانع الصواريخ بأنه من الصعب صنع الصواريخ في هذه البلاد.

والواقع أن البروفيسور (باول جاركة) كان قد ترك مصر فور عملية السويس ثم تبعه واحداً تلو الآخر بقية علماء الصواريخ الألمان. وأخيراً الجالية الألمانية كلها.

فقال لي محيي الدين عندئذ حينما يشن الجيش الإسرائيلي هجومه في المرة القادمة، فلن نحتاج إلى التضحية بآلاف الجنود. فمن داخل سيناء ستنطلق إلى الشمال صواريخ موجهة تحمل في رؤوسها كميات قليلة من مادة الكوبالت ٦٠ ومادة السترونتيوم ٩٠ وقبل أن يستطيع الجيش الإسرائيلي الوصول إلى قاعدة الصواريخ نكون قد دمرنا إسرائيل كلها ولا يبقى للجيش الإسرائيلي ما يحارب من اجله.

ضحكت، وبنفس الوقت شعرت أن القشعريرة تهزني. فقد تذكرت في هذا الموقف جزءاً مصوراً من يوميات (هيروشيما) التقط بعد أيام قليلة من إلقاء القنبلة الذرية عليها. وكانت تبدو في وسط الصورة طفلة محروقة، ترقص من شدة الألم وهي لا تعرف أنها ترقص رقصة الموت

ونظر محيي الدين إلى ساعته، وكان الوقت المحدد للمقابلة يقارب على الانتهاء، وهنا قال لي محيي الدين:

(انا اعرف جيداً بانك تخدمنا لا من اجل المال فقط، ولكن يا أنوير بك لا يمكنك أن تعرف أبداً ما إذا كانت المرأة التي تنام في فراشك وتضحك معك هي جاسوسة لي، فإياك والوقوع يا أنوير بك).

قلت: أتعهد لك بذلك.

قال: كنت أعرف انك ستتعهد به لأنك صديق مخلص لبلادنا وسنكافئك على أحسن وجه وهكذا أصبحت موضع ثقة رئيس مصلحة الأمن الداخلي، والذي عين بعد سنة نائباً

للرئـيس ثـم ويـزراً للداخلـية، وفي شـهر تشـرين أول ١٩٦٥ اصـبح رئيسـاً لحكومـة الجمهوريـة العربية المتحدة.

وتذكـرت أن أستاذي فيشل الطويـل، اخطأ في نقطـة واحـدة وهـي خوفه من ذكـاء وحـيلة محـيي الديـن، في الوقت الذي لم يستطع محيي الدين بذكائه وحيلته سوى أن يعرف ميولي ورغباتي ولكنه عجز عن معرف الدوافع السرية لوجودي هنا.

ربما يكون الحظ قد حالفني حتى الآن.

لقـد عـلمني فيشل ان جمـيع أعمال التجسس ليست سوى لعبة (زوج وفـرد) فإذا كان بـيدك (زوج) في المرة الأولى ورايـت أن الـذي يلعـب معـك سـاذجاً فامسـك في المرة الثانية (زوج) ايضاً لأن اللاعـب سيعتقد أنـك تمسك (فـرداً). ولكن إذا كان اللاعب ذكياً وصاحب حيلة فامسك (فـرداً). لأن الـرجل الذكي لا يصدق بانك ستلجأ إلى خدعة بسيطة. ولكن إذا كان لخصمك عقلاً كبيراً حاداً فاسمك في المرة الثانية (زوجاً) فإنه سيفهم انك ستمسك (فـرداً).

هـذه هـي فلسفة فيشل كلها على كل جاسوس أن يؤدي الأعمال غير المتوقعة مثل إنقـاذ القاذفـات الثقيلة التي تخشى منها بلاده. ولكن لماذا يفعل ذلك وهل تكون دوافعه شريفة أم غير شريفة؟

الإجابـة عـلى ذلـك عـند مديـر مصـلحة الأمـن الداخلـي، وبالرغم من المعلومات الكثيرة المتوفرة لديـه، والجهـاز الجبار الـذي يأتمـر بأمره فإن عقلـه ومقدرته على إصدار الحكم هما وحدهما دون غيرهما اللتان تحددان النصر أو الـهزيمة.

هل انتهت مهمتي؟؟

٢٢ تشرين أول ١٩٦٥

▣ مرت تسع سنوات تقريباً منذ الحديث الذي أجريته مع الوسيط الإسرائيلي في مكاتب شركة أيمبورتورك، لكن ذكرى ذلك الحديث عادت إلي خلال الحديث الذي أجريته اليوم. لا لأنه كان هناك شبه بين الحديثين، وإنما لوجود اختلاف بينهما بالذات.

وعلى العموم فقد أصبحت في المدة الأخيرة أميل إلى الرجوع إلى الذكريات الماضية وأحلم بالصيف. تذكرت أنني قبل تسع سنوات عندما عدت إلى إسرائيل ونزلت في تل أبيب. شاهدت في الطريق فتاة تشبه (نعومي) أو (صوفي ياسين). وعادت اليوم ذكريات الفتاتين الوحيدتين اللتين أحببتهما حقاً من دون جميع عشرات بل ومئات النساء اللواتي صادفتهن في طريقي الطويل. أجل الاثنتان أحببتهما وأنا في ريعان الصبا، في عز رجولتي. والاثنتان أيضاً قتلتهما.

اليوم أصبحت في الأربعين من عمري، لم تعد بي حاجة لصبغ شعري، كما أن رفاقي وأصدقائي هنا في مصر كبروا، وبدأ الشعر الأبيض ينتشر على رؤوسهم: الريس، وعبده، وصدقي محمود، وأبو العز، حتى محيي الدين نفسه.

لقد أكلت الثورة أبناءها، فغالبية الضباط الأحرار الذين يمثلون مختلف الوحدات العسكرية الذين ظهروا في الصورة المعروفة التي تمثل ابطال ثورة ٢٣ يوليو، اختفوا من

المسرح، أما البقية فكانت النيران تأكلهم ببطء، النيران التي أشعلوها قبل سنوات، وازدادت اشتعالاً بينما فقدت الثورة حماسها واندفاعها وراحت تمضغ قلوب الذين قاموا بها.

السنوات الثلاثة الأخيرة كانت أسوأ ما عرفه أصدقائي منذ استلامهم زمام السلطة من الملك حتى اليوم، فالصحراء اليمنية التي كانت يجب أن تكون بمثابة ميدان مناورات وتدريب مؤقت للجيش المصري وخشبة قفز نحو بحار البترول العربية، تحولت إلى حيوان مفترس جائع يفتح فمه ويبتلع الجيش المصري، ويمتص خيرات البلاد بدون أن يكتفي كل ذلك لإملاء معدته. إن الحرب التي كان المفروض أن تؤدي إلى نصر باهر وسريع وفي أعقابها مركز البترول، استمرت سنوات طويلة بدون نتيجة واضحة، تهدم اقتصاديات البلاد، وتهدد بالقضاء على المكاسب القليلة التي أمكن تحقيقها بجهود السنين الطوال ثم ظهرت الثغرات في نظام الحكم. أنا نفسي الذي اكتشفت قبل سنة بأن شبكة تهريب المخدرات والأفيون الكبرى كانت متشعبة أكبر مما كنت أتصور.

كنت أتصور حتى ذلك الوقت أنه يرأس تلك الشبكة مدير الاستخبارات العسكرية صلاح نصر، ومدير المخابرات السرية (علي سمير) وقائد سلاح الجو محمد صدقي محمود. ولكن حينما جذبت بخفة أطراف الخيوط راحت تتكشف لي حقائق غريبة فعرفت أن هذه الشبكة تدار من داخل منزل صديق حميم للرئيس وهو نائبه المشير عبدالحكيم عامر قائد القوات المسلحة المصرية. فقد استطاع (عبده) بالتحايل والخداع أن يسجل على اسمه مساحات من الأراضي المؤممة، تزيد خمسين ضعفاً عن المساحات المسموح للمزارع بامتلاكها.

من مركز القوة هذا، وبمساعدة مدير مكتبه المقدم شمس الدين بدران الذي أصبح فيما بعد وزيراً للحربية، وبمساعدة صلاح نصر، وعلي سمير، وصدقي محمود، استطاع المشير أن يسيطر بسهولة على جميع طرق تهريب المخدرات التي كان نظام الحكم الرسمي يحاربها بشدة.

أسطول خاص من سيارات الشحن، وعشرات السيارات الخصوصية ومئات الرجال كانوا يعملون في وضح النهار في تهريب الحشيشة من لبنان إلى مصر، وحينما كنت أفكر كيف يتم التهريب هذا بكميات ضخمة إلى سيناء، وصلت إلى نتيجة محتومة، وأبلغت إسرائيل بالأمر، ولكن سرعان ما جاءتني أوامر المسؤولين بالابتعاد كلياً عن هذه الأمور.

تسع سنوات مرت منذ أن أنذرت الوسيط الإسرائيلي بأنه سيأتي يوم يتهدد فيه إسرائيل جيش مصري مدرب ومسلح، ولكن طيلة السنوات التسع هذه كان ضباط الجيش المصري يغرقون في مستنقع عفن، وبنفس الوقت أرسلوا الجيش لإغراقه في رمال اليمن.

إن ثلاثاً من بين أربع فرق للمشاة، وأكثر من نصف القوات المصفحة المصرية موجودة الآن في اليمن، ووصلت إلى نتيجة حاسمة وهي أنه حان الوقت لمغادرة مصر كما أن جهاز الإرسال متعطل عن العمل منذ عدة شهور، ففككت أجزاءه وأخفيتها واحداً واحداً وواصلت الاتصالات عن طريق وكيل أعمالي في سويسرا. وكانت جميع المعلومات التي أرسلها عن طريق وكيلي تتأخر بضعة أيام وبذلك تضيع أهميتها وتنتشر على العالم من مصادر أخرى.

وهكذا فإن مهمتي وصلت إلى نهايتها، ويتوجب علي الآن أن أقوم بالانسحاب المنتظم، وأنهي أي ارتباط يمكن أن يكشف عن وجود جاسوس إسرائيلي طوال عشر سنوات كاملة في قلب مصر وبين زعاماتها بالضبط. يجب أن أختفي من هنا، ثم أنزل في فندق سويسري أو فرنسي، ومن جديد أعدم آرام انوير.

كنت أعرف أن المسؤولين عني سيعارضون انتهاء مهمتي في مصر رغم أن الظروف كلها أوصلتها إلى نهاية فعلية. ولكني جهزت نفسي للرد عليهم والدخول معهم في معركة عنيفة، ولكن ما أن وصلت ميدان المعركة حتى أدركت بأنني خسرت المعركة قبل أن أدخلها.

إن الرجل الذي جاء لمقابلتي بعد وصولي إلى إسرائيل، لم يكن مدير الاستخبارات العسكرية الذي كنت أتوقع مقابلته، وإنما قابلني الجندي رقم (١) في إسرائيل وقد وجدته ينتظرني بمفرده في المكان المخصص للمقابلة. وعلى باب الدخول كانت يافطة عليها اسم مشهور وحينما قرعت الجرس فتحت الباب امرأة (برتبة ضابط) جميلة وقالت لي:

إنه ينتظرك في غرفة الضيوف.

حتى هذا الوقت كنت لا أزال أتوقع أن مقابلتي مع مدير الاستخبارات العسكرية، ولكن ما أن دخلت الغرفة حتى رأيت رجلاً آخر ينهض عن مقعده، رجلاً يختلف عن الزعيم مدير الاستخبارات الأسمر.

دخلنا المعركة، هو يريدني أن أبقى في مصر وأنا مصمم على مغادرتها، وخسرت المعركة. كان هذا الرجل بذكاء فيشل وأكثر. ولكنه لم يكن مثل فيشل يعتمد الخداع والتحايل، كان صادقاً في كل شيء. شعرت وأنا أمامه أنني أفاوض مدير أعمال حول صفقة تجارية.

وكان وطيد العزم لا يرضخ، عنيداً متمسكاً بالهدف.

إنني أعرف أنني استطعت أن أتكلم بلغة فيشل، إذ كنت أتحدث بلغة السفراء وتجار الأسلحة مع نساء الطبقة الراقية، ونجحت في الامتحان عندما وقفت أمام السفاح المصري، والضباط الألمان الذين كانوا يعملون لحساب مصر للقضاء على أسرار أجسادهن وعلى أسرار أسيادهن ولكني اليوم أواجه خصماً فاقني ليس في الخداع أو التحايل وإنما بالثبات والعزيمة.

إن هذا الجندي الأول في بلادي، كان مريضاً بمرض عسكري قديم، الطاعة التامة للأوامر وتنفيذها لتحقيق النصر.

قال لي بعد أن قام ومد يده مصافحاً: شالوم يا سيد رفاعي، لقد طلبت مواجهة أكبر ضابط يوافق على التحدث معك. ولدينا متسع من الوقت، ولا أحد يعلم بوجودي هنا سوى سكرتيرتي الخاصة.

قلت: والحارس الذي يقف في الخارج، ويرتدي لباس عامل بستان؟

قال: صحيح، ولكن أحداً لن يزعجنا، كما أن هذا المكان مناسب جداً لك.

كنت قد جهزت خطاباً طويلاً، أعددته بإمعان ودقة لألقيه هنا ولكني الآن نسيت معظمه، وما بقي منه تجمد على لساني. وإن هذا الرجل لم يتحدث منها سوى عن صلب الموضوع، لذلك شعرت أن خطابي لم يعد له قيمة فقلت ببساطة:

أحب أن اترك مصر. لا أدري إذا كانت هذه الجملة قد أثارت الرجل أم لا، ولكن ظهرت على وجهه تعابير الفهم الصادق وليس المصطنع، ثم قال:

(واضح).

وهـز رأسـه إيجابـاً. غـير أن موافقـتـه السـريعـة لم تخـدعـني، فبـدأت بشرح الأسـبـاب، ولكـن صـوتي الـذي كـنـت أعـتـمـد أن أجـعـل منـه صـوتاً شـديداً خـرج من فـمـي كـصـوت الاعـتـذار. فـأنا موجـود هـنـاك مـنـذ عـشـر سـنـوات، وأعـرف الآن بأنـني أنهـيـت مـهـمـتي. تبـاً لي، لم أكـن في الواقـع أريـد أن أقـول ذلـك، ولكـن وجـود هـذا الـرجـل وإنصـاتـه المركـز، كـان يضـايقـني، صـحـيـح أنـني اعـتـدت أن أجـادل الخـصـوم، وأمضـيـت سـنـوات طويلة بين الأعـداء كـنـت مـضـطـراً لأن أخـدعـهـم في كـل حـركـة وفي كـل تـعـبـير على الوجـه وبكل كـلـمـة أقـولـهـا. ولكـني لم أتحـدث مـطـلـقـاً مـع رجـل كـان عـلـى اسـتـعـداد لـيـنـصـت بـاهـتـمـام وتـركـيـز لكل كـلـمـة أنطـق بهـا، يـتـقـبـل سـخـريـتي كـحـقيقـة مـسـلـم بهـا.

وكـلـمـا كـنـت أسـتـمـر في الـكـلام، كـانـت نـظـراتـه تـبـدو مـركـزة أكـثـر. حـاولـت أن أغـير لـهـجـتي، أن أثـيـره، أدفـعـه للجـدال، للمـنـاقـشـة لأبـدي مـعـارضـتي الشـديد في الرجـوع إلى مـصـر فـقـلـت:

أفهم أنه لا يعنيكم الأمر بشيء أن تبقوني في مصر حتى سن الإحالة على التقاعد، فأنا لا أكـلـفـكـم فـلـسـاً واحـداً، بـل ربمـا لا أسـاوي فـلـسـاً واحـداً وعلى أي حـال فـإنـني أشـعـر حـتى الـيـوم أنكم لا تثقون بالمعلومات التي أزودكم بها من هناك.

قـال: أعـتـقـد أن عـمـلـك هـنـاك يـسـاوي في قـيـمـتـه لـنـا مـا يـسـويـه لـواء مـصـفـح، ثم سـكـت، وطال سكوته فاضطررت لأن أقول:

في سـنـة ١٩٥٦ قـدمـت لـكـم تـفـاصـيـل وافـيـة عـن تـوزيـع الـقـوات المـصـريـة في سـيـنـاء ولـكـن واحـداً هناك لم يثق بذلك ويأخذه كـحـقيقة، كـذلك حـشـدت يوم ٢ نوفمبر ١٩٥٦ أي بعـد يوم واحـد مـن الـعـدوان الـثـلاثي جمـيـع قـاذفـات الـقـنـابـل المصرية الثقيلة في مطار الأقـصـر، وأبلغـتـكـم بـذلـك، فـلـم تـفـعـلـوا شـيـئـاً. وفي سـنـة ١٩٥٨ أبلغـتـكـم أن المشاريع المصرية الجـديـدة لإنتـاج الصـواريخ والطـائـرات المقاتلـة الـتي تـفـوق سـرعـة الصـوت تمر كـلـهـا من تحت يـدي. ومـا لا يمـر مـن تحـت يـدي يمـر عـبر فـراشـي. وكـل مـا أسـتـطـيـع أن أحـصـل عـلـيـه مـن الـعـلـمـاء الألمان أنفسهم، كـنـت أحـصـل عـلـيـه لـيـلاً في فـراشـي مـن سـكـرتـيراتـهـم. وقـلـت لـكـم أنـه حـيـنـمـا تـصـل تـلـك المشاريع إلى مـرحـلـة نهـائـيـة خـطـيرة، سـأبلـغـكـم بـذلـك. وحـيـنـمـا بـدأ الـعـلـمـاء الألمـان بـإنـشـاء مـديـنـة الصـواريخ ومـشـاريع الطـائـرات أبلغـتـكـم بالتفـصـيـل أن ذلـك كـلـه لـيـس سـوى بـدع زائـفـة تمـتـص مـبـالـغ طـائـلـة مـن المـال وجـهـوداً لا حـد لـهـا. وقـلـت لـكـم يـومـهـا بـصـراحـة انـه من واجـبـنـا أن نـؤيـد هـذه المعلومـات بصـورة غـير مبـاشـرة، لأن مصـر لا تسـتطيع أن تقـوم بعـمـل آخـر وطالمـا أن حكامهـا

مشغولين بهذا العمل (صناعة الصواريخ والطائرات) لن يستطيعوا أن يبنوا في بلادهم صناعة عسكرية حقيقية.

ونظرت إليه، فشعرت مرة أخرى، أن كل ما قلته كان بلا فائدة. ولكنه بدأ حديثه بصوت منخفض حتى كدت أقوم وأنحني عند رأسه لأسمع الكلام بوضوح، وهو يقول:

- لا أدري إذا كان ما قلته يشجعك على مغادرة مصر، لكننا في القيادة كنا نؤيد المعلومات التي ترسلها، بينما كبار المسؤولين كانت نظرتهم إلى ذلك غير نظرتنا نحن.

قلت: ولذلك شنوا الحرب ضد العلماء الألمان عندما ظهر بالضبط أن جميع مشاريع صناعة الصواريخ والطائرات المقاتلة ما هي إلا خرافات جوفاء. وفي سنة ١٩٦١ في نهاية العام، جئت إلى هنا وأبلغتكم بإبعاد العالم (زيجنر) مدير مصنع (الثلاثات) وهو الاسم الذي كان يطلقه أصدقائي المصريين على مصنع (٣٣٣) الذي كان يسعى فيه (زيجنر) إلى إنتاج صواريخ موجهة. ويومها قلت أنه قبل سنة ١٩٧٠ لن تكون لدى مصر صواريخ موجهة من إنتاج مصانع (هليوبوليس)، وفي شهر شباط سنة ١٩٦٢ أبلغتكم بفصل العمال والموظفين الجماعي من مصنع (٣٦) مصنع الطائرات النفاثة التي تفوق سرعتها سرعة الصوت. وقلت لكم عن مصنع المحركات النفاثة المصنع رقم (١٣٥) الواقع جنوب القاهرة إنه يمثل ذروة جنون عبدالناصر. كان في هذا المصنع مهندسون، يتسلمون رواتب ضخمة يمكن بواسطتها بناء قرى كاملة، وبعد سنتين من العمل في المصنع، اضطرت مصر لشراء المحركات من الخارج لتقوم بالتجارب الأولى للنموذج الأول من الطائرة النفاثة.

وهنا تذكرت أنه في كرنفال الربيع (عيد شم النسيم) في فندق هيلتون بالقاهرة الذي أنشئ حديثاً وأعتقد أن ذلك كان في سنة ١٩٦١، اشتركت جميع الجالية الألمانية في حفلة صاخبة هناك وقدم الجميع من ضواحي هليوبوليس والمعادي بالسيارات الفارهة مع سكرتيراتهم الشقراوات. وكان الفندق الذي أقيم على أرض فسيحة بالقرب من ميدان الحرية يزدان بمظاهر العيد الجميل. وقد أتم الرائد (البغدادي) بصفته مسؤولاً عن تخطيط القاهرة شق شارع خاص يؤدي من الشمال إلى الفندق.

أما سكان القاهرة، الذين كان يزداد عددهم بنحو ربع مليون في كل سنة، سكان القاهرة الذين كانوا يسكنون في أكواخ من اللبن والطين، في الأحياء الفقيرة (باب الشعرية)

و(الموسكي) و(بولاق) و(عابدين) فكانوا ينظرون إلى قافلة السيارات الطويلة وهي تسير على الطريق الجديد إلى الفندق الرائع، وبداخل تلك السيارات كان يجلس الرجال الذين يدعون بانهم سيصنعون لفلاحي النيل وفقراء القاهرة صواريخ موجهة. ولكن اليوم فإن جميع العلماء والمهندسين منصرفين إلى الرحلات والنزهات والصيد في مياه البحر الأحمر والاستحمام في النادي الرياضي الكبير الذي أقيم في (هليوبولس) ويتمتعون بالحفلات الخلاعية الماجنة مع السكرتيرات. ولم أستطع إلا ان أشكرهم جداً على الطرق التي يختارون فيها سكرتيراتهم. ويومئذ عرفت أن إتقان العمل ونجاحه لم يؤخذ له اعتبار عند اختيار هؤلاء السكرتيرات. وفي إحدى المرات في السابق قلت للعالم (ولفجانج بيلتس) وهو خبير في توجيه الصواريخ وعمل في مصنع الصواريخ النازي (في-٢) يوم كنت أتناول الطعام معه في فندق (شبرد) في القاهرة - قلت له:

- إن مصانع (٣٦-١٣٥-٣٣٣) بحاجة كما يبدو من اجل التقدم في العمل، إلى سكرتيرات مقاساتهن (٩٠-٦٠-٩٠) ملاحظة (٩٠-٦٠-٩٠) هي أرقام القياسات بالنسبة لملكات الجمال.

وفي ذاك اليوم ضحك بيلتس كثيراً حتى سعل، أما سكرتيرته التي كانت قياساتها تشبه تلك الأرقام فقد ألقت نظرة على جسدها الذي كانت تبرز مفاتنه من تحت الفستان، نظرة شك، فضحكت وقلت لها:

- يا فاندا، إنك تلائمين جداً مصنع صواريخ موجهة، فجميع الشروط اللازمة متوفرة فيك.

ويومها غضبت (فاندا) مني وظلت مدة طويلة تقاوم رغباتي. وبعد ذلك بحوالي السنة، في أواخر سنة ١٩٦٢ انفجرت رسالة ملفوفة بين يديها فقضت على معالم الجمال في وجهها وصدرها وساقيها بينما كانت الرسالة الملفوفة موجهة إلى بيلتس نفسه.

قلت له هامساً:

- هل تعلم انني هددت بمغادرة مصر في شباط سنة ١٩٦٣ ذلك لأن مقاومتكم للعلماء الألمان في مصر كنت أعتبرها ان واحداً منكم لا يؤمن بالمعلومات التي أزودكم بها. قلت لكم أن صواريخ عبدالناصر، الصواريخ التي حملت أسماء كبيرة مثل (القاهر والظافر) لا يمكن أن تصيب حتى دائرة قطرها مئة كيلومتر. ومع ذلك قمتم بمحاولة لاغتيال العالم

(كلانيفاختر) الذي جهد طوال ثلاثة سنوات لبناء أجهزة التوجيه والمراقبة لتلك الصواريخ ولذا يجب عليكم أن تقدموا له هدية وليس محاولة اغتيال.

قال:

- إذا كان كل جندي يستطيع أن يقرر متى يترك الموقع الذي يرابط فيه فلا حاجة بالمرة للعدو.

يجب علينا في حديثنا هنا أن نفصل استعمال بعض الكلمات، إن الجندي لا يستطيع أن يهدد، ولا يحق له التصرف، بل من الأفضل له أن يتظاهر بأنه لا يعرف شيئاً في مجال الاعتبارات السياسية.

فبذلك تسهل عليه مهمته، ربما كانت مقاومتنا للعلماء الألمان غلطة كبرى. ولكن ربما انقذتنا من كوارث كبيرة أيضاً. إن هناك مسؤولاً أكبر مني ومنك، هو المخول في اتخاذ القرارات بهذا الشأن.

قلت: ولكن لا يزال من حقك انت أيضاً أن تقول أيها السادة هذا العمل ملائم أو غير ملائم. واليوم وبعد عشر سنوات من العمل الشاق المضني أرجو إعفائي من العودة إلى مصر.

تنفست الصعداء، وكان حملاً ثقيلاً قد سقط عن ظهري، ورأيت الرجل ينهض ويقترب من الباب ويفتحه ويقول للضابطة التي وقفت هناك:

- قدمي للضيف القهوة وشيئاً من الطعام وكذلك لي.

ثم عاد إلى مكانه، وتذكرت أنني نسيت شيئاً فقلت: لقد مر على وجودي في العمل أربعة قادة للجيش الإسرائيلي، وأربعة مدراء للاستخبارات العسكرية، وفي عهد كل منهم كان يعلم بوجودي وعملي في مصر عدد كبير من المسؤولين وهذا يعرضني للخطر.

قال: - إن هذه المشكلة لا أستطيع أن أحلها.

قلت: - على أي حال، فإن الجيش المصري سيظل عاجزاً عن العمل عدة سنوات، إن حوالي ثلاثة أرباعه موجودين في اليمن يتلقون الضربات الجسمانية والنفسانية ويفقد

الجنود هناك صفاتهم كجنود مقاتلين. وبذلك فإن مصر لا تشكل علينا أي خطر في السنوات القريبة، فلماذا أبقى هناك؟

يبدو أنني بدأت أتحول تدريجياً إلى عضو مخلص في الزعامة المصرية.. نساء، وأموال، ومجون. ومن ناحية أخرى فإن جهاز الإرسال عندي متعطل عن العمل، هو الآن يشعر بعدم الحاجة إليه هناك.

وهنا دخلت الضابطة تحمل القهوة وبعض الأطعمة، وأزحت وجهي إلى ناحية أخرى لئلا تعرفني أو أعرفها. وقلت:

- إن الزعامة المصرية الآن غارقة في الفساد ومنقسمة على نفسها، فالمشير عامر، ووزير الدفاع شمس الدين بدران، وصلاح نصر مدير الاستخبارات العسكرية، واللواء عبدالله هلال، ووزير الداخلية وعباس رضوان وصديقي صدقي محمود قائد سلاح الجو كل هؤلاء ومعهم الكثيرون يشكلون مجموعة متحدة جداً تسعى إلى دفع المشير إلى الأمام والصعود معه. أما قائد القوات المسلحة محمود فوزي، وعدد من كبار الضباط الذين لهم ماضي عسكري كبير مثل سعد الدين متولي وعبدالمنعم رياض واللواء شاذلي وصديقي اللواء ابو العز من سلاح الجو بتأييد من علي صبري مساعد الرئيس يقاومون مجموعة المشير عبدالحكيم عامر.

قلت لكم أن اثنين من كل ثلاثة ممن يتخرجون من دورات الطيران النفاثة في روسيا يبعدون عن أي منصب في سلاح الجو بسبب ميولهم اليسارية ويبعدون إلى قواعد نائية ليست فيها بالمرة طائرات نفاثة وبعد نصف سنة يفقدون كل ما تعلموه في تلك الدورات في روسيا. ولهذا السبب هرب إليكم الطيار محمد حلمي.

ثم في الأسابيع الأخيرة جرت عدة محاولات لاغتيال الرئيس.

والاقتصاد المصري على وشك الانهيار بسبب أعباء حرب اليمن. فالموازنة الحربية البالغة ٤٠ مليون دولار تحرم القطاع الاقتصادي من موازنته.

وهكذا شعرت أنني أبالغ في رسم الصورة عن مصر لأجعل هذا الرجل يوافق على عدم عودتي.

قال:

- في قيادة الجيش الألماني أقام ضابط إنجليزي، وكان قد زرع في القيادة فور انتهاء الحرب العالمية الأولى وظل في القيادة مدة ١٣ سنة حتى تسلم هتلر الحكم.

أصابتني القشعريرة، وادركت أنني هزمت أمام هذا الرجل، أدركت أنني سأعود اليوم إلى تركيا فمصر وأنا أحمل في حقيبتي جهازاً لاسلكياً جديداً بدل الجهاز المتعطل.

وقال لي الجندي الأول في إسرائيل:

- سنحتاجك في يوم من الأيام ولو لمدة ساعة واحدة فقط. ولكن تلك الساعة ستكون هامة. فعليك ان تنتظرها. ثم قال لي شيئاً آخر:

ابحث لك عن هواية تشغل وقت فراغك الطويل فأنا مثلاً هوايتي التصوير.

قلت: شكراً لهذه النصيحة مع انني سمعتها قبل إحدى عشر سنة من الإنسان الذي زرعني في مصر، ومن الإنسان الوحيد الذي أحببته واحترمته، وانا أنفذ تلك النصيحة منذ عدة سنوات، وأمارسها في مصر.

واخيراً نهضت واحسست بأن ظهري يؤلمني من الجلوس المستمر.. إذ لم أعد شاباً ولا ادري كم من الوقت سأمضي في مصر من جديد. ولكني أعرف أن الجاسوس الإنجليزي قد اقام في قيادة الجيش الألماني مدة خمسة وعشرين سنة، وكان كل عمله يقتصر على إرسال معلومات بسيطة، وإغراء هتلر سنة ١٩٤٥ على أن يرسل إلى الجبهة الغربية فرقة عسكرية حديثة ليست لها خبرة عسكرية، وبذلك انهزم هتلر.

أضخم أسطول جوي في الشرق الأوسط

٣٠ تشرين أول ١٩٦٦

■ في ٣٠ تشرين أول سنة ١٩٣٢ قام ثلاثة أخوة يلبسون الطرابيش الجميلة والبدلات الأنيقة بإجراء أول رحلة طيران تجريبية بطائرة تدريب عسكرية. وبعد مدة أعلن عن هذا اليوم بأنه يوم تأسيس سلاح الجو المصري. واليوم وبعد مرور أربع وثلاثون سنة احتفلنا بذكرى ذلك اليوم وأقمنا حفلة ضخمة.وقد احتفل بعيد سلاح الجو في جميع المدن المصرية، وحتى سكان أكواخ اللبن أتيحت لهم فرصة مشاهدة التمارين الجوية التي قام بها سلاح الجو على طول نهر النيل من الإسكندرية حتى أسوان. والواقع أنه كان لسلاح الجو ما يفاخر به.. فبعد سنوات طويلة من التقدم أصبح لنا ما نستعرضه، وحينما أقول لنا) أقصد مصر، ذلك لأنه بعد عودتي من إسرائيل قبل سنة إلى مصر استدعاني محيي الدين إلى مكتبه، وعينني عميلاً سرياً له في سلاح الجو المصري. ومع أن هذا التعيين لم يكن رسمياً بالطبع إلا أنه منحني، لأول مرة، صلاحية فعلية لأقوم بما كنت أقوم به طوال عشر سنوات بدون صلاحية وهو التجسس على كل ما يجري في السلاح. وأثناء الحديث الذي دار بيننا في مكتبه، تسرب إلى قلبي مرة أخرى التفكير الذي كان يقلقني دائماً منذ وجودي في مصر وهو أنني أقوم بأكبر عملية خداع وتضليل. ولكن بعد أن صدرت إلي التعليمات بالتجول في جميع منشآت سلاح الجو المصري، زالت مخاوفي ولكن توجب علي الآن أن العب لعبة مزدوجة وثلاثية، وهي ان أتجسس على صدقي محمود وهو بنفس الوقت صديقي، وأطلع محيي

الديـن عـلى مـا يجري في سلاح الجو. ولكن ليس كل ما يجري، وأخيراً علي أن أؤدي المهمة التي مـن أجلهـا أرسـلت إلى هـنـا وهـي أن أنقـل إلى المسـؤولين عـنـي في إسـرائيل، بواسـطة الاتصـال اللاسلكي والرسائل، معلومات عن سلاح الجو والجيش المصري.

هذا وقد وقع لي حادث بعد زيارتي لإسرائيل قبل سنة. ويبدو أنني تأثرت جداً بشعور البقاء في مصر إلى الأبد، حتى يأتي يوم لا أعود أسير فيه على أعصابي، فاستدعي إلى إسرائيل لـئلا يفتضـح أمـري. وعـنـدها مـاذا سيكون مصيري في إسـرائيل. تخيلت أحـيانـاً بأنـه حيـنما تصدر إلي الأوامر للعودة، سارفضها، فمنذ عودتي إسرائيل تخليت عن التظاهر بأنني إنسان لا يرتـبط بـأحد. وإنمـا التصـقت بمصر كفريقين يتمسك أحدهما بالآخر، وكل منهما يمنع صاحبه مـن الـنجاة. فطالما أنـا موجـود هـنـا لـيس لـي مستقبل ولا ماض، ولكن بنفس الوقت لـيس للجيش المصـري أي احتمال ولا لسلاح الجو في أن يقررا مصير الشرق الأوسط، مثلما تنبأ فيشل قبل سنوات.

كذلك فقد وقع حادث لسلاح الجو والجيش المصري في السنة الماضية تماماً مثلما تنبأ الجـندي الأول في إسـرائيل قـبل بضعة شهور فقط. فقد خرج نظام الحكم المصري من المصائد الـتي ورط نفسـه فـيها وأتاحـت اتفاقـيـة (جـدة) للرئيس بأن يقلل عدد قواته المسلحة في اليمن وبـذلـك أطفـأ الـنـار الـتي ظلت تلتهم الكتائب والألوية والفرق عدة سنوات. وأصبح لديه الوقت الآن لـيوجه الجهود لتعزيز الجيش. وتـنفست مصر الصعداء، ومع أن ذلك التنفس لم يصل إلى أكـواخ الفلاحـين عـلى نهـر الـنيل إلا أنـه وصل إلى مساكن الضباط وخيام الجنود. وكانت الـقـنـاة المؤممـة تـدر مـبالغ كـبيرة مـن المـال. وتقدمـت الشـقيقة الكبرى (المقصـود الاتحـاد السوفياتي) بمسـاعدات عسـكرية ضخمة، وأصـبح باستطاعتنا هذا العام أن نفاخر بميزانية عسكرية قوامهـا (نصـف مليـار دولار). وتخيلت أن الجيش المصري سينمو وينمو، ففي كل عـام كـانـت تنضـم إلـيه فـرقـة مشـاة جديـدة بالإضـافة إلى لـواء مصـفح كامل. ولكن النمو أصـاب أكـثـر مـن غـيره السـلاح الـذي يرأسـه صـدقـي محمـود الـذي أصبح الأب الفخور في بلاد الـنيل. فاسـتبدلت الطـائرات القديمة بطـائرات الميج الحديـثة، وملأت المطارات طائرات الإليوشن الـثقـيلة، وطـائـرات الـنقل الـتي بوسـعها نقـل سـرايا كاملـة مـن الجـنود مع جميع تجهيزاتهم، كـل هـذه كانـت تـرابط في مطـاري الماظة والقاهـرة غـرب.وبلـغ سلاح الجو ذروته بوصول طلـيعة الطـائـرات القاذفـة البعيدة المدى من طراز (طوبوليف) وهي طـائرات ضخمة تستطيع

حمل عشرة أطنان من القنابل والمتفجرات إلى مسافة ٢٠٠ كيلومتر. ونزلت هذه الطائرات في مطار القاهرة غرب، ترتفع عن أرض المطار بمعدل طابقين وتظهر الطائرات الأخرى إلى جانبها كأقزام. وحينما رأيت آلات الدمار المرعبة تلك، ومجرد النظر إليه يلقي الرعب في الإنسان، رأيت أن من واجبي أن أجد الوقت المناسب أتسلل إليها وأدمرها، ولكن سرعان ما أبعدت عن فكري هذه الخاطرة المعتوهة. إذ أن مهمتي ستكون، في يوم من الأيام، هي أن أعرض جميع طائرات سلاح الجو المصري بعوراتها بدون غطاء تماماً مثل النساء العاريات إذا جاز استخدام هذه المقارنة المألوفة عند صدقي محمود والبقية يقوم بها غيري.

قبل أسبوعين تسلمت رسالة من عميل المخابرات الإسرائيلية في سويسرا وهو وكيل أعمالي (زيجفريدلاها) ويقول في رسالته تلك أنه في ضوء التغييرات في صناعة الفولاذ في العالم فإنه يقترح علي أن أستبدل جميع أسهم الفولاذ العائدة لي بأسهم في مصانع المواد البلاستكية. وأبلغني كذلك أنه نفذ جزءاً من اقتراحه وخلال تلك المدة القصيرة ازدادت قيمة أسهمي المستثمرة في المصانع البلاستيكية. واقترح علي أيضاً أن أنسحب من المساهمة في شركات الملاحة، لأن هذا المجال على وشك الانهيار بسبب التطور السريع في النقل الجوي.

ابتسمت وأنا أقرأ رسالته. فإلى جانب مهمتي الرئيسية كجاسوس سري للمخابرات الإسرائيلية كان (لاها) يعتقد بجد بأنني رجل أعمال في البورصة الدولية. كان يؤمن بسذاجة بأنه يهمني فعلاً أن ترتفع أو تنخفض قيمة اسهمي. فجميع أموالي الموجودة في سويسرا ليست سوى حجة، ذريعة، تغطية لعملي الحقيقي، ولكن يبدو أن الله يعطي خيراته لأولئك الذين لا يردونها.

اذكر انه خلال وجودي في إسرائيل إلى جانب صديقتي (نعومي) كنت اناقشها طويلاً، حول المشتريات الضرورية التي لابد أن نشتريها بالمبلغ البسيط الذي نستطيع توفيره في نهاية كل عام فقد كنا نعشق الصور والكتب والاسطوانات ونجلس عند المساء في غرفتنا الصغيرة نربي أطفالنا ويومها كنا فقراء، نحسب الحساب لكل مبلغ زهيد. أما اليوم فأنا من أكبر الأثرياء، والأمر الوحيد الذي لا أزال أتوق إليه في خفايا قلبي ولكني أخفيه عن نفسي حتى لا يغريني هو الأمر الوحيد المحظور حظراً باتاً وأعني بذلك الحب الحقيقي.

والواقع أن وظيفتي، عملي الرئيسي، أي مهمتي السرية هنا، تحرمني بل تمنعني منعاً باتاً من الحب الحقيقي، ولكنها تسمح لي بأن أعوض ذلك بطريقة ثانية، إذ إن كل سيدة وكل فتاة في مصر ترى أنه شرف عظيم لها أن تمضي ليلة واحدة في فراشي.

أنا اليوم غني، ومن الشخصيات القليلة في مصر التي لا يتوجب عليها أن تخفي ثروتها عن العين، كنت مشهوراً ومعروفاً وليست من امرأة تستطيع مقاومتي ورفض مطلبي وكنت في مركز قوة، وأمام القوة تطاطئ راسها أعز امرأة.

وبعد أن أنهيت مطالعة الرسالة التي وردتني من (زيجفريدلاها) نزعت عنها طابع البريد. وتحت الطابع كانت النقطة الصغيرة السوداء بحكم رأس الذبابة، وصورت تلك النقطة وكبرتها حتى اصبحت بحجم صفحة في دفتر تلميذ. وعليها رأيت الأرقام واضحة. كان الرقم الأول يدل على الرقم الذي يجب علي أن أستخدمه لمرة واحدة ليتعذر على الآخرين حله ومعرفة فحوى الاتصالات اللاسلكية أو الرسائل إذا تكررت بنفس الرمز الأول.

حولت الأرقام إلى حروف، وجمعتها في كلمات وكانت: من المسؤول إلى روما. أرسل معلومات عن التوزيعات لسلاح الجو، واذكر بدقة تاريخها. ماذا تعرف عن صواريخ (لونا-١).

أبلغت (زيجفريدلاها) في رسالة جوابية بأنني أوافق على مقترحاته بخصوص أسهمي، ولكني طلبت منه أن لا يبيع جميع أسهمي في شركة الملاحة. وأدخلت الرسالة إلى مغلف، وتحت طابع البريد وضعت نقطة سوداء بحجم رأس الذبابة وكانت بهذا المعنى:

(إلى المسؤول من روما - وصلتنا أكثر من ١٢ طائرة من طراز طوبوليف ١٦ وهي موجودة في مطار القاهرة غرب، طائرات اليوشن ٢٨ موجودة في أبو صوير والأقصر وعددها معاً ١٦ طائرة. ستصلنا طائرات ميغ ٢١ أخرى وعددها حالياً حوالي ٥٠ طائرة منها سرب في مطار القاهرة غرب وسرب في مطار انشاص وسرب في أبو صوير وسرب في فايد. لدينا طائرات ميغ ٩ وعددها حوالي ٣٠ طائرة، لن نحصل على أكثر من ذلك وهي موزعة في مطاري (فايد وبير كفكفكا). لدينا حوالي ١٠٠ طائرة من طراز ميغ ١٥ وميغ ١٧ ولكنها ستخرج من الخدمة تدريجياً، وهي موزعة كالتالي: أسراب في مطار كبريت وسرب واحد في العريش الخ...، ولما وصلت عند نهاية الرسالة السرية وذكرت عبارة (سربان من طائرات مسوكي

ميل ٦ وميل ٤ في الماظة) نظرت إلى الورقة وادركت انه حدث امر كبير في بلاد النيل منذ زيارتي الأخيرة لإسرائيل قبل حوالي عام. وكذلك اضفت إلى الرسالة جملة أخرى قلت فيها:

(يقولون أنه بعد سنة سنحصل على صواريخ (لونا-١) ذات مدى ٨٠ كلم).

ربما كانت هذه الجملة الأخيرة تنطوي على تهديد خفي أكثر من بقية الرسالة الطويلة.

كان يجلس على المنصة جميع أصدقائي، مثقلون بالرتب العالية والأوسمة وبينهم قائد سلاح الجو المصري الذي كان وجهه يدل على أنه رجل حربي. وجمال الدين محمود عفيفي الذي كان يحمل رتبة فريق، وصديقي دغيري ولبيب، وكانا يفاخران برتبة (أمير لواء) بعد أن رفعا إليه منذ مدة قصيرة.

وعلى نفس المنصة كان يجلس خصوم صديقي محمود في السلاح وهم العقيد مدكور أبو العز والفريق مصطفى الحفناوي وكان الاثنان قد أبعدا عن المراكز الحساسة، فأبو العز كان في قاعدة أسوان ولقبه كان قائد القطاع المسؤول عن مطارات الأقصر، الغردقة، أسوان، ورأس بيناس. ولم تمض سنة واحدة فقط على جلوسهم على تلك المنصة حتى جلس معظمهم في السجن العسكري المركزي، ومعهم قائد السجون نفسه أما أبو العز فقد أقيل من سلاح الجو ليحل محله (الحفناوي).

ولكن لماذا استبق الحوادث، وعلي أن أعود إلى ذلك اليوم والجميع جلوس فوق المنصة، يومها قوبل صدقي محمود بعاصفة طويلة من التصفيق حينما قال: (لدينا أكبر قوة جوية ضاربة في الشرق الأوسط)، فإن القاذفات الحديثة التي نملكها وهي مزودة بالصواريخ، وكذلك الطائرات المقاتلة التي تفوق سرعتها سرعة الصوت تستطيع أن تدمر المطارات الإسرائيلية بجميع الطائرات الموجودة فيها خلال ساعتين فقط. إننا لا نخشى صواريخ الهوك الموجودة في إسرائيل ولا شبكات الرادار الموجودة عندها. فإن طائراتنا ستقلع باتجاه المطارات الإسرائيلية على ارتفاع منخفض خارج عن نطاق مقدرة شبكات الرادار، وتحت مدى انطلاق صواريخ الهوك. ولدينا كذلك معدات إلكترونية حديثة تستطيع أن تشوش وتعرقل عمل شبكات الرادار.

وارتفع التصفيق الحاد كقصف الرعد الهادر مدة دقيقتين متواصلتين وأنا أيضاً صفقت تأدباً مع أن تصفيقي لم يكن بحماس، فأنا لست طياراً مصرياً، والرجال حينما يصلون إلى شيء لا يتحمسون لأقل شيء.

جلس صديقي محمود، ووجهه مشرق. وتذكرت في حينه أحد أيام سنة ١٩٥٨، ففي ذلك اليوم كانت الطائرات المصرية تقوم بالتقاط الصور لمختلف الأهداف في النقب واستمرت في عملها ذاك عدة أسابيع ويومها أبلغت إسرائيل بذلك، فكمنت لها طائرات المستير الإسرائيلية وأسقطت اثنتين منها من طراز ميغ، وفي مساء ذلك اليوم ألقى الرئيس في (ميدان الحرية) خطاباً أمام الجماهير المحتشدة قال في بدايته:

(أحب أن أبشركم ببشرى سارة يا إخواني، هذا اليوم اشتبك طيارونا البواسل مع الطيران الإسرائيلي فوق منطقة غزة وأسقطوا طائرتين إسرائيليتين - ودوت هتافات الجماهير في الميدان تشق عنان السماء. وكنت أثناء ذلك أجلس في الشرفة المخصصة لكبار الشخصيات، استغربت مما قاله الرئيس عبدالناصر، وقلت في نفسي هل خدعوه، أم أنه يعرف الحقيقة ولكنه ينكرها؟ تذكرت كذلك الليلة التي غنت فيها أم كلثوم طيلة ست ساعات متواصلة أمام الجماهير التي كانت تحضر حفلتها، وملايين المستمعين والمشاهدين في مختلف أنحاء العالم، وكان الرئيس عبدالناصر نفسه في تلك الحفلة في الصف لأول تحيط به حاشيته من كبار المسؤولين، ربما حضر ليظهر نفسه أمام الناس، ومع ذلك رأيت أنه خلال الحفلة انجرف هو الآخر وراء سحر الموسيقى والكلمات وفقد تدريجياً الشعور بالمكان والزمان.

هل هذه الأمة غارقة في أحلامها وخيالاتها؟

هل كان الرئيس بالفعل ومعه حاشيته عبارة عن (طبعة جديدة) عن الفلاح المصري الفقير الممدد في كوخه بعد أن اشترى حشيشة الكيف بآخر مبلغ زهيد بحوزته، وراح يدخن وينتقل إلى عالم آخر، عالم الجواري الحور العين اللواتي يكافأ بهن المؤمن على صبره في عالم الدنيا؟

الفريق أول محمد صدقي محمود، من زعماء شبكة تهريب الحشيشة إلى مصر، الرجل الذي يوزع وقته بين الطائرات والنساء ولم ينم في بيته ثلاث ليال متوالية، هذا الرجل هل كان يؤمن حقاً أن باستطاعته أن يدمر، وخلال ساعتين فقط، سلاح جو العدو، أم أن

خطابه كان عبارة عن التظاهر بالقوة فقط؟ وهل باستطاعته ان يفرق بين التظاهر بالشيء والإيمان الحقيقي به؟

انتهت الخطابات، وقام طيارو النفاثات وضيوفهم وفتياتهم إلى تناول الطعام والشراب والرقص. كذلك قمت أنا وانضممت إلى مائدة كبيرة بجانب المنصة الخاصة بقائد السلاح نفسه. ولما التقيت به قلت له: يا صدقي محمود كنت تتحدث من قلوبنا كلنا، إن رجالنا يريدون الآن أن ينفذوا ما وعدتم به، وأنا أنتظر الدعوات المتتالية التي ستوجهونها لي بعد أن تنتصروا.

ضحكنا من قلبينا، فنحن صديقان قديمان، رجلان كبيران، نعرف قيمة المال ولكننا نعرف أن المال وحده لا يلبي كل شيء. فعلاوة على المال والملذات هنا أيضاً الإخلاص لبلادك ولشعبك وللعمل الذي انيط بك، ولشرفك كرجل، ينفذ ما يلقى عليه.

وبعون الله ورحمته تتوفر أيضاً الفتيات الحور العين والدقيقات القوام.

هيا إلى الميدان

١٤ أيار ١٩٦٧

▣ دق جرس التلفون أكثر من مرة فأفقت من نومة الصباح الثقيلة وتلمست الساعة وأدنيته من أذني:

- هلو، قلت بصوت مبحوح.

فجاء، من بعيد، صوت اللواء محمد لبيب رئيس فرع الدفاع الجوي في الجمهورية العربية المتحدة وهو يقول:

- هاي، يا أنور بك، دائماً أنت بالفراش حينما تحدث أمور هامة.

لم أكن أرغب في المزاح في هذه اللحظة، فقبل ثلاثة أيام لزمت الفراش بعد أن شعرت بآلام في جميع أعضائي ولا أزال متوعكاً بعض الشيء. ومع أنني اليوم في سن الرابعة والأربعين وأبدوا كحيوان بري قوي إلا أن المرض أقلقني.

ماذا حدث يا لبيب؟ قلتها بلهفة ثم أضفت:

اي لمعلوماتك فأنا في الفراش لوحدي.

فجاء صوته مقهقهاً وقال:

إن التاريخ سيذكر لك ذلك، ففي اليوم الذي خرج فيه جيش الجمهورية العربية المتحدة لإبادة إسرائيل لزم آرام انوير فراشه، وبدون امراة هذه المرة. تعال يا كسلان لترى كيف نذهب إلى فلسطين.

احتارت الأمور في راسي. هل يمكن أن يكون لبيب سكراناً؟ فما للجيش المصري وفلسطين؟ فالحدود منذ عشر سنوات هادئة، قوات الطوارئ الدولية تفصل بين الطرفين المتخاصمين، بل إن الرئيس نفسه قال: إن حل قضية فلسطين مسألة تحتاج إلى سنوات طويلة.

هل انت سكران يا لبيب؟ قلت وأنا اصحو رويداً رويداً.

كلا، أجاب لبيب، وبصورة جدية. ثم أضاف: ستعقد القيادة العامة اجتماعاً في الساعة الحادية عشر، وأرى ان تحضر الاجتماع، فلابد أنهم سيحتاجون إليك. والآن تحركت الفرقة الثالثة من قاعدة المعادي، وهي تمر بشوارع القاهرة إلى جبهة سيناء رأساً. وهذه المرة ستحل قضية فلسطين إلى الأبد.

وصحوت تماماً. فمهما كان الجنون من وراء ما يجري فإن أمراً واحداً واضحاً أمامي وهو أن لبيب لم يكن يمزح ولم يكن سكراناً كذلك.

كانت صورة الرئيس ترتفع فوق رؤوس الجماهير إلى جانب شعارات مكتوبة بخط جميل تدعو إلى (الثأر — الثأر، وتحرير فلسطين) وأصوات الجماهير الهادرة تصم أذني وسألت نفسي:

ماذا يجري هنا؟ هل هذه مظاهرة للجماهير المتحمسة أم شيء آخر أكثر تنظيماً؟ من الذي أعد آلاف اليافطات والشعارات؟ من الذي طبع في المطابع نداءات الحرب والصقها على اللوحات؟

الموت لليهود. صرح ذلك بجانبي رجل يلبس رداء أبيض ويرفع شعاراً ثم تابع قائلاً:

الجهاد لتحرير فلسطين.

كانت الجماهير تتزاحم في الطرق والشوارع وتملأ ميدان التحرير، وكانوا يسيرون إلى الأمام نحو هدف غير منظور، أفواههم فاغرة والشعارات في أيديهم تبدو كقطع سلاح مشهورة. وتحولت القاهرة إلى مدينة مليئة بالصبيان والفقراء، فقد جاءوا إليها من الأحياء الفقيرة المعتمة مثل باب الشعرية والموسكي.

إن مدينة القاهرة، أكثر مدن العالم ازدحاماً بالسكان، والتي كان عدد سكانها يزداد كل عام بنصف مليون نسمة تبدو الآن وكأنها قد قذفت إلى الشوارع الجميلة على ضفاف النيل فائض سكانها.

طوابير طويلة من المخلوقات، لا نهاية لها غطت الشوارع والميادين التي أنشأها عبداللطيف البغدادي في السنوات الأخيرة. وبصعوبة بالغة استطاع رجال الشرطة أن يفسحوا طريقاً للوحدات العسكرية القادمة. وحينما وصلت سيارات الشحن العسكرية الروسية الصنع وبداخلها الجنود يلوحون ببنادقهم افسحت لها الطريق وتراجعت الجماهير إلى الأرصفة ثم عادت إلى الأمام. وكانت السيارات تتحرك ببطء بين الجماهير المحتشدة الهائجة تشق الطريق شرقاً نحو طريق الإسماعيلية.

لقد علمني فيشل بأن لا أناقش الحقائق. ومع ذلك فلم أستطع أن أصدق ما تراه عيني. ففرقة المشاة الثالثة في جيش الجمهورية العربية المتحدة التي كانت ترابط حتى هذا الوقت في معسكر المعادي على بُعد بضعة كيلومترات جنوبي القاهرة بالقرب من الأحياء الراقية التي كان يقيم فيها أصدقائي العلماء الألمان. هذه الفرقة تتحرك الآن عبر المدينة وأعلام الوحدات ترتفع على السيارات. وكانت القافلة تتحرك باتجاه المنطقة التي تقع فيها مباني السفارات الغربية وحدة وحدة، سيارات النقل الكبيرة، المدافع المجرورة، ودبابات تي ٣٤ تحملها الناقلات الضخمة وسيارات محملة بالجنود يلوحون ببنادقهم ويشيرون إلى رشاشات جورينوف المحمولة على عجلتين وأفواهها إلى السماء. وواصلت الجماهير هتافاتها، وعندها أدركت أن الأمر جد. ثم مرت وحدات الصاعقة المصرية التي يقودها (جلال هريدي)، إلى فلسطين إلى فلسطين، قال أحد الأصوات وتبعت الهتافات والتصفيق الحاد.

وعادت إلى المرور سيارات النقل الروسية المزودة بعجلات يمكن تفريغها وتعبئتها بالهواء حسب ظروف الطريق.

نظرت إلى ساعتي، مرت ساعة على وجودي هنا وأنا أقف كالمشدوه، وبعد عشر دقائق ستعود المحطة الرئيسية في إسرائيل للاتصال بي بعد مرور ثلاثة أيام من الانقطاع فيما بيننا.

غادرت مكاني وتوجهت مسرعاً نحو سيارتي التي كانت تقف في شارع فرعي ولكن تأثير المشهد لم يفارقني. وحاولت أن أفهم ما الذي حدث أثناء مرضي خلال الأيام الثلاثة الماضية. أي حادث وقع بدون أن أدري وقلب جميع خطط الرئيس رأساً على عقب؟

تأخرت عن موعد اتصال اللاسلكي بربع ساعة، ورغم محاولاتي المتعددة للاتصال فلم يأتني أي جواب. كان المتفق بيننا أن لا يطول النداء عن خمس دقائق فقط.

إحدى عشرة سنة عشتها هنا، من أجل هذا اليوم، ثم تأخرت عن الاتصال بسبب انشغالي بالتفرج على المظاهرات المصرية. نعم، لقد علمني فيشل أن لا أناقش الحقائق، وأمامي الآن حقيقة تأخري عن الاتصال اللاسلكي ولا يمكن تصحيح الخطأ. ولكن علي الآن بالإسراع إلى قيادة سلاح الجو المكان الوحيد الذي أستطيع فيه أن أسمع ماذا يجري وماذا سيجري.

بقيت في قيادة سلاح الجو المصري حتى المساء، وأنا أجمع المعلومات بدقة، بالتالي تكونت لي صورة واضحة - الحرب.

وكان اليوم من أيام الصيف الجميلة، تذكرت أنه يصادف اليوم عيد استقلال بلادي. وأنا الآن أنوي أن أتصل بهم لأقلب عيدهم إلى مأتم. وجهزت المادة التي سأمررها إليهم، وحرصت أن أذكر الحقائق المجردة ولكن بدون أن أقلل من أهمية الأمور. وأخيراً توصلت إلى صيغة مرضية كالتالي:

(فرقة المشاة الثالثة تحركت أمس من معسكر المعادي عبر القاهرة باتجاه سيناء (٠) ملحقة بهذه الفرقة قوات مصفحة تي ٣٤ على مستوى لواء وجميع وحدات التموين والصيانة (٠) تعزز القوات في سيناء يستمر لمنع هجوم إسرائيلي على سوريا (٠) الجماهير تتظاهر في الشوارع تطالب بالحرب (٠) الفريق مرتجى هو قائد الجبهة مع إسرائيل والفريق عزت القوات البحرية (٠) أعلنت حالة الطوارئ من الساعة ١٤,٠ يوم أمس (٠) وحدات أخرى تستعد للتحرك إلى سيناء (٠) أطلب تغيير ساعات الاتصال اللاسلكي لتكون في كل يوم الساعة ٨,٣٠ (٠) انتهى).

وابلغتني المحطة الرئيسية أن انتظر، ثم استمعت في الجهاز إلى العبارة التالية:

أعد جميع الجمل بعد الفريق عزت قائد سلاح البحرية.

بعد أربع ساعات من الاتصال، في الساعة الثانية حسب توقيت إسرائيل كان يجري في مدينة بعيدة حادث لم يجلب اهتمام الكثيرين. فعلى منصة عسكرية واسعة تحت الأعلام كان يقف الجندي الأول في إسرائيل، منتصب القامة ينتظر البدء في العرض العسكري السنوي. وإلى جانبه كان يقف منتصباً مثله كبار مساعديه. وإلى جنبهم كان الرئيس المدني في تلك البلاد، وفجاة مرت فوق رؤوسهم طائرة هليوكوبتر وهبطت في المطار القريب، ومنها خرج إنسان وراح يركض نحو المنصة. كان ضابطاً في الجيش، وفي الطريق اعترضه نائب الشرطة العسكرية ليسأله عما به، ولكن الضابط أشار له بيده أن يفتح له الطريق، واستمر راكضاً وصل خلف المنصة، حيث سلم مغلفاً إلى الضابط المرافق للرجل الواقف في منتصف المنصة. وحاول المرافق أن يفتح المغلف، ولكن الضابط همس بأذنه ببضع كلمات، فتقدم هذا الرجل الواقف في منتصف المنصة وقدم له المغلف، ففتحه وأدخله في جيبه، وفي الوقت المناسب قرأه. وعند ذلك قطب حاجبيه، ولكنه حينما تذكر أن الجماهير تقف قبالته عاد إلى حالته الطبيعية، وعاد وأدخل الرسالة إلى جيبه، ثم تقدم من الرجل المدني الواقف على المنصة، وهمس بأذنه ثم عاد إلى مكانه يقف منتصباً كما كان.

وبدأ الاحتفال بعيد الاستقلال.

الإحصاء

حفنة من الاتصالات اللاسلكية وصلت إلى الاستخبارات الإسرائيلية في المدة الواقعة بين يومي ١٩٦٧/٥/١٦ - ١٩٦٧/٥/٢١

١- من روما إلى المسؤول - فرقة المشاة السادسة والسابعة تتحركان غداً إلى سيناء (١) سرب طائرات ميج ١٩ يتحرك اليوم إلى بيز ثمادة: سرب ميج ٢١ يتحرك اليوم إلى بير كفكفا (٠) سيطلبون اليوم من قوات الطوارئ الدولية إخلاء مواقع المراقبة في سيناء (٠) المشير عامر يشرف على تحركات القوات (٠) الجو متوتر جداً (٠) الاتصال غداً في الساعة ١٢,٠٠

٢- من روما إلى المسؤول - سرب ميج ١٧ يتحرك إلى جبل لبنة (٠) يحصلون على طائرات ميج ٢١ إضافية (٠) يحركون قوات مصفحة إلى سيناء بسرعة وخاصة تي ٥٤ وتي٥٥ (٠) قوات مصفحة تقدر بحوالي فرقة تحت قيادة الشاذلي تتحرك إلى رفح لتقوم بأعمال الهجوم (٠) أظهر الشاذلي تفوقاً وبراعة في اليمن (٠) الاتصال غداً في الساعة ١٤,٣٠.

٣- من روما إلى المسؤول - تعزيز القوات في سيناء مستمر وعددها حالياً حوالي ٦٠ ألف (٠) في القاهرة يتزايد الشعور بالنصر (٠) يقول صدقي أنه ستصل طائرات سوخوي ٧ (٠) سرعة هذه الطائرة ١١/٢ ماح ومداها ٢٠٠ كيلومتر ومزودة بمدفعين عيار ٣٠ ملم، ومدفع خلفي بقوة ٢٠ ألف رطل وهي ملائمة جداً للمعارك الجوية (٠) لدينا ٨٠ طائرة ميج ٢١ (٠) و ٣٠ طوبوليف ١٦ موزعة في مطار القاهرة غرب، وبني سويف (٠) الاتصال غداً الساعة ١٠,٢٠.

٤- من روما إلى المسؤول - عدد القوات في سيناء حوالي ٧٠ ألف جندي و٦٠٠ دبابة (٠) يحصلون على طائرات ميل ٦ تحمل ١٢٠ جندياً وتقطع ٣٠٠ كيلومتر في الساعة (٠) يتحدثون عن إغلاق خليج تيران (٠) دورة قادة طائرات ستختصر: وستصل الطائرات قريباً جداً. الاتصال غداً في الساعة ٦,٤٠.. انتهى.

٥- من روما إلى المسؤول - وصلت أكثر من عشر طائرات سوخري ٧ ويجري نقلها إلى مطار فايد (٠) تصل طائرات ميج ٢١ العدد غير معروف وتنتقل إلى مطار أبو صوير (٠) القوات التي يقودها الشاذلي عززت بالسلاح المصفح الثقيل الذي يتحرك من رفح إلى الكواريا مقابل مستعمرة متسبيه ريمون وستقوم بقطع النقب عند اللزوم (٠) قيادة سيناء في مدينة عسكرية تحت الأرض في بحر أبو عديلة - القسيمة والفرقة الثالثة خط ثاني جبل لبنة بير حسنة والفرقة السادسة تتسلم النخل - الكونتيلا (٠) سأطير اليوم مع عامر وصدقي إلى مطار بير كفكفا. الاتصال اليوم الساعة ١٩,٢٠. انتهى.

٦- عامر يقول للطيارين في بير كفكفا: انطلقوا أيها النسور لتحرير فلسطين (٠) يستمر تعزيز القوات في سيناء وقطاع غزة وخاصة الأسلحة المصفحة (٠) يقوم عامر بتجنيد الاحتياط غداً، سيجند أكثر من ١٠٠ ألف جندي (٠) لواءان مصفحان جديدان يستعدان للحركة إلى سيناء (٠) قيادة سيناء في مدينة عسكرية تحت الأرض في بئر كمادة (٠) بالقرب من رفح حقول الغام واسعة تمتد جنوباً حتى الرمال (٠) ويمكن القيام بعملية اختراق على طول الشاطئ حتى اليخ زويد (٠) التحصينات على طول الطريق حتى العريش (٠) مطار جبل لبنة جرى توسيعه، وزيدت تحصينات مواقع جبل لبنة، وتشمل مواقع من الإسمنت المسلح للدبابات (٠) مواقع أبو جيلة حصنت ووسعت. ولدى الفرقة قوات مصفحة كبيرة ومدفعية ١٢٢ ملم الاتصال غداً الساعة ١٣,١٠. انتهى.

٧- عدد القوات في سيناء ٨٠ ألف جندي (٠) اللواءان المصفحان ١٤١,٤٠ يتحركان إلى سيناء إلى خط الدفاع الثاني في بير حمة وبير حسنة (٠).

٨- القوات التي يقودها الشاذلي يستغرق للتموين (٠) يتوقع إغلاق المضايق. الاتصال اليوم الساعة ١٩,١٥. انتهى.

٩- سأطير إلى مطار بير كفكفا مع عبدالناصر وعامر ومحيي الدين علي صبري وبدران وصدقي محمود والمرتجى (٠) الخروج من مطار القاهرة غرب في الساعة ١٠,١٥ بطائرة أنتوفوف يرافقها سرب ميج ٢١ (٠) استمعوا إلي غداً ابتداءً من الساعة ١٩,٠٠

أنهيت الاتصال. ورفعت عيني فوق الجهاز ونظرت إلى جوف القاصة الحديدية المفتوحة. كنت أريد أن تفهم تل أبيب الإشارة الواردة في الاتصال اللاسلكي. وكنت ارجو أن يقرر سلاح الجو الإسرائيلي أن يضحي بعدد من الطيارين والطائرات ليقتل جميع زعماء الدولة والجيش في مصر. وكوني موجوداً بين أولئك الزعماء في طائرة واحدة يجب أن لا يردعهم عن إسقاطها. ولكنهم في إسرائيل لم يفهموا إلا في اليوم التالي ما كنت أتوقعه أنا منذ أن شاهدت الفرقة الثالثة وهي تتحرك إلى سيناء. وهي أن الحرب غير مستبعدة.

مع الرئيس في سيناء

٢٢ أيار

▣ كانت الساعة السابعة مساء وكنت أعرف أن في تل أبيب الآن جهاز لاسلكي ينتظر مخابرة مني. وأمام الجهاز جندي لاسلكي وبالقرب منه نائب لاسلكي أو نائبة للإسراع في تحليل المخابرة التي سأرسلها من هنا. وبعد ذلك تحول المخابرة إلى ضابط لابد وأن يكون هو الآخر في نفس الغرفة عند الجهاز. وأنا واثق بأن ذلك الضابط وصلت إليه تعليمات واضحة لينقل المخابرة إلى الزعيم.. مدير الاستخبارات أو مساعده في حالة انشغاله.. وتصورت الزعيم بخيالي وتمنيت أن يكون بالفعل مشغولاً مع عدد من المدنيين وهم الذين سيتحملون اليوم أو غداً أو خلال أسبوع اتخاذ القرار المصيري.

أولئك المدنيين الذي تنقصهم الخبرة العسكرية، وربما كذلك ينقصهم الإيمان بقوة الحلول العسكرية: عليهم أن يتوصلوا إلى قرار إجماعي قبل أن يمضي أسبوع. وسيعتمدون في اتخاذ ذلك القرار بالدرجة الأولى على ما سيقوله لهم مدير الاستخبارات، وهذا بدوره سيعتمد على المعلومات التي أقدمها له أنا، ولكن كيف أستطيع أن أروي في مخابرة لاسلكية قصيرة ما حدث اليوم في بير كفكفا؟ كيف أستطيع أن أحول ما رأيته اليوم هناك إلى لغة الخطوط والنقاط؟ وقبل هذه المشكلة تقلقني مشكلة أخرى، وهي أسرع بنظري، وهي كيف أستطيع أن أرسل المخابرة حتى لو نجحت في تحويلها إلى نقاط وخطوط؟ فحينما وصلت إلى بداية ضاحية هليوبوليس قادماً من مطار القاهرة غرب رأساً حيث هبطت طائرة

الأنطونوف الضخمة التي عادت بنا من بير كفكفا رأيت لأول مرة سيارتين مغلقتين تصورتهما ملاكين من الملائكة التي تأتي لتقبض روح الإنسان. وفوق كل سيارة منهما كان عمود كبير يرتفع على جهاز لاسلكي. وكان ذلك الجهاز بمثابة رادار خاص. ولكن ليس مهمته اكتشاف أماكن واتجاهات الأجسام وإنما مهمته هي اكتشاف مصادر الإذاعات اللاسلكية.

إذن كانت السيارتان، روسيتين حديثتين تستخدمان لمعرفة وتحديد أماكن أجهزة اللاسلكي ومحطات الراديو. وكل جهاز يعمل يمكن اكتشافه فوراً. بعد أن تدل عليه هوائيات الأجهزة المركبة على السيارتين. وأدركت أن هذين الجهازين سيشيران إلى المنزل الذي يقيم فيه رجل موضع ثقة الزعامة المصرية، والصديق المخلص لمدير المخابرات والتجسس وصديق قادة سلاح الجو والجيش، ألا وهو الشاب الماجن آرام أنوير.

وحينما رأيت السيارتين تقتربان من بعضهما البعض ثم تبتعدان فهمت ما في الأمر.. فهمت أنه منذ مدة حيث أصبحت اتصالاتي اللاسلكية مستمرة ومنتظمة شعرت المخابرات بوجود جهاز لاسلكي سري ليس له قيد على خرائط المخابرات السرية. واستطاعت المخابرات أن تحدد وجود ذلك الجهاز في ضاحية هليوبولس. ولكن من هو صاحب الجهاز السري؟ هل يمكن أن تكون السفارة الروسية التي كانت في بناية بالقرب من منزلي وتملأ الفضاء بمخابرات لاسلكية لا حد لها؟ ولهذا أحضروا السيارتين الروسيتين لتحديد مكان الجهاز السري، وقد مضت عدة ساعات على وجود السيارتين في حي هليوبولس بدون أن تسمعا شيئاً، لأن صاحب الجهاز اللاسلكي أمضى وقته اليوم خارج القاهرة فقد سافر اليوم إلى بير كفكفا بنفس الطائرة التي تحمل رئيس الجمهورية العربية المتحدة ونائبيه، ورئيس الحكومة المصرية، ووزير الدفاع وقائد القوات الجوية والبرية. ولهذا فقد يئست السيارتان من العثور على مصدر الإرسال اللاسلكي، وهما الآن تقومان بمشاورات فيما بينهما حول ما يجب اتخاذه. وبينما كانتا تقفان إلى جانب بعضهما البعض بأنهما لا تقدران على اكتشاف المحطة اللاسلكية السرية، وكل ما يمكن أن تعرفاه هو تحديد اتجاه المحطة فقط. ولكن بما أن الأوامر الصادرة للسيارتين - هكذا تخيلت - هي اكتشاف المحطة السرية بأي ثمن، فقد عادت السيارتان إلى الابتعاد عن بعض، وراحتا تقومان بالدوران حول ضاحية هليوبولس. ولكن الأجهزة المركبة على السيارتين لم تشر إلى وجود أية محطة، ولم تستلم أية مخابرة

لاسلكية لأنني في ذلك الوقت لم أرسل أية مخابرة ولن أرسل أية مخابرة طالما أن هاتين السيارتين تتجولان في ضاحية هليوبولس بحثاً عن جثة مشبوهة، وأن (آرام انوير) لن يتحول مرة ثانية إلى جثة هامدة ممددة على طاولة خشب، بل سيبقى آرام انوير هنا، ينتظر حتى يرفع الجلاد يده ثم يقطعها. فمن اجل ذلك أرسله إلى هنا فيشل الطويل، حينما أدرك أن نهايته وشيكة. ومن أجل ذلك ايضاً ترك صديقته (نعومي) وابنه في بطنها. ومن اجل ذلك أيضاً قتل دومنيك وجردت جثتها من اللابس وألقى بها في حديقة في باريس. ومن أجل ذلك قتل صوفي ياسين حرقاً داخل سيارة مغلقة، ومن أجل ذلك أنقذ (آرام أنوير) القاذفات المصرية.

جلست على شرفة منزلي أشرب بتلذذ (السحلب البارد) الذي أعدته لي الخادمة العجوز، ولا أدري كيف تسلل إلى فكري في هذه اللحظة خاطر حول تلك الخادمة وكيف انني لم أهتم بأمرها منذ عملها في منزلي. كنت انظر إليها كأداة من أدوات المنزل، أداة مريحة تستخدم في كل شيء. ولكني لم أعرف امرأة مخلصة لي مثلها، ظلت وفية لي، تقوم على خدمتي بمنتهى الإخلاص طوال سنوات كثيرة لا تطلب البخشيش والمكافآت وإنما كانت تكتفي بالأجرة القليلة التي كنت أدفعها لها.

وبدأت أفكر بأن وجودها لن يطول كثيراً، فإن بقائي في مصر سينتهي في وقت قريب. حولت نظري وأنا جالس على الشرفة إلى الشارع الفسيح وكانت الشمس تميل إلى الغروب وراء التلال الرملية والأهرامات التي بناها حكام بلاد النيل قبل وجود اليهود هناك.

كنت مضطراً للبقاء جالساً على الشرفة حتى أرى متى تنصرف السيارتان الروسيتان. ودخلت البيت، ومع أنني لم أكن جائعاً إلا أنني ملأت طبقاً من بقايا الطعام الموجود في الثلاجة. وكانت فراخاً محشية من صنع يدي الخادمة. وقلت في نفسي، إذا تمكنت من مغادرة مصر قبل ان يكتشفوا أمري فإن إنساناً واحداً سأظل أذكره بالخير هنا، هو هذه الخادمة العجوز الوفية.

ومرة أخرى رأيت السيارتين تقتربان من بعضهما ثم اتجهتا نحو القاهرة وغادرتا مسرعتين. انتظرت دقيقة واحدة أو أكثر ريثما أنهيت طعامي، وجمعت الصحون وأدخلتها المطبخ. ثم عدت وتفحصت جميع الأبواب والشبابيك وألقيت نظرة على جميع غرف المنزل

وزواياه، فقد تعلمت من تجربتي مع صوفي ياسين بأن لا أخرج جهاز الإرسال من مخبئه قبل أن أتأكد تماماً من خلو البيت.

جلست إلى الجهاز، وأنا حائر في كيفية صياغة المخابرة المصيرية وتذكرت الضحكة المدوية التي أطلقها الرئيس يوم قال: (إسرائيل تريد الحرب؟) وأنا أقول لها أهلاً وسهلاً. وتذكرت المشير عامر وهو يضحك. وتذكرت طياري النفاثات الذين وقفوا يحيطون بالرئيس وطالبوه بأن يصدر الأوامر ليدمروا إسرائيل فوراً قبل أن تقوم لإبادة مصر.

أرسلت إشارة النداء من الجهاز وجاءني الجواب. ومع أنه انقضى وقت طويل يزيد على نصف ساعة على الموعد المحدد لإرسال المخابرة، إلا أن نائب اللاسلكي ظل جالساً عند جهازه ينتظر مخابرتي، وتخيلت أن الضابط هو الآخر ينتظر، ومدير الاستخبارات نفسه ينتظر. وقلت في الجهاز انتظر عشر دقائق ثم أعددت المخابرات بسرعة وقلت:

قام عبدالناصر، وعامر وصبري وأنا بمعيتهم مع آخرين بزيارة بير كفكفا ظهر اليوم (٠) أعلن عبدالناصر أمام الطيارين إغلاق مضيق تيران بوجه السفن الإسرائيلية والشحنات الموجهة إلى إسرائيل (٠) طالب الطيارون بالسماح لهم بشن هجوم فوري، ودار جدال شديد وعارض عبدالناصر لأنه يؤمن بأن إسرائيل لن تهاجم مصر (٠) مدير العمليات الحربية الجنرال فريد سلامة يقول بان سيناء ليست سهلة للدفاع ومن الضروري احتلال جنوب النقب (٠) سلاح الجو المصري يطالب بشن هجوم مفاجئ مع الفجر على القواعد الجوية الإسرائيلية بطيران منخفض وتدمير طائراتكم، وتعقب ذلك حرب شاملة. انتهى.

وفي الوقت الذي كنت أرسل فيه المخابرة كنت أحلل في ذاكرتي ما شاهدته اليوم في بير كفكفا، وتصورت أنني بتلك المخابرة التي أرسلتها الآن قد أديت واجبي كعميل للاستخبارات. وعميل الاستخبارات عليه أن يتمسك دائماً بالحقائق المجردة ولا يدخل في التقديرات والتخمينات. وطلبت مني المحطة الرئيسية في تل أبيب أن أنتظر. وكنت أعرف أن السيارتين الروسيتين من المحتمل أن تعودا في أي وقت وينكشف أمري.

بدأت المحطة الرئيسية ترسل. وحللت الرموز اللاسلكية وكان معناها:

نريد تقديراتك حول إمكانية صد هجوم شامل. كنت أعرف أن ضابط اللاسلكي ينتظر التقديرات مني ليمررها إلى مدير الاستخبارات وكنت أعرف أن تقديراتي سينقلها

مدير الاستخبارات إلى مجموعة الأشخاص المدنيين الذين سيتخذون الإجراءات والقرارات على ضوئها. وتصورت مدير الاستخبارات يقول لهم:

هذه المعلومات من مصادر داخلية موثوقة للغاية، وأرسلت لهم تقديراتي كالتالي: أعتقد أن نشوب حرب شاملة غير مستبعد (أكرر) غير مستبعد. انتهى.

ومرت تسع ساعات كاملة على هذه المخابرة منذ وصولها إلى نائبة اللاسلكي ومن ثم إلى الجندي الأول في إسرائيل. ففي الساعة الرابعة من الصباح الباكر توجه القائد الأكبر إلى رئيس السلطة المدنية الذي كان في سريره نائماً، وبعد أن صحا جلس ومقابله القائد الأكبر الذي قال له: (لقد أعلن عبدالناصر إغلاق مضايق تيران) وهنا نظر المدني إلى القائد وسأله:

متى أعلن ذلك وأين؟ قال القائد: لقد أعلن ذلك في بير كفكفا ظهر اليوم (أمس) وأعلن أن المضايق ستغلق كذلك بوجه السفن الإسرائيلية والحمولات الموجهة إلى إسرائيل.

رفع المدني رأسه ثم تنحنح وقال: ما هي إذن التقديرات، بالنسبة لكم؟

ورد الرجل العسكري بصوته الهادئ، وكانت كل كلمة تحمل معنى كبيراً: عميلنا في القاهرة يقول بأن الحرب غير مستبعدة.

فوات فرصة المبادرة

يوم الخميس ٢٥ أيار ١٩٦٧

▣ مـرت في الطـريق العـام السـيارة الروسـية ذات أجهـزة تحديـد أمـاكن المحطـات والإذاعـات السرية، وان في قيادة سلاح الجو ينتظرني قائد السلاح نفسه. ولم يكن باستطاعتي ان اتاخـر عن الخروج إلى معسكر القيادة مع انني كنت أعرف أن المحطة الرئيسية في تل أبيب ستيأس من انتظار مخابرتي وقارنت الأمرين، هل أذهب إلى معسكر القيادة أم لا أذهب وأرسل المخابـرة إلى تـل ابيـب؟ وبالـتالي توصلت إلى نتيجة وهي أنني إذا بقيت في البيت وقمت بإرسال المخابـرة سيقبض علي متلبساً ولكني قلت في نفسي حينما أسمع وقع أقدام في الخارج ودقات علـى الـباب فسـاقوم بـإتلاف الـرموز السـرية وجهـاز اللاسـلكي، وبعد ذلك الحس السن المستعار بلسـاني في فمـي وتكـون نهـايتي، وفـاتني أن أذكـر أن ذلـك السـن المسـتعار زرعـه في فمـي قـبل بضـعة شـهور طبيـب الأسـنان الـتابع للمخابـرات السـرية الإسـرائيلية. وكان ذلك بعد الخطاب الـذي ألقـاه صـدقي محمـود في الاحـتفال بعـيد سلاح الجو المصري قبل حوالي نصف سنة. وفي ذلـك الخطـاب قـال انـه سـياتي يـوم وفـيه نـدمـر سـلاح الجو الإسـرائيلي خلال ساعتين. ويومها شـعرت أن حـبل المشـنقة المـرفوع فـوق رأسـي مـنذ عشـر سـنوات قـد دبـت فـيه الحـياة فجـأة. فسـافرت إلى إسـرائيل وطلبـت أن يـركـبوا لي سنـاً مسـتعاراً وبـداخلـه حـبة سـم ملفوفـة بغطـاء مـن البلاسـتيك تكفـي لقـتل الإنسـان بعـد مـرور اربـع دقـائق فقـط من لمسها باللسان بعد قضم غطـاء البلاسـتيك عنهـا.

وهكذا قررت أن أرسل المخابرة، فربما أنجح في إرسالها قبل أن تتمكن سيارة المراقبة اللاسلكية من اكتشافي. كتبت المخابرات واختصرتها أكثر من مرة وأخرجت جهاز الإرسال وأعددته للعمل.

وقبل يومين، في اليوم التالي لعودتنا من بير كفكفا استدعاني زكريا محيي الدين إلى مكتبه. جلسنا متقابلين هو رئيس حكومة الجمهورية العربية المتحدة وبنفس الوقت المسؤول الأول عن جميع أجهزة الأمن والمخابرات وأنا تاجر السلاح المليونير الصديق المخلص لمصر، وسألني محيي الدين كما كان قد سألني قبل عشر سنوات:

ما رأيك بسلاحنا الجوي؟

فافتعلت على وجهي الجد وقلت:

لقد تغير كثيراً في السنوات الأخيرة.. حتى من ناحية النوعية. ورمقني محيي الدين بنظراته الثاقبة المتوقدة التي عبرت من خلال جسدي كأنني مصنوع من الورق الخفيف وقال:

هل تغير كثيراً؟ وهل يستطيع القيام بضربة قاضية على سلاح الجو الإسرائيلي ويدمره؟

كان سؤاله لي بدون ذرة من غضب. وكان محيي الدين بارداً كخنجر غرس في الثلج.

لست أعرف جيداً سلاح الجو الإسرائيلي، قلت، وأضفت: ولكنني أعتقد أن الأمر ممكن. فقال:

ولكن ليس عندما تكون له قيادة فاسدة كالقيادة الحالية؟ كان هذا سؤالاً وجواباً في آن واحد.

نظرت إليه، لم أرد أن أناقشه، ولكني بنفس الوقت لم أشأ أن يأخذ عني فكرة بأنني لست مخلصاً، وافتعل المجاملة والتملق أمام المسؤولين الكبار قلت:

قيادة سلاح الجو ليست فاسدة، ولصدقي محمود فلسفة خاصة إزاء سلاح الجو وهو يطبق تلك الفلسفة، ولكن ربما تكون فلسفته غير صائبة.

قال محيي الدين وهو يقاطعني:

إن صدقي محمود سيجد نفسه في أحد الأيام في السجن العسكري المركزي ويقدم إلى المحاكمة بتهمة خيانة الوطن.وسكت، إذ ماذا أستطيع ان أقول؟ وبعد قليل سمعته يقول لي:

في الساحة الخلفية تقف طائرة هليوكوبتر صغيرة، قائدها رجل مخلص من رجالي ومثله أيضاً حارسك الذي يجلس هناك. خذ هذه الهوية لك، وهي تسمح لك الدخول إلى كل معسكر أو بناية في سلاح الجو المصري في جميع أنحاء الجمهورية العربية المتحدة. وألقى على المكتب هوية عليها صورتي مع أنني لا أذكر أنني أعطيت له صورة لي في يوم من الأيام، وكان على الهوية خاتم مستدير هو خاتم دائرة المخابرات، وخاتم آخر يحمل الخاتم الشخصي الكامل لزكريا عبدالمجيد محيي الدين. وقال لي:

تحرك الآن فوراً، وتجول في جميع المطارات وقواعد السلاح. وتفحص كل ورشة، وكل سيارة وقود وانظر جيداً في كل مكان إلى القطع التي لا تعرض أمام الزوار عادة. وعد إلي بعد مرور (٤٨) ساعة، وقدم لي تقريراً كاملاً عن أي نقص أو إهمال تجده هناك، ثم أضاف:

ولكن إذا أخفيت شيئاً عني، سأطردك على الفور من مصر خلال ساعتين فقط. ثم قام وصافحني وقال:

أرجو لك :لتوفيق يا أنوير بك، وثق أنك موضع ثقتي التامة من واجبنا اليوم أن نقف متحدين بوجه الخيانة والإهمال، والله يرعاك يا (انوير).

قمت وأنا أعرف أنني لم أعد شاباً، فخاصرتي التي كانت دقيقة أصبحت اليوم ثقيلة ولا معنى للشباب في عيني ثم قلت لمحيي الدين:

لن أخيب ظنك يا رئيس الحكومة.

خرجت مسرعاً إلى الطائرة الصغيرة، وتذكرت أن رحلتي إلى المطارات والتي ستدوم ٤٨ ساعة ستجعلني انقطع عن الاتصال اللاسلكي بتل ابيب. وكان الاتفاق بيني وبين المحطة الرئيسية أن يجري الاتصال بيننا مرتين في اليوم.، وواحدة منهما على الأقل يجب أن تتم ليعرفوا أنني حي.

عدت إلى محيي الدين بعد يومين في الوقت المحدد، وخلال تلك المدة قطعت آلاف الكيلومترات ورسمت في مخيلتي كل شيء تماماً كما تعلمت في الدروس الأولى بمدرسة أستاذي فيشل. جلست أمام محيي الدين الذي حذرني منه فيشل، باستمرار، ولكني اليوم أشعر بمنتهى العزة فقد نجحت في عملي أكثر مما كان يتوقع فيشل نفسه.

(في قلب سيناء)، هكذا قلت مبتدئاً الحديث مع محيي الدين الذي كان ينصت إلي بهدوء ولم يسجل كلمة واحدة، ولكنني كنت أعرف أن كلامي يجري تسجيله بالمسجل، فإذا ما شعر محيي الدين بأن شيئاً فاته يعيد الشريط ويستمع لكلامي من جديد.

في قلب سيناء شبكة الرادار تكاد تكون معزولة. فبين محطة الرادار في الكونتيلا وبين محطة الرادار في لاوبيا فراغ كبير خالي من الرادار وعبر ذلك الفراغ يستطيع أن ينفذ سرب كامل من الطائرات بدون أن تتمكن شبكات الرادار من رؤيتها.

كنت أعرف أنه من المستحيل تقريباً تصحيح الأمر في وقت قصير، وكنت أعرف أن ذلك الفراغ ليست له أهمية كبرى، لأنه إذا شنت إسرائيل هجومها الجوي فإن طائراتها ستقلع جنوباً وتدور حول شبه جزيرة سيناء بكاملها أو تطير فوق البحر. أما الفراغ الموجود في قلب سيناء فليست تحته لا مطارات عسكرية ولا طرق مواصلات إلى المطارات. علاوة على ذلك كان من واجبي أن أقدم تقريراً معقولاً بالنسبة لرئيسي الجديد محيي الدين. وأضفت قائلاً:

في بير كفكفا توجد جميع رزم الشباك المخصصة لتوزيعها على المدرجات في حالة إصابتها في هجوم جوي، موجودة داخل مستودع مغلق خلف أكوام كبيرة من الذخيرة والعتاد. وفي حالة شن هجوم مفاجئ ستمر نصف ساعة حتى يتمكن الجنود من إخراج رزم الشباك من المستودع إلى المدرجات. ولم أخبره أن الحالة في العريش أسوأ من ذلك بكثير: فإن رزم الشباك معرضة في الخارج بدون تغطية حتى حولها هواء البحر المالح إلى كتلة من الخردوات

الصدئة. فإذا حاول جندي استخدام تلك الشبكة فإنها ستتهشم بين يديه أو عند أية حركة وأضفت:

في (فايد) لم أجد مطلقاً أية شباك للمدرجات عند الطوارئ، وفي الماظة وجدت أن ذخيرة المدافع الخاصة بطائرات الميج منشورة ومختلطة مع ذخيرة المدافع المضادة للطائرات وتحيط بها أكوام من المعدات ومجاورة تماماً لمستودع وقود بدون وقاية، ومطار الماظة أشبه ما يكون بالدكان العمومي الذي سطا عليه اللصوص، وخلال عبثهم به داهمتهم دورية شرطة فتركوا كل شيء وولوا الأدبار. ولم يتمكن أحد من المسؤولين في المطار أن يبين لي السبب في وجود سيارات الوقود في الكراج المخصص لسيارات الإطفائية. ووجدت أيضاً أن عدداً من طائرات هليوكوبتر ميل ٦ التي وصلت حديثاً تقف حالياً في أماكن تعارض مرور الطائرات المقاتلة. ومن السهل جداً تدمير الطائرات لأنها متقاربة وبرأيي أنه من الضروري إعادة الترتيب والنظام في مطار الماظة، بشكل شامل واقترح نقل طائرات الميج من الماظة إلى مطار القاهرة غرب، ويتبعها بعد ذلك بشكل منتظم نقل بقية معداتها وذخيرتها.

بعد مرور أسبوع ونصف حينما هوجم مطار القاهرة غرب من قبل سلاح الجو الإسرائيلي وقع سرب من طائرات الميج ٢١ الذي نقل من الماظة داخل مصيدة بسبب الازدحام الكبير في المطار. أما مطار الماظة وهو أكبر مطار حربي في مصر فقد كان بدون دفاع جوي وأبيدت فيه ثلاثة أسراب من طائرات النقل.

وسألني محيي الدين: كيف الحال في مطاري الغردقة والأقصر؟

قلت فوراً: إنه أفضل بكثير من أحوال المطارات الأخرى، إذ أن العقيد أبو العز يقوم بنشاط كبير هناك، والمطارات منظمة جيداً، والمستودعات عليها الحماية الكافية، وكل جندي هناك يعرف أين المكان المخصص لكذا وكذا.

وسألني: ما رأيك بطائرات طوبوليف؟

قلت: من أية ناحية؟

قال: ما هو انطباعك عنها؟

قلت: ممتاز جداً، إنها أدوات دمار ممتازة.

قال، وكأنه غارق في حلم: إذا ما وصل سرب من طائرات الطوبوليف إلى تل أبيب فإنه يستطيع أن ينهي الحرب، فبعد زيارة قصيرة تقوم بها تلك الطائرات إلى تل أبيب سيفضل الإسرائيليون الاستسلام.

حركت رأسي وقلت:

(كلا) لن يستسلموا، فأنا أعرف ذلك، رأيت ذلك في أفريقيا الوسطى، منطقة واسعة هناك طوقتها قوات الحكومة التي كانت تتقدم وتحرق كل شيء، ولم يخرج إنسان حي. كان الرجال يقتلون والأطفال ينحرون بالبنادق والحراب والنساء يغتصبون ثم يلقون بهن إلى وسط النار ولكن رجلاً واحداً لم يستسلم، وهذه طبيعة البشر. كل هذا حدث صباح اليوم. فبعد أن انتهى حديثنا توجهت إلى منزلي، ولم أستطع أن أتصل بالمحطة الرئيسية إلا بصعوبة بالغة. فعند بداية الاتصال حاولت أن أستخلص الأمور الهامة من بين ما رأيته في اليومين الماضيين ولم أتمكن من الإطالة في المخابرة ولهذا أرسلت مخابرة قصيرة وبسرعة كالتالي:

سيوضع في مطار القاهرة غرب ابتداء من الغد سرب (طوبوليف) وسربا ميج ٢١ وفي مطار الماظة ثلاثة أسراب اليوشن ١٤ وسرب ميل ٦ وسرب ميل ٤. وفي مطار الأقصر سرب طوبوليف وسرب اليوشن وسربا ميج ٢١ وسرب ميج ١٧. وفي سيناء منطقة خالية من الرادار، ثغرة كبيرة مقابل إيلات، يحتمل شن هجوم مفاجئ عليكم، انتهى.

أبقيت جهاز اللاسلكي وأوراق الرموز على الطاولة لأرى ما إذا كانت المخابرات المصرية ستداهم المنزل أم لا.. وبعد مرور نصف ساعة هدأت نفسي فأعدت الجهاز إلى مكانه واستحممت ثم توجهت نحو قيادة سلاح الجو، لم أكن بحاجة إلى توجيه أسئلة كثيرة، فإن ما شاهدته بعيني كان كافياً لأن يوضح لي ما سيقع. دخلت إلى مكتب الفريق محمود عفيفي رئيس العمليات وسألته بدون مقدمات.متى؟

رمقني عفيفي بنظرة ولم يحاول أن يتهرب من الإجابة فقال:

غداً صباحاً قبل طلوع الفجر.. سنوجه ضربة واحدة في وقت واحد لجميع قواعدهم الجوية تدمر جميع طائرات الميراج، والفيتور، والمستير والأوراغان، وبعد ذلك تنطلق من قواعدنا طائرات الطوبوليف يعني (٣٠٠) طن من القنابل في ضربة واحدة. وحينما تشتعل

المدينة بكاملها تنطلق طائرات الإليوشن إلى أهدافها وفي غضون ذلك تعود طائرات الطوبولف للتزود بالقنابل من جديد.

ابتسمت وحركت يدي سائلاً:

وماذا سأفعل أنا بعد ذلك؟ فلن تحتاجوا إلي، وسأضطر للسفر إلى جنوب أفريقيا، حيث يتوقع أن يحدث توتر هناك قريباً ويكون مجال عملي كبيراً.

قال عفيفي: بعد ذلك سنقيم حفلة الانتصار التي ستدوم أسبوعاً كاملاً، ولن يترك في جميع القاهرة فتاة واحدة تزعم أنها لم تنل ما تريد وتشتهي.

جرى كل هذا ظهراً، وبعد ذلك عدت إلى منزلي. ولم يكن باستطاعتي أن أفعل شيئاً قبل حلول الموعد المحدد للاتصال اللاسلكي وربما لن أستطيع فعل شيء حتى عند حلول ذلك الموعد لأن سيارتي اكتشاف الإذاعات السرية والأجهزة اللاسلكية بدأتا تتجولان في المنطقة من ناحية أخرى كانت إحداهما تمر من باب منزلي ببطء وترصد وبداخلها تعمل أجهزة حديثة ممتازة قادرة على استقبال واكتشاف مكان أية إشارة لاسلكية. والواقع أن عمل هذه الأجهزة لم يكن سهلاً في هذه الأيام حيث تكثر الاتصالات اللاسلكية من القيادة المصرية والمطارات واتصالات السفارة الروسية وبعد الظهر اتصل بي، تلفونياً مرافق (صدقي محمود) وطلب مني الحضور إلى القيادة لمقابلة قائد السلاح الجوي في حوالي الساعة الخامسة مساء. وفي هذا الوقت بالذات تبدأ المحطة الرئيسية في تل أبيب بالاستماع إلي لإرسال المخابرات لها. وأنا عزمت على الاتصال وتمرير المخابرة مع أني كنت أعرف أن هذه آخر مخابرة لي وآخر اتصال لاسلكي بيني وبين المحطة الرئيسية. خرجت إلى الشرفة المظلمة وجلست. وكل من رآني يقول أن قلبي خالٍ من الهموم.

وقبل الموعد المحدد للاتصال دخلت إلى المنزل، وتفحصت النوافذ والأبواب وأجهزة المخابرة، وانتظرت حتى الساعة الخامسة وعشر دقائق وناديت بالجهاز مرة واحدة فجاءني جواب المحطة الرئيسية فأرسلت لهم المخابرة التالية:

(ستنزل ضربة جوية مفاجئة على مطاراتكم غداً مع الفجر (أكرر) ستنزل ضربة جوية شاملة مع الفجر. انتهى).

وهنا طلبت مني المحطة الرئيسية أن (أعد، أعد) ولكني لم أضف كلمة واحدة ولم أعد شيئاً. كنت أنتظر القادمين إلي بهدوء، وفجأة دق جرس التلفون فتذكرت أن صدقي محمود ينتظرني في قيادته.

أغلقت كل شيء بسرعة وتوجهت مسرعاً نحو قيادة سلاح الجو.

في صباح يوم الجمعة ٢٦ أيار كان المقرر شن الهجوم الجوي المصري المفاجئ على إسرائيل. وكانت التعليمات والتوجيهات حول ذلك الهجوم قد وزعت على جميع المطارات في سيناء قبل بضعة أيام، واستطاعت الصحافة بأن تطلع عليها وتنشرها. ولكن أحداً لم ينشر الأسباب التي دعت إلى إلغاء الهجوم الجوي المرسوم.

ففي يوم الجمعة وقبل حلول الفجر، توجهت عشرات من الطائرات الإسرائيلية المقاتلة وحلقت في سماء البلاد. وكانت تتجول باستمرار على طول البحر وعلى حدود سيناء وتقوم بغارات باتجاه البحر الأحمر وقطاع غزة وملأت الجو بالضجة. ولما فرغ الوقود من خزاناتها استبدلت بطائرات أخرى وهبطت تتزود بالوقود من جديد وكانت جميع الطائرات التي لا تزال على الأرض جاهزة عند أطراف المدرجات للانطلاق مع أول إشارة. واستطاعت شبكات الرادار المصرية المنتشرة على طول قطاع غزة وسيناء أن تكتشف التحركات الجوية الإسرائيلية الواسعة. وعلى الفور أصدرت قيادة سلاح الجو المصري تعليماتها بوقف انطلاق الطائرات نحو إسرائيل وإلغاء الهجوم إلى حين. ولما اتضح بعد ساعتين متواصلتين إن التحركات الجوية الإسرائيلية لم تخف حدتها صدر أمر نهائي بإلغاء العملية كلها.

الاتجاه نحو الهند

٣٠ أيار ١٩٦٧

■ كان القائد الكبير يبدو على غير ما كان عليه في لقائنا الأول قبل حوالي سنة ونصف، حتى تصورت أنه إنسان آخر. فحينما دخلت إلى الغرفة الواقعة تحت الأرض وقام ليصافحني لفت انتباهي التغير الكبير في مظهره، فلم يكن شيئاً كما كان في اللقاء الأول أو على الأصح اللقاء الأخير. لأن لقاءنا - الأول - وهذا ما تذكرته في آخر لحظة، كان قبل ثلاثين سنة تقريباً. والرجل الذي أقابله اليوم عند الحافة لم يكن شاباً، فالشيب ينتشر في رأسه والتجاعيد تغطي جبينه وعند أطراف عينيه. ولم أشعر تجاهه اليوم ذلك الشعور بالعداء أو الكراهية التي أحسست به يوم رفض أن أعود من مصر حيث قال لي: سنكون بحاجة لك في أحد الأيام. ويومها استطرد وقال بل ربما ساعة واحدة فقط.

كانت عيناه تشعان باستمرار بنار التمسك التام والاقتداء الكامل بالقائد الأعلى - بالنصر - ولكني رأيت في عينيه كذلك الإعياء الكبير، وتفهماً جديداً نحوي أنا. تصافحنا ببساطة وأحسست بشكره لي عبر المصافحة الحارة التي استمرت فترة طويلة. وسألني:

وأخيراً هل وصلت بدون مشاكل؟ فقلت:

نعم بدون أية مشاكل. ثم صافحت الزعيم الأسمر مدير الاستخبارات العسكرية وجلست ثم قلت:

علي أن أسرع، هل تريدون أن تدونوا كلامي؟

قال الزعيم الأسمر: (كلا)، وإنما سنسجلها على شريط.

وأدار جهاز التسجيل وبدأت بإلقاء ما يشبه المحاضرة وكنت قد حفظت أقوالي غيباً خلال رحلتي من القاهرة إلى هنا. الوضع السياسي / العسكري، هو كالتالي:

بعد فشل الهجوم الجوي المصري الذي كان مقرراً في صباح يوم السادس والعشرين من الشهر الجاري.

قال القائد الأكبر: (نعم)، وأنا باسم جميع الناس الذين لا ولن يعلموا بما حدث، أشكرك من كل قلبي.

قلت بدون تعليق: لقد رأوا عدم القيام بهجوم، وخاصة هجوم جوي.

لقد كان محيي الدين نفسه هو الذي أبلغني بذلك صباح يوم السبت في مكتبه. وكان قد استدعاني إليه وكانت أول مرة أراه فيها غاضباً. وقال لي:

إن في قيادة سلاح الجو المصري جاسوس خائن، وأنا أعرف من هو.: ولكنه سيجد نفسه في يوم من الأيام بدون رتبة فريق أول التي يحملها، وفي داخل السجن ينتظر محاكمة عسكرية.

لم يكن عسيراً علي أن أعرف المقصود بكلامه، سلاح الجو المصري ليس فيه سوى رجل واحد رتبة فريق أول وهو قائد السلاح نفسه. ثم استطرد محيي الدين قائلاً: لقد أضعنا الفرصة، وأصبح الإسرائيليون الآن مستعدين فقد جندوا بالطبع جميع قواتهم وهم بحالة استنفار كاملة ليلاً نهاراً. أنظار العالم كله متوجهة الآن نحو فلسطين.

ولذلك يجب أن لا نكون نحن المعتدين، ولكننا سنرغم الإسرائيليين على أن يعتدوا هم، ولدينا الآن اتفاقية دفاعية مع سوريا، كما أن العراق والسعودية سترسلان قوات عسكرية للأردن. ولن تمضي أيام قليلة حتى يجد الملك حسين نفسه مضطراً لعقد اتفاقية دفاعية معنا، ويسمح للقوات العراقية بالدخول إلى الأردن والتوجه غرباً إلى أبواب تل أبيب. كذلك ستنضم الجزائر إلى المعركة خلال أيام. وخلال عشرة أيام سترابط على جميع حدود

إسرائيل مع الدول العربية قوات عسكرية قوامها نصف مليون جندي عربي بحوزتهم ٢٥٠٠ دبابة حديثة و١٠٠٠ طائرة عسكرية، وجميعهم تحت علم واحد. وعندها ستجد إسرائيل نفسها مضطرة لتقرير الهجوم أو الاستسلام وآمل أن تقوم بالهجوم، حتى نرغمها على الاستسلام بذلك.

غريب.. هل بدأ هذا الإنسان يحلم هو الآخر؟ كنت أعرف جيداً أن الملك حسين لن يدخل الحرب ضد إسرائيل حتى اللحظة الأخيرة، بل وبعد اللحظة الأخيرة. ففي اللحظة التي يدخل فيها السلاح المصفح المصري إلى تل أبيب سينضم الملك حسين إلى المعركة. وعند ذلك لن يؤثر انضمامه شيئاً.

والسعودية؟ أنا أعرف أن هذه الدولة كانت طوال خمسة عشر عاماً تدافع عن نفسها ضد مصر، وكانت تقدم للقوات الملكية في اليمن جميع المساعدات الممكنة ضد القوات المصرية. ثم الجزائر؟ والعراق؟

بعد يومين من حديثنا أعلنت قيادة الجيش الجزائري إرسال وحدات عسكرية لمساعدة مصر، ثم بعد يومين وصلت القوات العراقية إلى الأردن. والسعودية أرسلت هي الأخرى ٢٠ ألف جندي إلى خليج العقبة لمساعدة اللواء الشاذلي في احتلال إيلات. وفي ذلك الوقت كان يجلس في عمان اللواء (عبدالمنعم رياض) المصري كقائد للقوات الأردنية والعراقية والمصرية التي ترابط في الأردن.

وقال لي محيي الدين: علينا أن نجهز كل شيء لمواجهة الضربة الإسرائيلية، يجب أن نوقفها يجب أن نحطم الجيش المعتدي ونقوم بهجوم معاكس. وبعد ذلك نستطيع أن نتفرغ للخونة.

وطلب مني زكريا محيي الدين للمرة الثالثة أن أساهم في المعركة الجوية المصرية.

طلب إلي أن أسافر إلى الهند لأنهي هناك صفقة عسكرية سبق أن جرت بشأنها مباحثات طويلة، ففي المناطق الشمالية بالهند جرى استبدال لشبكات الرادار القديمة بشبكات حديثة قدمتها أمريكا سراً كجزء من مخطط يحيط الصين بالرادار من جميع الجهات. ولذلك فإن شبكات الرادار القديمة في الهند وهي على أي حال أفضل بكثير مما لدى مصر، قد عرضت للبيع، وكانت الحكومة الهندية ترغب في بيعها للأصدقاء، ولكنها لم

ترغب في ان يتم البيع علانية، وكانت تأمل في الحصول على ثمن كبير لهذه الصفقة. ولذلك وقع علي الاختيار في مصر للسفر إلى الهند والتفاوض حول الصفقة. وإذا استطعت أن أنهي المفاوضات بسرعة فإن شبكات الرادار ستوضع في سيناء ومنطقة القناة والدلتا قبل أن يشن الإسرائيليون هجومهم.

نظر إلي محيي الدين بعد أن أنتهى من شرح التفاصيل وقال:

إن صديقنا الجنرال - شيكوف - يعارض في أن تكون بحوزتنا شبكة رادار شاملة. فهو غير مقتنع بقدرتنا على التحكم والسيطرة بمثل هذه الشبكة المعقدة. ولذلك سنضعه أمام الواقع، ولكن إياك أن يعلم بشيء من ذلك في الوقت الحاضر. وبعد غد تستطيع أن تسافر إلى تركيا ومنها إلى الهند احضر إلي صباح بعد غد، بعد أن تكون قد حجزت لك مكاناً في الطائرة نحن لن نقوم بالهجوم، هكذا واصلت حديثي الذي يسجل على الشريط بحضور القائد الكبير ومدير الاستخبارات في تل أبيب واستطردت أسرد ما قاله لي زكريا محيي الدين، سنحاول أن نرغم إسرائيل على شن الهجوم بعد أن نكون قد أحطنا بها من كل جانب. وربما يقوم بزيارتنا اليوم ملك الأردن... وهنا سألني مدير الاستخبارات.

من أين سمعت هذه المعلومات؟ قلت من زكريا محيي الدين نفسه. قال:

- هل سيوقعون اتفاقاً عسكرياً؟ قلت:

(نعم) وسيعود مع الملك إلى الأردن اللواء عبدالمنعم رياض ويتسلم قيادة القوات الأردنية والعراقية، ومن المرجح أن يحيط بإسرائيل في الأسبوع الثاني من شهر حزيران جيش عربي موحد يضم قوات عسكرية من الجزائر والسعودية أيضاً. وقوام ذلك الجيش - كما قال لي محيي الدين - نصف مليون جندي وبحوزته ٢٥٠٠ دبابة و١٠٠٠ طائرة.

وهنا سألني الجندي الأول في إسرائيل بصوت هادئ: (وبعد ذلك؟)

قلت:

وبعد ذلك لن يكون أمامك إلا طريق واحد هو الاستسلام، والتنازل عن جنوب النقب وبذلك تحل مشكلة مضيق تيران، وإلا الحرب، وعندها ستواجهون الجيش العربي الجرار الذي

سيدمركم. ويشن عليكم هجوماً مضاداً من كل جانب ويدخل تل أبيب، ولكني سأحاول جهدي من أجل أن لا يحدث ذلك. والآن سأتحدث عن الحالة في سيناء.

فقلت بعد أن رأيت مدير الاستخبارات يصغي باهتمام زائد:

أبلغتكم بشكل عام عن توزيع القوات في سيناء، الفرقة السابعة بقيادة اللواء حسن سليمان عبدالعزيز، وترابط في رفح والعريش. وبالطبع فإن ما أقوله الآن ليس مدوناً عندي ولذلك يجب أن أركز أفكاري وأبلغكم أيضاً بأنه غرس أمام رفح الغام من الشاطئ حتى الرمال في الجنوب. والطريق الوحيد للالتفاف حول ذلك الحقل هو التحرك على طول شاطئ البحر إلى موقع باسم (الشيخ زويد) ويقال بأن تلك المنطقة بأسرها تشكل كتلة كبيرة من التحصينات تمتد حتى العريش. وكنت قد طرت فوق تلك المنطقة قبل عشرة أيام مع المشير عامر وصدقي محمود، وقد بدت لي تلك التحصينات بأنها مغروسة إلى عمق كبير في الأرض ومصنوعة من الإسمنت المسلح. كذلك فالدبابات مغروسة في الأرض أو في خنادق من الإسمنت المسلح، ولا يبرز منها فوق سطح الأرض سوى المدفع.

الفرقة الثانية بقيادة اللواء محمد كامل عبدالعزيز وهي تحتل المنطقة الممتدة بين أبو عجيلة حتى القسيمة. وفي منتصف تلك المنطقة موقع حصين جداً باسم (أم كتف) وقد ربط ذلك الموقع في المدة الأخيرة بطريق مع الإسماعيلية، وهو أكثر المواقع تحصيناً في سيناء، وتكثر فيه المدفعية والدبابات. ووراء هذه المنطقة ترابط الفرقة الثالثة في المنطقة الممتدة بين جبل لبنة وبير حسنة ولا أعرف من قائد هذه الفرقة، كذلك جرى تعزيز المنطقة الممتدة بين الكونتيلا والنخل، وهناك ترابط الفرقة السادسة بقيادة اللواء حسن عبدالقادر وهو ضابط عسكري ممتاز، واشتهر كثيراً في اليمن.

وهنا سألني مدير الاستخبارات:

هل تعرفه شخصياً!!

قلت وأنا أنظر إلى ساعتي:

كلا، ولا أعرف من قادة سيناء سوى كامل مرتجى قائد القوات البرية كذلك أعرف اللواء الشاذلي، وقد اشتهر في حرب اليمن؟.

وهنا تذكرت كامل مرتجى يوم قمنا بزيارة له، أنا والمشير عامر وصدقي محمود يوم وصلنا إلى (بير ثمادة) بينما كان سرب من طائرات ميج ٢١ يحرس الطائرة التي نركبها خوفاً من تعرضنا لهجوم إسرائيلي مفاجئ. وعند وصولنا صافح المشير عامر كامل مرتجى وهو قصير القامة بدين الجسم، وكنت قد تعرفت على كامل مرتجى في نادي الجزيرة بعد أن عرفني عليه شقيقه الرائد أحمد مرتجى، وهو ضابط بسلاح الجو. وكان أحمد يفاخر بشقيقه وهما برتبة لواء، وكان الأكبر فيهما يخدم في سلاح الطبابة (الخدمات الطبية) وفي ذلك اليوم حدثنا كامل مرتجى عن الانتصارات التي حققها في اليمن وكانت الراقصة (غادة فخري) تصغي إليه باهتمام بالغ. وبعد منتصف الليل قامت الراقصة غادة فخري ورافقت كامل مرتجى فقد كان يبدو عليها الاهتمام ليس بحديثه عن اليمن فحسب وإنما الاهتمام به في الفراش أيضاً.

قطبت جبيني الذي كان لا يزال ناعماً كما كان في عز الشباب وقلت: هذه هي بالطبع تقديرات شخصية. وأعتقد أن كامل مرتجى ليس بالمرة جندياً مقاتلاً جريئاً كما يحاولون وصفه. ولكنه يستطيع أن يجلس ببطولة كبيرة داخل القيادة الواقعة تحت الأرض في جبل (يالك) ولكن إحساسي هو أنكم حينما تشنون الهجوم فإنه سيتوجه على الفور إلى القاهرة - ليقدم تقريراً عن الحالة ويبقى هناك - .

قال مدير الاستخبارات العسكرية: ولكن هناك آراء غير ذلك حوله.

سألته: وهل مصدر تلك الآراء من أشخاص كانوا يأتون إليه بالراقصات اللواتي لا تتجاوز أعمارهن التاسعة عشر.. ليشاركنه الفراش؟ أم مصدر تلك الآراء من أشخاص استمعوا إليه وهو يصف معركة ضد جنود الأمام العراة الحفاة، بأنها معركة ضد جيش عصري؟ كذلك فإن (رومل مصر) - لقب اللواء حميد الشاذلي - لم يخلق لدي انطباعاً كبيراً. فإن القوات الخاصة التي يقودها الشاذلي والتي يفترض فيها أن تكون أول قوات عسكرية تدخل إسرائيل، وتوجه الضربة الشديدة في هجوم مضاد، موزعة حالياً على طول الطريق من جبل لبنة حتى الحدود.

ورمقني الزعيم بنظرة ذات معنى وهو يبتسم وقال:

هل أنت واثق مما تقول؟

قلت: تقريباً، فالحقيقة نفسها لا يعرفها حتى كامل مرتجى نفسه وربما ولا الشاذلي أيضاً، وهو يقوم بتوزيع القوات هنا وهناك وفي كل اتجاه ليضللكم ويخدعكم. وواصلت الحديث وقلت:

نقطة أخيرة بالنسبة لسيناء. وهي أن الفرقة المصفحة الرابعة التي يقودها اللواء عواد علي صدقي الذي يلقب (الغول) رابطت أمس في سيناء وأشرت بيدي إلى نقطة ما على الخارطة العسكرية الموجودة أمامي.

وعاد مدير الاستخبارات ينظر إلي ويقول معلقاً:

ولكن هذه المنطقة عبارة عن منطقة صحراوية مفتوحة.

فقلت: ولكنه أقيم فيها مؤخراً موقع كبير في غاية التحصين. وفي هذه الأثناء دخل علينا ضابط يحمل معه الشراب الساخن وهنا طاطات رأسي وتناولت منديلاً من جيبي وتظاهرت بأنني أمسح أنفي، وذلك لئلا يرى وجهي هذا القادم.

كانت هذه هي المرة الأولى التي أدخل فيها إسرائيل باسم آرام أنوير. فقد كنت أحمل معي جواز السفر الذي لم تطبع عليه أية تأشيرة إسرائيلية، كما أنني لم أصبغ شعري كما كنت أفعل في كل مرة. والسبب أنني لا أجلس الآن في داخل القيادة الإسرائيلية وأنا موجود بداخل طائرة تقلني من تركيا إلى الهند، وكانت هذه الطائرة قد هبطت بمطار اللد لتتزود بالوقود وفي غضون ذلك شعر قائدها بوجود خلل مفاجئ فيها.

وكنت بالأمس قد وصلت من مصر إلى تركيا، وفي الليل بعد أن استأجرت غرفة في فندق (هلتون) في اسطنبول خرجت لأتجول في المدينة. واستأجرت سيارة أوصلتني إلى (آيا صوفيا) وبعد أن تنزهت في هذا المكان قليلاً، استأجرت سيارة أخرى أوصلتني إلى الجسر الواقع على (قرن الذهب). ثم توجهت نحو الجزء الشمالي من اسطنبول إلى حي هادئ دافئ. وهناك تطلعت خلفي لأرى ما إذا كان أحد يقوم بتعقبي ومراقبتي، ثم دخلت عمارة جميلة تقيم فيها صديقتي التركية. واستقبلتني بدهشة، فقلت: ادخلي المطبخ وأغلقي الباب وأعدي لي قهوة تركية، ولا تخرجي قبل أن أطلبك.

وأطفأت الأنوار في الممر الفسيح، وجلست إلى طاولة صغيرة عليها هاتف وطلبت إجراء اتصال هاتفي مع (إسرائيل) ثم شربت القهوة التي أعدتها صديقتي واستلقيت على الكرسي انتظر جواب الهاتف.

وسألتني صديقتي:

ألست بحاجة لشيء ما؟

قلت: كلا، شكراً جزيلاً أريد أن أستريح قليلاً، وحينما يرن الهاتف ادخلي المطبخ وابقي هناك.

(حسنا)، قالت وجلست على مقعد آخر لئلا تضايقني. وبعد مرور ساعتين دق الهاتف وقالت عاملة المقسم (الخط مع إسرائيل).

قلت بعد أن حملت السماعة هالو، رفاعي أزسبيكنك، - رفاعي يتكلم - قال الصوت على الطرف الآخر، من انت؟ قلت: يوسبيك إنجلش؟ - هل تتكلم الإنجليزية؟ - قال:

إنجلش؟ هو آريو؟ من انت؟

قلت: مستر رفاعي انا، سبيكنك فروم توركي - أتحدث من تركيا -

قال: آه.. رفاعي، أية خدمة تريد؟ قلت:

سأصل غداً إلى اللد على طائرة تابعة للخطوط الجوية التركية في حوالي الساعة التاسعة والنصف. هل تستطيعون أن تتسببوا بوقفة طويلة للطائرة في اللد؟ فإني أريد أن أتحدث خلال ذلك مع مدير شركة (إيمبورتورك) هل فهمت؟

قال وبدا عليه أنه قد فهم فعلاً:

(نعم) ستحضرون في التاسعة والنصف ويجب أن نسبب وقفة طويلة لتتمكن خلال ذلك من التحدث مع مدير شركة (إيمبورتورك).

قلت بعد أن تنفست الصعداء، نعم بالضبط.

في مطار اللد تناولنا وجبة ساخنة فاخرة، كما هي العادة في شركات الطيران الدولية، وأبلغ الركاب أن الطائرة ستتأخر في المطار بسبب خلل مفاجئ. أنهيت الطعام مسرعاً وقمت نحو المغاسل وهنا مر بجانبي شخص وهمس مسرعاً، فولومي مستر رفاعي - أي اتبعني يا سيد رفاعي - وتوجهنا نحو باب في واجهة مستودع المطار، وبعد أن دخلناه أغلقه رجل آخر، ومررنا بالمستودع المظلم وخرجنا منه إلى السيارة التي كانت تقف خلف المستودع بابها مفتوح تماماً على باب المستودع الخلفي. وما كدت أدخل حتى انطلقت السيارة بي مسرعة، لأجتمع بقائد سلاح الجو الإسرائيلي وأبحث معه في أمر صفقة الرادرات الهندية التي من أجلها أوفدني زكريا محيي الدين.

بدأت الحديث مع قائد سلاح الجو الإسرائيلي قائلاً:

أعتقد أن المصريين وصلوا إلى نقطة اللاعودة. تصور حتى أن البابا (كيرولوس السادس) طالب قبل يومين بتحرير الأراضي المقدسة من أيدي صلبة المسيح، أما ما يحدث في المساجد من الدعوة للجهاد والتحرير فلا يمكن وصفه، فالجماهير تريد الحرب فعلاً.

قال جملة مفيدة واحدة:

(إذا كانوا يريدون الحرب فسنعطيها لهم).

حفلة صاخبة

٣٠ أيار ١٩٦٧

■ كان علي الآن أن ألخص، وبسرعة، التغيرات التي طرأت في الأيام الأخيرة على سلاح الجو المصري، فقلت وأنا أوجه كلامي بشكل خاص إلى قائد سلاح الجو الإسرائيلي الجالس بجانبي:

تسلمنا في المدة الأخيرة (يقصد مصر) عدداً جديداً من طائرات طوبوليف ١٦ وهي القاذفات البعيدة المدى. واصبح لدينا ٢٥٠ طائرة منها. بعضها في (بني سويف) وعشر طائرات في مطار القاهرة غرب وثماني طائرات في مطار الأقصر. ووصلنا كذلك عدد من طائرات (سوخوي ٧) ويقول قادة سلاح الجو المصري أن هذه الطائرات تفوق كل ما لدى إسرائيل.

وهنا قال قائد سلاح الجو الإسرائيلي غاضباً:

- ولكن ذلك يتوقف على نوعية الطيار الموجود في الطائرة.

كان الوقت يمر مسرعاً فواصلت الحديث بدون تعليق:

- طائرات ميج ٢١ تتوارد إلينا باستمرار. ويبلغ عددها حالياً حوالي ١٠٠ طائرة ولكن يصل منها في كل يوم عدد كبير. يقوم سرب من طائرات ميج ٢١ في مطار بير كفكفا بالتقاط الصور الجوية للمنطقة الجنوبية. وهي تمر فوق النقب على ارتفاع ٦٠ ألف قدم

تقريباً وبسرعة ٢ ماك لتلتقط الصور لقواتكم هناك. أعلنت لدينا منذ يوم أمس حالة الطوارئ التامة في جميع القواعد والمنشآت الجوية لأنكم تعتزمون شن هجوم مباغت على مطاراتنا (يقصد المنشآت المصرية).

وتوقفت عن الحديث لأرى الانطباع الذي خلفته الجملة الأخيرة على قائد سلاح الجو الإسرائيلي ومدير الاستخبارات العسكرية. وبالفعل فقد رأيت أن وجه مدير الاستخبارات قد تغير، وأما قائد سلاح الجو فقد فتح عينيه بينما لم يتغير شيء في وجه القائد الكبير (رئيس هيئة الأركان). وإنما ظل ينظر إلي كما كان في البداية، وواصلت الحديث؟

- تعتزمون شن هجوم مباغت على مطاراتنا بواسطة حركة التفاف طويلة من الجنوب، ولذلك فقد نقلنا إلى مطار الغردقة المقابلة لشرم الشيخ ٢٠ طائرة ميج، وحينما تظهر طائراتكم هنا فإن طائرات الميج ستنطلق من الغردقة والأقصر وتصوب مدافعها نحو طائراتكم من الخلف.وواصلت الحديث:

- في مطار الغردقة الآن أكثر من ٢٠ طائرة ميج ٢١ علاوة على سرب ميج ١٩ وسرب ميج ١٧، أما في الأقصر فهناك حوالي ٢٠ طائرة ميج ٢١، ونعتقد أن هجومكم سيكون مع الفجر، في حوالي الساعة الخامسة حسب توقيتكم. ولذلك تقوم في حوالي الساعة السابعة من كل يوم دورية جوية قوامها سرب كامل من طائرات ميج ٢١ بالتجول فوق منطقة الدلتا والقناة. وبنفس الوقت تكون ستة أسراب (٧٢) طائرة ميج ٢١ تنتظر عند أطراف المدرجات للانطلاق عند أول إشارة. فإذا ما ظهرت الطائرات الإسرائيلية في الجو تصدت لها قوات كبيرة. ومن ناحية أخرى فقد قمنا بإبعاد القاذفات من نوع طوبوليف واليوشن ٢٨ إلى الأقصر وهو مطار خارج نطاق مدى طائراتكم. وبعد صد غارتكم الجوية بطائرات ميج ٢١ وطائرات سوخوي، تنتقل طائرات الإليوشن إلى المطارات العسكرية في منطقة القناة ثم تنطلق لتدمير تل أبيب، ولا تحتاج طائرات الطوبوليف الطويلة المدى إلى الانتقال من الأقصر. وإنما ستنطلق من هنا مباشرة إلى إسرائيل وتعود إلى قواعدها سالمة. وقد أصدر صديقي اللواء (دغيري) قائد المنطقة الجوية الشرقية أي منطقة سيناء تعليمات مشددة لجميع القاذفات بأن تكون جاهزة للقيام بغارات ليلية فور سيطرة الطائرات المقاتلة على الجو. وسنضرب إسرائيل في الليلة الأولى بقنابل محرقة. وفي اليوم التالي تقوم طائراتنا بثلاث غارات لكل طائرة على أراضيكم.

وسكت، مفسحاً لهم المجال ليهضموا ما سمعوه ويكتشفوا نقاط الضعف بأنفسهم ورأيت قائد سلاح الجو يغلق عينيه قليلاً. وهو يسألني بصوت مبحوح:

إلى أية ساعة تستمر حالة الطوارئ عندكم؟

قلت: إلى ما بعد الساعة السابعة صباحاً، (حسب توقيتكم) وعند ذلك تعود إلى القواعد جميع الدوريات الجوية، وفي حوالي الساعة السابعة والنصف يخلع الطيارون ملابسهم الجوية وينصرفون لتناول الطعام بما في ذلك المسؤولون عن أجهزة الرادار.

وسألني قائد سلاح الجو:ومن يبقى عند أجهزة الرادار؟

(لا أحد)، قلتها بدون اهتمام وأضفت:

وإنما يغلقون جميع الأجهزة لمدة نصف ساعة أي حتى الساعة الثامنة بتوقيتكم. وعندها يعود الجميع إلى مراكزهم.

وسألني قائد السلاح: هل يغلقون أجهزة الرادار مدة نصف ساعة؟

(نعم)، قلتها وكأنه يسألني عن موعد خروج سيارة الباص وأضفت: ولقد عرفت ذلك من الجولة التفتيشية التي قمت بها قبل أسبوع بأمر من زكريا محيي الدين، وأنا نفسي كنت لا أصدق ذلك.

وسألني مدير الاستخبارات:

وماذا كان رأي محيي الدين بذلك؟

قلت: لم أبلغه به وإنما قدمت له تقريراً عن الحالة السيئة في شباك الأرصفة تلك الشباك التي سيتاح إلى استخدامها إذا ما نجحتم في ضرب المدرجات وأبلغته كذلك عن الفراغ الخالي من الرادار في مكتب سيناء، وأقنعته بأن ينقل سرب ميج ٢١ من مطار الماظة إلى مطار القاهرة غرب ومطار الماظة تجري فيه حالياً عملية تنظيم جديدة وخاصة فيما يتعلق بمنشآت الصيانة والتموين والوقود. أما في مطار القاهرة غرب حالياً فيوجد سرب طائرات (طوبليف وسرب ميج ٢١ وسرب ميج ١٧) وعدد من طائرات النقل.

ورأيت القائد الكبير ينظر إلي ويدق بإصبعه على الطاولة ويقول:

- ماذا تستطيع أن تفعل أنت؟

كنت أفكر بما أستطيع فعله كما سألني القائد الكبير، طوال الليلة التي أمضيتها في اسطنبول وطوال رحلتي إلى هنا، وكانت في رأسي فكرة سطحية جنونية ولكن علي الآن أن أعرضها على هؤلاء المسؤولين بأسلوب جذاب، فقلت:

-أستطيع أن أقيم حفلة.

- حفلة؟ قال القائد الكبير مستغرباً وغاضباً.

قلت: حفلة، نعم، حفلة لطياري النفاثات المصرية، أبطال الأمة الذي اقضوا مضاجع إسرائيل بدون قتال. فلقد سبق لي أن بعت أفكاراً أسوأ من هذه الأفكار وكنت دائماً أجد من يشتري وواصلت:

- حفلة كبرى، مع الشراب، والراقصات، ونجوم السينما وطالبات الجامعات في أحضان الطيارين السكارى. عدد الطيارين هو ٦٠٠ طيار وأعتقد أنه سيأتي منهم حوالي ٥٠٠ طيار إلى حفلة النصر.

وسألني القائد الكبير:

- حفلة انتصار لماذا؟

قلت في نفسي، حلو جداً لقد اشتروا هذه الفكرة ثم أضفت:

لماذا ولأي غرض الحفلة، إن ذلك يتوقف عليكم.

أقلعت الطائرة بسرعة، وخلفت المطار ورائي، حلقنا فوق الجبال التي ترابط فيها قوات الجيش الأردني، ومررنا فوق النهر المتعرج - يقصد نهر الأردن - وتوجهنا إلى الشمال الشرقي وهما في طريق الصحراء السورية لابد وأن تتحرك اليوم أو غداً القوات المصفحة العراقية مسرعة نحو الحدود الإسرائيلية لتزيد من إحكام الطوق الفولاذي على بلدي إسرائيل..

وعدت إلى التفكير بالحفلة، تلك الحفلة السطحية المجنونة التي عرضتها فوافقوا عليها ولم يعد باستطاعتي التراجع عنها الآن.

الجزء الثاني

السفر إلى الهند عن طريق تل أبيب

٢٠ أيار ١٩٦٧

■ كان الرجل ذو البدلة السوداء يتكلم بدون توقف وكان يعرف أن أقواله يجري تسجيلها على مسجل، وأن الرجلين اللذين يجلسان أمامه يستطيعان أن يعودا إلى التسجيل والاستماع إليه مرة أخرى عند الضرورة.

كان الوقت يمر بسرعة، وهو يحاول أن يدلي بجميع أقواله بسرعة، وبدقة وبصورة واضحة، وبالرغم من استعجاله كان يبدو وكأنه يزن كل كلمة، ويتأكد من أنه لم ينسى شيئاً وأنه يتجنب المبالغة، والإقلال من أهمية ما حدث.

كان الرجل ذو البدلة السوداء يعرف جيداً: بأن أقواله ستضع فيما بعد أمام الامتحان والمقارنة بالمعلومات الكثيرة التي تصل من مصادر أخرى. وأن كل شيء يقوله سيقارن بآلاف المعلومات ويجري تفحصه وتحليله لمعرفة مدى الصحة فيه وكأنه سيمر تحت أشعة - رونتجن -.

الزعيم (وهو ضابط برتبة زعيم) الذي يجلس على يساره سيطلب اعتبار أقواله مهمة وصحيحة في حالة عدم تناقضها مع المعلومات المؤكدة الأخرى. ولقد سكت فجأة ثم عاد إلى الكلام وفي لهجته بعض التردد:

يبدو أن ملك الأردن سيقوم بزيارتنا اليوم. وهنا وجه القائد الكبير نظرة قاسية إلى الزعيم. الذي قال بصوت هادئ:

ممن سمعت ذلك؟

فذكر الرجل ذو البدلة السوداء اسم الشخص الذي سمع منه ذلك الكلام وعند ذلك قطب الرجل الجالس على يمينه جبينه وقال:

- هل سيوقع اتفاق؟

قال الرجل الأسود (ذو البدلة السوداء):

نعم وسيعود الجنرال رياض معه.

وابتسم الزعيم من طرف فمه وكانت ابتسامته خليط من الاقتناع.. والمرارة. وقال الرجل الأسود في نفسه، يبدو أنه كان يتنبأ بذلك وأنه لم يخطئ.

وبالرغم من المفاجئات التي فاجاه بها الزعيم إلا أن هذا الرجل الأسود كان يعرف أنه يفهم هذا الإنسان وإنه رجل صافي الذهن، وسريع في تحليل الأمور، يدرك بسهولة صحة أو كذب ما يسمع، ولذلك فإنه قادر وبسرعة على أن يخرج بنتيجة واضحة من المعلومات ويميز الكذب والصدق فيما بينهما. وكان يغربل المعلومات غربلة دقيقة ويستخرج حبات القمح من اكوام التبن. بينما الرجل الثاني الذي أمضى في هذه المقابلة ساعة ونصف، ولا يبدو أن للزمن ثمن عنده، بدا له غامضاً غير مفهوم، فتعابير وجهه لم تكن لتكشف عن شيء، وجبهته العريضة وعيونه القابعة في محجريها، وفمه الثقيل كل هذه جعلت منه - تقريباً - نجماً سينمائياً تتجلى فيه علامات الرجولة ولكن اندماج هذه الصفات مع بعضها جعل من الرجل إنساناً بعكس النجم السينمائي، حتى أن البدلة الرسمية على جسده كانت تبدو أقل من لباس عادي.

دق جرس التلفون، ومد الزعيم يده وسمع على الطرف الآخر صوت يقول:

خمس دقائق، ثم قال:

ارسل لنا إبريق قهوة مع عدد من الكؤوس، ثم وضع سماعة التلفون وقال:

سيأتي بعد خمس دقائق، وفي غضون ذلك سنشرب شيئاً ما، ثم قال موجهاً كلامه للرجل الأسود:

أنت متعب بالطبع؟

(كلا). أجاب الأسود باختصار ولكنني أرغب القهوة. واستطرد:

إن الفرقة الرابعة المصفحة قد تمركزت أمس في مواقعها، ثم انتظر قليلاً ليرى رد فعل كلامه على سامعيه، ولكن الاثنين لم يحركا ساكناً. فقد كان عليهما أن لا يعترفا بشيء أمامه. فإن كل رد فعل معناه أن الرجل الأسود سيعرف أن هناك مصادر أخرى للمعلومات، والمفروض أن لا يعرف الرجل الأسود ذلك.

واستطرد الأسود قائلاً:

إن الفرقة موجودة هنا، وأشار إلى نقطة في الخارطة المفروشة على طاولة أمامه، وأردف:

هنا خلف التلال، وسأله الزعيم بابتسامة يساورها الشك:

هنا؟ ولكن هذه المنقطة عبارة عن صحراء مفتوحة.

وأرسل الرجل الجالس في الجهة اليمنى نظرة قاسية إلى الزعيم ثم هب الرجل الأسود لإنقاذ الزعيم من الموقف الحرج فقال:

لقد أقيمت في المدة الأخيرة. نعم في المدة الأخيرة مواقع محصنة جداً وأقيم فيها مطار صغير في الوسط.

ثم سمعت طرقات على الباب، ودخل ضباط برتبة رائد ووضع على الطاولة طبقاً فيه إبريق قهوة كبير وعدد من الكؤوس، ووعاء للحليب وآخر للسكر، وخلال ذلك أخرج الرجل الأسود منديلاً من جيبه وطأطأ رأسه إلى المنديل على فمه بحيث لا يستطيع الضابط الرائد من مشاهدة وجهه، وسأله الزعيم:

ألا تثق في الناس؟

وهنا رفع الأسود رأسه وصوب نظره إلى الزعيم.

قبل سنوات بعيدة، كان هذا الأسود يدرس في مدرسة زراعية، بينما كان الزعيم يلعب التنس في مدرسة زراعية أخرى، ومنذ ذلك الوقت استمرت طريق كل منهما بشكل متوازي. فالتحق الزعيم بالجيش البريطاني. بينما التحق الأسود بمعسكر لكتائب المغاوير. ثم انصرف الزعيم إلى العمل في هيئة تعني باللاجئين في أوروبا، وبنفس الوقت انصرف الأسود إلى معقل اللاجئين عبر الحدود الشمالية.

ثم قطع الأسود حبل ذكرياته هذه وقال محاولاً الابتسام:

أعمل جهدي من اجل أن يثق الناس بي، وشرب الجميع القهوة، وأدرك الأسود ان هذين الرجلين اللذين يجلسان أمامه قد فهما وهضما المعلومات الجديدة، وليس لها سوى معنى واحد وهو الحرب، فالعدو أصبح الآن يحيط بهم من كل جانب، ودفع إلى الجبهة خيرة قواته، وهكذا أصبحت الحرب على الأبواب، حرب حياة أو موت. ثم قال الأسود ببطء، لقد وصلوا إلى نقطة اللاعودة، فإن كيرلوس السادس القى يوم أمس الأول في الكنيسة القبطية بالقاهرة خطاباً قال فيه:

بانه حان الوقت لاستعادة فلسطين من أيدي من صلبوا المسيح.

واستطرد الأسود قائلاً: تصوروا ما يقول العرب في المسجد، إنني لا أصدق أن باستطاعتهم العودة، فالجماهير العربية لأول مرة في تاريخها التعيس تريد الحرب فعلاً.

وقال الرجل الجالس على اليمين بشدة: سيجروننا إلى الحرب.. وأدرك الرجل الأسود أن محدثه غاضب، إذ كان الشرر يتطاير من عينيه الغائرتين وشعره المسرح قد تناثر، وفجاة انطلقت ضحكة من الرجل الأسود وقال بصوت رقيق: لقد تذكرت.

وعند ذلك سمعت طرقة على الباب، الذي فتح بقوة ودخل منه ضابط برتبة زعيم يرتدي لباس سلاح الجو، وأدى التحية العسكرية بسرعة وابتسم يميناً ويساراً ثم جلس على الكرسي الخالي على يمين الرجل الأسود. وقال الزعيم الجالس على اليسار باختصار:

سمعنا بعض المعلومات العامة التي تقول بان قواتهم أصبح عددها أكثر من ٨٠ الف رجل. وأضاف الأسود بصوت هادئ (١٠٠ الف) ووجه زعيم الجو نظرة إليه بدون أن يفهم

شيئاً وأردف الأسود قائلاً، وحوالي ٨٠٠-٩٠٠ دبابة على الأقل، كما أن الفرقة المصفحة الرابعة تمركزت في خط دفاعي جديد في الجبهة الوسطى، وقيل أنه ستوقع اليوم في القاهرة اتفاقية دفاعية بينهم وبين ملك الأردن. وعاود زعيم الجو النظر إلى هذا الرجل الغريب (الأسود) ثم استدار متسائلاً نحو الزعيم الآخر، وقبل أن يرد الزعيم على استدارة زميله قال الرجل الأسود بصوت هادئ:

نعم ستوقع اتفاقية الدفاع.

ثم دق القائد الكبير بإصبعه عل الطاولة وقال للأسود:

والآن قص علينا بسرعة جميع التغييرات التي حدثت عندكم في كل ما يتعلق بسلاح الجو. وإذا كانت لدينا بعض الأسئلة فنتركها إلى حين، وعدل الرجل الأسود جلسته وقال مركزاً تفكيره:

- نعم، لقد وصلتنا في الأيام الأخيرة قاذفات طويلة المدى وخاصة قاذفات (طوبوليف-١٦).

وسأل الزعيم الجوي، كم عددها؟

فأجاب الأسود:

لدينا الآن حوالي ثلاثين قاذفة. وسلاحنا الجوي يتطور جيداً، ويقول اللواء عزيز صدقي بأن قواته الجوية ضعف قواتكم. وكذلك حصلنا على عدد كبير من طائرات (سوخوي -٧) ويقال بأن هذه الطائرة تتفوق على أية طائرة لديكم.

ورد الزعيم الجوي غاضباً:

ولكن الأمر يتوقف على من يقود الطائرة.. واستطرد الرجل الأسود قائلاً:

لا تزال طائرات الميج ٢١ تصل باستمرار وعددها اليوم حوالي ١٠٠ طائرة تقريباً وهي تعمل حالياً في التقاط الصور العسكرية لقواتكم في المنطقة الجنوبية وتفيد التقارير بأنكم حشدتم هناك قواتاً مصفحة كبيرة.

واعترف الزعيم الجالس على اليسار قائلاً:

نعم.. ثم واصل الرجل الأسود كلامه قائلاً:

على اي حال هكذا تفيد الصور الجوية، ويدل ذلك على أنكم عازمون على القيام بهجوم مفاجئ على مطاراتنا (المطارات العربية).

ثم توقف الرجل الأسود قليلاً وراى أن وجوه الجالسين قد تجمدت دفعة واحدة، ولكنه واصل الحديث بصوت هادئ وكأنه لم ير شيئاً على تلك الوجوه:

- ولهذا أرسلت ٢٠ طائرة ميج إلى مطار (الغردقة) فإذا قمتم بالهجوم من هناك، ستقوم طائرات الميج بالهجوم على مؤخرتكم. وسأله زعيم الجو بسرعة:

كم من تلك الطائرات ميج ٢١؟

قال الرجل الأسود:

معظمها ميج ٢١ وواضح أن هجومكم سيبدأ مع الفجر في حوالي الساعة الخامسة صباحاً حسب توقيتكم. وفي كل صباح قبل الساعة الخامسة يقلع عدد من طائرات الميج للقيام بأعمال الدورية في جميع منطقة الدلتا والقناة، وبنفس الوقت تكون ٧٢ طائرة ميج أخرى على أهبة الاستعداد عند أطراف المدرجات مع طياريها، وفي خلال خمس دقائق فقط، نستطيع أن ندفع إلى الجو قوة جوية لا تقدرون على مواجهتها، وعلى أي حال، لن تتغلبوا عليها. أما معظم طائرات (طوبوليف وإيليوشن ٢٨) فقد أبعدناها إلى مطار الأقصر الموجود خارج مدى العمليات الحربية. بعد أن تنهزم طائراتكم المقاتلة، القاذفة في معارك جوية تخوضها طائرات ميج ٢١، تنتقل القاذفات المقاتلة العربية إلى المطارات الأمامية في منطقة القناة وتنطلق لتدمير تل أبيب. حتى تستطيع من مطار الأقصر أن تقصف حتى قبرص وتعود بسلام.

وخيم الصمت على الغرفة، وأدرك الرجل الأسود أن (الأدمغة) الثلاثة الجالسة أمامه تسجل الحقائق بسرعة، وتقوم بهضمها، وترسم الخطة للتغلب عليها وكيف تناور وتضلل، وكيف تجد الثغرات التي يمكن الإفلات عبرها. وسأل زعيم الجو: إلى أي ساعة تستمر حالة الطوارئ كل صباح؟

قال الرجل الأسود:

تستمر حالة الطوارئ في سلاحهم الجوي إلى ما بعد الساعة السابعة صباحاً بقليل (بتوقيتكم) وعند ذلك تعود الدوريات الجوية إلى الاستراحة وفي الساعة ٧,٣٠ يكون جميع الطيارين قد خلعوا ملابسهم الحربية وانصرفوا لتناول الطعام وبعد ذلك بنصف ساعة يعودون.

ونظر القائد الكبير إلى الخارطة نظرة فاحصة ثاقبة، يتطلع إلى الصحراء وكأنه يريد استكشاف ما فيها. ثم وجه سؤاله إلى الرجل الأسود:

وأنت، ماذا تستطيع أن تفعل؟

قال الرجل الأسود:

حفلة، نعم حفلة لطياري النفاثات المصرية أبطال الأمة أن عددهم حوالي ٦٠٠ طيار.. حفلة أقدم لهم فيها الشراب كما يجب بعكس ما ينص عليه دين محمد، إنها حفلة انتصار مع نجوم السينما والراقصات حتى الصباح

وجه القائد الكبير نظرة أخرى إلى الصحراء ثم قال:

حفلة انتصار؟ من أجل ماذا؟ فرد الرجل الأسود، من أجل ماذا؟ إن ذلك يتوقف عليكم، ونظر إلى ساعته وقال:

علي بالإسراع إلى الطائرة فهي لن تتأخر، وشيء آخر، وهو أنني لن أستطيع أن أذيع لكم باللاسلكي في الأيام القريبة، فقد بدأوا يبحثون في المنطقة التي أسكنها عن جهاز إرسال سري يعمل على موجة مجهولة، وسأكون مضطراً لوقف الإرسال بعض الوقت ويهمني أن أعرف منكم الوقت الذي تفضلون فيه أن أقيم الحفلة للطيارين المصريون وليس أمامكم غير ذلك، ولقد أصبح واضحاً الآن بأن العامل الوحيد الذي يمكن أن يجعل النصر إلى جانبكم هو إحرازكم التفوق الجوي، والتحركات العسكرية التي تقومون بها في الجنوب يمكن أن تخدع اللواء صدقي ولكنها لن تخدعني أنا. ولطالما أن هناك احتمال باصطدام طائراتكم في الجو بطائرات ميج ٢١ فلا فائدة من هجومكم:

وسأله زعيم الجو: ولكن ماذا ستكون النتيجة إذا اكتشفوا أمرك؟

قال الرجل الأسود:

سأذيع لكم مرة واحد بعد غد، بعد الظهر، وأطلب الموافقة على الحفلة التي رمزها (كوثر) فإذ وافقتم فإني سأقيم الحفلة في نفس الليلة وإلا أحاول تأجيلها واتصل بكم مرة أخرى مدة دقيقة واحدة فقط بعد مرور ٢٤ ساعة.

ومرة أخرى سأله زعيم الجو:

ولكن. وإذا اكتشفوا أمرك في اللحظة الأخيرة؟

فهز الأسود رأسه. وكشر عن أسنانه وأشار إلي في الفك السفلي وقال: هل تستطيع أن تفرق بين الطائرة وبين دمي.

وعندما قام لوداعهم سأله القائد الكبير:

لماذا أجدك واثقاً إلى هذا الحد من انتصارنا؟

قال الرجل الأسود:

في سنة ١٩٣٩ كنت أنت في فريق كرة القدم بالمدرسة الزراعية الحكومية. هل هذا صحيح؟

قال القائد: ربما.

واستطرد الرجل الأسود قائلاً:

نحن كنا في فريق مدرسة زراعية أخرى، وكنا نلعب ضدكم، وقبل انتهاء الشوط الأخير بدقيقتين كانت النتيجة (لا تزال متعادلة). وكنت أنت تقف إلى جانب المرمى ووصلت إليك كرة من بعيد ولكنها كانت عالية جداً مما اضطرك للقفز وضربها برأسك نحو مرمانا ولكن ضربتك لم تكن نحو المرمى مباشرة. فقد تعمدت تغيير اتجاه الكرة، فدخلت إلى المرمى في نقطة قريبة جداً من الطرف. وكان من المتعذر إيقاف الكرة ويومها كنت أنا أقف على باب المرمى، وشاهدت عينيك وعزمهما الأكيد وعرفت بأنك ستتغلب علي، ستلجأ إلى الحيلة بحيث لا أستطيع الصمود أمامك.

وبعد برهة قصيرة واصل الرجل الأسود كلامه قائلاً: هل تعرف ما قاله المتفرجون حينما ذهبت لإحضار الكرة؟ قالوا. هل رايتم الضربة التي سددها هذا اللاعب الماهر إنها حقاً ضربة موفقة.

ومد الرجل الأسود يده مصافحاً وخرج. وفي المطار كان مكبر الصوت يعلن الرحلة (٣٢٠) إلى بومبي التي تأجلت بسبب عطل في الطائرة ستخرج في الساعة الحادية عشر وعشر دقائق الرحلة ٣٢٠ ستخرج إلى بومبي بعد ثلاث دقائق، شكراً.

أنهى المسافرون طعامهم الذي قدم لهم من الخطوط الجوية التركية وأسرعوا إلى الطائرة، كان واحد منهم ذو سحنة شرقية يرتدي بذلة سوداء وقد خرج لتوه من غرفة المغسلة ورشف بقية فنجان القهوة بسرعة، وغادر مطعم المطار، يخطو بخطى واسعة نحو الطائرة؟

اللحظة الحاسمة

٣١ أيار ١٩٦٧

■ قال القائد الجالس على رأس الطاولة، بصوت هادئ وكأنه يستعرض مشكلة يومية عادية:

واضح لنا جميعاً، أن اتخاذ قرار ما سيعين بشكل أقرب، ولذلك من المهم أن نتحرر من الاستعجال. والأوامر الحربية التي أعدت يمكن تغييرها وتغيير موعدها المقرر في الساعة ٤,٣٠ إلى الساعة ٧,١٥، وهذه المسألة مسألة تنظيمية ولا يمكن أن تكون مبرراً لإلغاء الموعد المقرر ساعة الصفر إلغاء نهائياً. ومن ناحية أخرى، من المستحسن بالطبع أن يكون لدى الطيارين مجال ليناموا عدة ساعات، ومع ذلك فهذا لا يمكن أن يكون مبرراً مساعداً لتأجيل ساعة الصفر. وإذا حاولنا تجريد المسألة من الأمور القانونية، تبقى أمامنا المشكلة الأساسية وهي، في أية ساعة نستطيع أن نحصل على نتائج أولية ممتازة وأية ساعة يمكننا أن نستخدم فيها النتائج الأولية بشكل أفضل.

وبقدر ما كان هذا القائد يحاول أن يعطي صوته الهدوء كان يشعر بالتوتر يسود الغرفة الكبيرة التي غطت جدرانها خارطة كبيرة للدول المجاورة وكانت على هذه الخرائط دبابيس ودوائر ملونة كبيرة وصغيرة تمثل المطارات العسكرية ومراكز الوحدات المصفحة والمشاة والمواقع المحصنة وحقول الألغام.

ثم تحدث الزعيم الجالس بجانب القائد الكبير وقال: أنا أفضل أن تكون ساعة الصفر في وقت متاخر أي في الساعة ٧,١٥ ذلك لأن مصير الضربة الجوية يمكن ظهوره خلال العشرين دقيقة الأولى، ومن هنا أرى بأن كل عامل يساعد في إنجاح عنصر المفاجأة يكون مهماً جداً، ففي الساعة الخامسة سيكونون بانتظارنا وسيظلون بانتظارنا حتى الساعة الثامنة إلا ربعاً على أبعد تقدير. وكل ما تبق هو ثانوي.

وعاد زعيم الجو إلى ما سبق وأن ما قاله خلال الجلسة هو: لقد بينت لكم رأيي، إن كل شيء جاهز لإنزال الضربة القاضية في الساعة الخامسة صباحاً. والعملية تستند في الأصل على عنصر المفاجأة بحيث لا يشعروا بقدومنا، كما أن ساعة الفجر ملائمة للضربة. وعلى فرض أنهم شعروا بنا لن يقيدنا في ذلك شيء. وستمر ساعتان أو ثلاث ساعات حتى نعرف بوضوح نتائج الضربة، فإذا بدأنا الضرب في الساعة الثامنة مثلا، فلن نستطيع إصدار الأوامر للقوات المصفحة لتبدأ الحركة قبل العاشرة أو الحادية عشر وبذلك ينقضي نصف اليوم من الحرب هدراً.

وقال آخر:

إننا نعرف طيارينا جيداً، وسيؤدون المهمة بنجاح، ولا أهمية كبيرة لعنصر المفاجأة. ويكفي فقط أن ندمر مدرجات المطارات. وبرأيي إن هجومنا في الساعة الخامسة مع الفجر هو أفضل حيث سيكون الطيارون المصريون داخل طائرات الميج وبذلك نقضي على الطائرات والطيارين. وهذا يعني أن لا تقوم قائمة لسلاحهم الجوي لعدة سنوات. ولكن إذا دمرنا الطائرات فقط فإن باستطاعتهم الحصول على طائرات جديدة فوراً.

وهنا جاء دور الضابط الأخير الذي لم يبد رأيه حتى الآن، إنه مدير الاستخبارات العسكرية، ابتسم هذا قبل أن يتكلم. برأيي إنه من الفضل أن تؤجل ساعة الصفر والتقرير الذي سمعناه أمس يؤكد ذلك بصورة قاطعة، وتعلمون أن ذلك التقرير كان من شخص في الداخل هناك، وأقواله أكدت ما لدينا من معلومات، ولكن حينما سمعت تقريره ارتسمت أمامي الصورة بوضوح أكبر وهي.. إن الطيارين يغادرون طائراتهم ويتجمعون في مجموعات ثم يتوجهون إلى غرفة الطعام، وارتسمت نفس تلك الصورة أمامي عن مطارداتهم في العريش وبير كفكفكا، وفايد، والأقصر. وهنا قاطعه ضابط آخر ليقول:

المسألة في غاية البساطة، نحن واثقون من أننا نستطيع أن ندمر الطائرات مع من فيها من الطيارين تصوروا ٢٠٠ أو ٣٠٠ طيار نفاث مدربين جيداً، يقضي عليهم على المدرجات مع طائراتهم.. نحن واثقون من قدرتنا على تنفيذ ذلك. وهنا تساءل الضابط الكبير: ولكن كم طياراً وكم طائرة سيكلفنا هذا العمل؟ وماذا تكون النتيجة إذا استطاع عدد بسيط من طائرات الميج الإفلات والتحليق في السماء؟

وهذا بالطبع أمر متوقع خاصة حينما نعلم أنهم ينتظرون ويتوقعون منا الهجوم. وأنا لست على استعداد للتضحية بطيار واحد مقابل عشرة طيارين منهم، فإذا تمكنا من تدمير طائراتهم على الأرض نكون قد حققنا كل ما هو لازم للنصر.

وساد الغرفة هدوء مطبق، والجميع يفكرون بهذا القرار النهائي الذي لم يكن صريحاً. ولكن زعيم الجو لم يكن على استعداد للقبول به بسهولة فقال:

أرى أنكم تثقون كثيراً، بل ثقة تامة في عميلكم بالقاهرة.

فرد عليه زعيم الاستخبارات:

- نعم، أعتقد أنه خلال الـ١٢ سنة التي أمضاها هناك أثبت نفسه في أكثر من مرة واحدة. وعلاوة على ذلك فلم يحدث أبداً أن قدم لنا أية معلومات غير صحيحة بدون أن يذكر سلفاً أنه يشك في صحتها. ولكنه حينما يقدم لنا معلومات مؤكدة، فإنها تكون مؤكدة صحيحة بالفعل، وحينما يقدم تقديرات يقول سلفاً إنها تقديرات.

وانتصب القائد الكبير واقفاً وقال مع حركة نهائية من يده:

- أنا أعرف انه تلميذ ممتاز لفيشل الكبير، وتلاميذه لا يخطئون أبداً، واستطرد القائد قائلاً:

والآن وبعد أن اتضح كل شيء ماذا ننتظر؟ هل ننتظر أن يشنوا علينا هجوماً مفاجئاً؟

وحاول قائد سلاح الجو أن يعترض على هذه الخطة ولكنه وجد أن الجميع متفقون عليها فاقتنع بها.

انضمام العراق

١ حزيران ١٩٦٧

▣ كانت الكتيبة موزعة على طول المنطقة الممتدة من مستعمرة (جؤليم) حتى الطريق الرئيسي. أما قيادة الكتيبة فكانت في مواقع في طرف المستعمرة بينما تتمركز السرايا بين الأحراج والبيارات وأشجار السرو التي غرست قبل ١٥ سنة حينما كانت الحاجة تدعو إلى توفير العمل لعشرات الآلاف من المهاجرين اليهود. وكانت هذه المنطقة ممتازة بالنسبة لإقامة الجنود حيث أن أشجارها تشكل تمويهاً ممتازاً لهم ولسيارتهم وآلياتهم، كما أنهم يستخدمون الغصون والأوراق الجافة في إشعال النار لتحضير الشاي الساخن وطهي الطعام، وتسخين ماء الغسيل. وفي هذا اليوم قام أفراد الكتيبة جميعهم، بغسل ملابسهم فغداً، السبت سيأخذ كل واحد من أربعة منهم إجازة يوم السبت، بينما تقوم عائلات بقية الجنود بزيارتهم في المعسكر.

وفي الفئة الثانية من السرية الثانية كان قائد الفئة ومساعده يغسلان ملابسهما وينشرانها على حبل معدني مربوط بدبابات نصف مجنزرة مموهة، ويمتد طرفه الآخر ليرتبط بجذع شجرة بيرة. وبعد أن فرغا من نشر الغسيل جلسا لإعداد القهوة والانتظار.

قال قائد الفئة:

يبدو أن الطقس حار اليوم ولذلك أفكر بأن أعيد معطفي فسيتلف هنا، سأسلمه لك غداً لترسله إلى البيت.

قال الجندي:

حسناً سامر على بيتكم حال وصولي إلى المدينة وسأخبر زوجتك بأن تزورك يوم السبت، وتستطيع أن تسافر مع زوجة (روبين)، فلديه سيارة لم تضع قيادة الجيش يدها عليها. ولم تجندها لخدمة الجيش.

أنزل العريف إبريق القهوة عن النار، ثم أعاده ليغلي قليلاً ثم سكب منه في علبتين من الصفيح. تستخدمان كفناجين للشاي ثم قال:

آمل أن يكون هذا السبت آخر سبت لنا في هذا المكان، فإما أن تصدر لنا الأوامر بالحركة إلى الأمام أو يعيدونا إلى دورنا، إذ كم من الوقت يمكننا البقاء هكذا على هذه الحال؟

قال الجندي: لقد تحدثت مع نائب الاستخبارات وقال لي:

إنه ترابط مقابلنا في خان يونس كتيبتان. أعتقد أن أفرادهما من الفلسطينيين. والجنود الفلسطينيون أمهر من المصريين ولن يكون من السهل علينا احتلال خان يونس.

ورد العريف بغضب:

ومن قال أننا سنذهب إلى خان يونس ومن أين تعلم عدد قواتنا؟ هل رأيت قواتنا المصفحة وقوات المدفعية المنتشرة في جميع أنحاء المنطقة؟ فتحت كل شجرة دبابة أو مدفع ومع ذلك من المحتمل أن يبلغونا غداً بالعودة إلى منازلنا.

وهنا، قالت المجندة النائبة بانفعال:

إنه نداء التوجيه اللاسلكي.

وحركت النائبة زراً على جهاز اللاسلكي وراحت ترسل بسرعة، ثم انتهت وأعادت الزر إلى مكانه على الجهاز ونظرت إلى الإشارات الظاهرة على الورق. ثم قطعت قصاصة الورق

من الجهاز وسلمتها إلى النائب الواقف خلفها الذي قام بحل الرموز اللاسلكية وحولها إلى حروف عادية وقال للضابط الواقف بجانب اللاسلكي. إنه يريد أن يعطي خبراً مهماً.

فقال الضابط للنائبة:

هل هناك شيء غير هاتين الكلمتين؟

قالت النائبة:

نعم وأشارت بيدها علامة البدء ثم الكلمتين، وعلامة الانتهاء واستعدت لاستقبال الإرسال اللاسلكي، ثم سلمت ما استقبلته إلى الضابط وأغلقت الجهاز وقرأ الضابط:

بأن من طائرات ميج ٢١ وسرب من طائرات طوبوليف ١٦ (تكرار) انتقلت الليلة من الحبانية في العراق إلى (إش. ثري). يجري تعزيز القوات الجوية في العريش جبل لبنة، بير ثمادة، بير كفكفا (٠) دبابات من نوع تي-٥٥ العدد غير معروف أرسلت إلى سيناء. انتهى.

طـوق الكمـاشـة

٢ حزيران ١٩٦٧

■ (هـذا هـو)، قالـتها المجـندة النائـبة ثـم راحـت تضـغط عـلى زر جهـاز اللاسـلكي، وكانت الإذاعة قصيرة جداً. كلمتان فقط، (تأجلت الحفلة)، ثم أغلقت الجهاز.

جلـس الـ ١٩ مدنـياً حـول الطاولـة مـن الجهة اليمنى[١] للغرفة وجلس الـ(١١) عسكرياً في الجهـة اليسـرى. افتـتح الجلسـة المدنـي الذي يجلس على رأس الطاولة من اليمين وكان وجهه مـتهكماً وصوته متعباً. وأعطى صلاحية الكلام للـرجل العسـكري الـذي يجلس عـلى رأس الطاولـة مـن الجهة اليسرى ألقى الرجل العسكري نظرة على وجوه المدنيين وقال وهو جالس: بالطـبع تعـرفونه كلكـم، وأشـار بـيده إلى الزعيم الذي خلع قبعته التي تحمل شعار المخابرات ووضـعها عـلى الطاولـة أمامـه، واقترح أن يبدأ هو بالكلام أمامكم لاستعراض قوات العدو، أقول العدو وليس الأعداء، لأن جميع المعلومات تشير إلى انه يقف مواجهتنا عدو واحد موحد فقط.

وقـام الزعـيم مـن مكانـه وبالـرغم مـن قامـته القصيرة، والابتسامة التي لا تكاد تفارق شفتيه. فقـد نجـح في أن يضـفي صـفة الدراماتيكـية عـلى كل حركة من حركاته، وعلى كـل جملـة نطق بها. وأزاح بـيده سـتاراً كـان يغطي خارطـة ضـخمة وراح يشـرح بإسهاب، كأستاذ يعد طلابه لفحص في مادة درسوها قبل مدة وجيزة.

---

(١) وصف لجلسة مجلس الوزراء الإسرائيلي.

القوة الرئيسية للعدو، موجودة، وبالطبع في الجنوب، وبالنسبة لقطاع غزة يمكن القول بسهولة أن القوات العسكرية فيها ضوعفت تماماً منذ الخامس عشر من شهر مايو الماضي. أما في سيناء، كما قلت في اجتماعنا السابق فقد ازدادت القوات فيها من فرقة واحدة إلى ست فرق، وبدخول الفرقة المصفحة الرابعة التي تعتبر من خيرة الفرق المصرية إلى سيناء فإن عدد قوات العدو في الجنوب يصبح (١٠٠ ألف) رجل تقريباً، ومعهم حوالي ١٠٠٠ دبابة، وكنا نعتقد أن الأمر انتهى عند هذا الحد، ولكن يا للأسف الشديد علمنا في اليومين الأخيرين من مصادر موثوقة للغاية أن قوات العدو لا تزال تصلها التعزيزات بل في هذه الأيام تماماً وصلت إلى مصر شحنة جديدة من الدبابات الروسية الحديثة، وهي أحدث من أي نوع من الدبابات نملكه نحن، يجري إرسال تلك الدبابات إلى سيناء رأساً. كذلك يجري تعزيز القوات الجوية في سيناء بصورة مستمرة، والعدو مستمر في استقبال الطائرات الحديثة التي تتفوق من الناحية الفنية على الطائرات الحديثة الموجودة بحوزتنا. ولكن يبدو لنا أنه في الأيام الأخيرة أصبحنا نواجه خطراً جديداً ولا أعرف إذا كان هذا الخطر الجديد أكبر من خطر القوات المصرية في سيناء. تعلمون أن اللواء رياض، المصري، أقام قيادته في عمان ووضع تحت تصرفه الجيش الأردني بفرقتيه المقاتلتين والـ ٢٠٠ دبابة الموجودة هناك. وستبدأ اليوم بالالتحاق الوحدات العراقية المرسلة إلى الأردن.. وهي عبارة عن فرقة مشاة مع فرقة مصفحة حوالي ١٥٠ دبابة.

وهذا يعني أن قوة مصفحة قوامها ٣٥٠ دبابة ستبدأ بتهديدنا منذ الغد مباشرة، وخاصة في منطقتي القدس وتل أبيب، وتفيد المعلومات المتوفرة لدينا أن القوات العراقية المصفحة ستبدأ اجتياز نهر الأردن يوم الأحد أو الاثنين وتتجمع كلها. في الضفة الغربية في النصف الثاني من الأسبوع المقبل وعلاوة على ذلك، فإن الوحدات الممتازة في سلاح الجو العراقي هي طائرات مقاتلة وقاذفات طويلة المدى، وقد انتقلت إلى مطار وأشار الضابط بعصا طويلة في يده على مكان المطار على الخارطة، واستأنف حديثه قائلاً: وبذلك أصبحت الآن جميع المنطقة الشمالية من إسرائيل في مدى الطائرات الحربية، كما أن إسرائيل كلها أصبحت في مدى قاذفات طوبوليف.

وهنا سأله أحد المدنيين قائلاً:

ما هو مدى قاذفة الطوبوليف؟

فرد عليه الزعيم: ٢٤٠٠ كيلومتر ذهابا ومثلها إياباً. ويعني ذلك أن طائرة طوبوليف تستطيع أن تقلع من مطار (إش. ثري) وتقصف إيلات وتعود إلى مطار (أي. ثري) بدون أن تحتاج إلى توقف أو تزود بالوقود، وتكرر قصف إيلات وتعود إلى قاعدتها مرة أخرى.

هذا وقد علمنا أن قوات سعودية تقترب من خليج إيلات وأن طائرات مصرية تحلق فوق النقب، وتقوم بالتقاط الصور لقواتنا هناك. ولما كنا نعلم أنها ترابط قرب الكونتيلا فرقتان للعدو فيمكننا أن نتصور أن خطتهم الحربية تنص على شن الهجوم على جنوب النقب وعزل إيلات والاتصال بالقوات الأردنية والسعودية.

وسأله أحد المدنيين: - تقصد الطائرات المصرية تحلق فوق أراضينا؟

- نعم، قال الزعيم، ثم جلس وأنهى حديثه. وعاد المدني يسأله:

أعني أنهم قادرون على النزهة في أجوائنا؟ ورد عليه بسرعة قائد آخر:

لا يقدرون على التنزه ولكنهم يقومون بالمرور فوقنا، ويا أيها السادة إن الأسلحة التي بحوزتهم حديثة أكثر وعددها أكبر وهي تزداد من يوم ليوم كما استمتعتم من قبل. وبدا الرجل العسكري الجالس على رأس الطاولة الحديث بهدوء وقال:

لم أكن أريد أن أخرج عن نطاق الحقائق العسكرية المجردة، فمهمتنا الوحيدة هنا يا سادة أن نكون تحت أمرتكم نقدم لكم المعلومات والمشورات. والحقيقة التي نقف أمامها الآن وهي حجم وكثافة قوات العدو وسلاحه. قبل يومين، كنا نعتقد أن حشد القوات قد انتهى، ولكنه اتضح لنا فيما بعد أن القوات لا تزال تصل إلى الجنوب وخلقت وضعاً جديداً في المنطقتين الجنوبية والوسطى، وأما بالنسبة للمنطقة الشمالية - الجبهة السورية - فمع أن الحالة هناك تكاد تكون جامدة، فلا تزال للعدو قوات كبيرة ممتازة. وأن انضمام الجيش العراقي إلى الجبهة ليربط جميع الجبهات ببعضها البعض أمر في غاية الخطورة. وإذا بقينا ساكتين، نسمح للعدو أن يعزز قواته في كل مكان فسنواجه قوات عسكرية قوامها أكثر من نصف مليون جندي وأكثر من ٢٥٠٠ دبابة وحوالي ١٠٠٠ طائرة خط أول، هذه قوة كبيرة هائلة.

مناورة بالذخيرة الحية

٣ حزيران ١٩٦٧

▣ خطر، منطقة مناورات، الدخول ممنوع بتاتاً. ممنوع المرور منطقة نيران حية، الدخول ممنوع. المخالف يعاقب. خطر الغام. الحذر. حاجز قف للتفتيش.

كانت المنطقة كلها محاطة بالأسلاك الشائكة. كما أن الأراضي المناسبة لمرور السيارات أغلقت وزرعت فيها حقول الألغام. وعلى طول امتداد الأسلاك الشائكة وحقول الألغام كانت تقوم بأعمال الدورية الشرطة العسكرية التابعة لسلاح الجو. وفي قلب هذه المنطقة الصحراوية في منخفض بين التلال كانت تنساب مياه وادي. وبالقرب منه حيث الوادي ينعطف عطفة حادة، أقيم المطار العسكري. وكانت مباني المراقبة والقيادة تقوم في طرف المدرجات الطويلة، ومن خلفها مباني السكن وقاعة الطعام. وإلى جانب المدرج الداخلي في منتصف المسافة، أقيمت بناية صغيرة، هي غرفة الإسعافات الأولية. وعلى المدرج الذي تقوم بجانبه بناية المراقبة كانت تقف سيارات الوقود. وعلى بُعد منها سيارات الإطفائية. وبالقرب من مباني السكن كان يجري إعداد المدفعية المضادة للطائرات. ثم بدأ الجنود يتجمعون قرب قاعة الطعام. وجرى لهم طابور تفقد. ثم انطلق صوت صفارة الإنذار، فهرع الجميع إلى الملاجئ الأرضية. وانطلق بعد ذلك صوت صفارة أخرى وأعلن مكبر الصوت ثلاث دقائق للرماية. وبالفعل خلا المطار من كل شيء، وانطلق صوت بطاريات المدفعية المضادة للطائرات تستعد... ثلاث دقائق الصفارة وتبعه مكبر الصوت يعلن دقيقتين للرماية. وظهرت

طائـرات الفيـتور مـن خـلال الـتلال وكأنهـا تلامـس - رؤوسـها ومـرت مسـرعة فتصـدت لـهـا المدفعية المضـادة بـنار كثـيفة، ومـا أن وصـلت الطائـرات ومـرت بارتفـاع بـرج المراقـبة وألقت بقنـبلة على المدرج، وواصلت المدفعية المضادة رمايتها، ثم ارتفعت هذه الطائرة لتنقض طائرة أخـرى عـلى نفـس المكـان وألقـت قنبلة أخرى وعادت إلى الارتفاع.واشتعلت النيران على الأرض ثـم عـادت الطائـرة الأولى لتـنقض مـرة أخـرى، واشـتعلت النيران في كل مكان بالمطار وراحت سـيارات الإطفـاء تعمـل لتحاصـر الـنيران، وفجـأة شـوهدت طائـرتان ميراج تنطلقان من الأفق، لتقفا فوق المطار تماماً وتنطلق منهما القنابل ثم ترتفعان.

انتهت المناورة وتولت السيارات إصلاح أرض المطار.

مفتـــاح الســر

٣ حزيران ١٩٦٧

▣ وصل الرجل بإحدى سياراتهم العسكرية، التي كانت تقف خلف البناية وفي الكراجات، وسرعان ما غادرت هذه السيارات المكان لئلا تخلق بوجودها تحشدات مشبوهة. في الساحة كان العمال يحفرون ملجأ، وفي الداخل ركب الرجال مصعداً كهربائياً صغيراً نزلوا فيه إلى الأسفل إلى طابق تحت الأرض يحميهم من الغارات والقنابل. كانوا يأتون واحداً واحداً،وفي بعض الأحيان، كل اثنين معاً، ذلك لأن القائد الكبير لم يسمح بالسير لأكثر من رجلين معاً. وكل واحد منهم ترك خلفه نائباً يقوم محله، بعد إعطاءه تعليمات واضحة في كيفية التصرف والعمل في حال تأخره.

جلس الجميع حول الطاولة الكبيرة. كان عددهم أكثر من عشرين رجلاً، ولكن أعمارهم متقاربة، هؤلاء هم الرجال الذين ألقت على عاتقهم أضخم الأعمال التي يمكن إلقاؤها على عاتق إنسان.ودخل الآن الرجل الأكبر سناً فيهم، يفرض على نفسه نوعاً من الجدية، إجلالاً لهذا الاجتماع وساعته. ولكن بالرغم من تقدمه في السن إلا أنه كان يبدو أكثر شباباً من الجميع، وكله حركة ونشاط. ووجه القائد الجالس على رأس الطاولة نظرة فاحصة لهذا الرجل القادم. وبعد أن أخذ الجميع مقاعدهم قال القائد: لنسمع في البداية تقارير المخابرات الأخيرة، وبعدها نتخذ قراراً عاماً ونضع خطة مقبولة بالنسبة للمنطقة الجنوبية. وقد طلب إلينا وضع خطة مقبولة، خطة نهائية. وقبل ذلك سأعلمكم

بما يجب أن تفعلوه في قياداتكم. وابتداءً من الساعة ١٢,٠٠ من اليوم ولمدة ٤٨ ساعة ستصدر إليكم إشارة جديدة لشن الهجوم على الجنوب حينما يقوم العدو بأية أعمال عدوانية تلك الإشارة الجديدة هي (سدين ادوم - اي بساط احمر). وخفض المتحدث صوته قليلاً حينما ذكر الإشارة وكانه كان يخشى أن تتسرب إلى أذن غريبة. ثم اصدر الأمر للزعيم مدير الاستخبارات بأن يبدأ الحديث ووقف الزعيم على طوله رغم قصر قامته وراح يتحدث:

- تشير التقارير الأخيرة جميعها بوجود التحشدات في الاتجاه المعروف لديكم جيداً. ففي المنطقة الجنوبية يستمر العدو بالتحصن، وخاصة في الأماكن التي رابطت بها قوات جديدة، كما لا تزال التحشدات العسكرية للعدو تتوالى مع أن وصولها في المدة الأخيرة أصبح قليلاً. وهنا سأله الرجل العجوز: من أين تصل تلك القوات؟ من اليمن، فهم يسحبون من هناك وحداتهم المقاتلة بهدوء ويحولونها رأساً إلى سيناء كذلك وصلت، ولا تزال تصل قوات صغيرة من إمارات البترول علامة على اشتراكها في الجهاد. وأعتقد أن الخطوط هناك أصبحت مشبعة بالقوى البشرية. كذلك انتهى نقل القوات الأرضية إلى جنوب سيناء ولكن أحب أن أقول لكم إننا نجحنا في تحقيق كسب كبير ففي هذه الساعات بالذات تبحر مجموعة مع قطع البحرية المصرية تتألف من مدمرتين وست فرقاطات على الأقل عبر قناة السويس إلى البحر الأحمر، لمنعنا من القيام بهجوم بحري على شرم الشيخ. وهذه القوة البحرية ستكون منذ الغد معزولة من جانبنا، ذلك لأن تلك القطع البحرية لن يكون لديها الوقت بل لن تتجرأ على اجتياز القناة عائدة إلى قواعدها حينما نهاجمها. وواصل مدير الاستخبارات حديثه قائلاً:

إن تحويل تلك القطع البحرية المصرية إلى الجنوب، يوضح لنا أن عملية التضليل والتمويه التي قمنا بها قد نجحت وأدت إلى إضعاف الجبهة البحرية المصرية في نفس المنطقة التي نكرس لها من اهتمامنا ٢٠٪ تقريباً. وكذلك أدت عملية التضليل تلك إلى إضعاف القوات البرية المصرية بمعدل ٢٠٪ وكذلك إضعاف القوة الجوية المصرية بمعدل ٣٠٪ حرك الحضور رؤوسهم علامة الموافقة، وكل منهم تصور امام عينيه مئات الجنود حكم عليهم بالموت. ومئات الدبابات والآليات والطائرات التي أنقذتها عملية التضليل والتمويه تكمل الدمار. وكان ذلك بمثابة بشرى أولية بعد سلسلة من التهديدات المعادية. ثم واصل مدير الاستخبارات حديثه قائلاً:

أما في الجبهة الوسطى مع الأردن فقد ظهر تأخر في نقل القوات العراقية إلى الضفة الغربية ويبدو أنه لن تصل إلى الضفة الغربية خلال اليومين القادمين سوى وحدات استطلاع بسيطة. بينما لن يبدأ وصول القوات المصفحة إلى الضفة الغربية إلا في منتصف الأسبوع. بالنسبة للعمل التمويني في الجبهة الأردنية فالمعلومات تفيد أنه قائم على قدم وساق، حتى ذروته. وفيما يتعلق بالمحاور والطرق الملائمة لنقل السلاح المصفح عليها إلى الضفة الغربية فجميعها مزدوجة الأمر الذي يعطينا فرصة من الوقت. والآن عن الجبهة السورية. هناك تحركات عسكرية متعارضة، تحركات عسكرية نحو الجبهة، وتحركات عسكرية من الجبهة إلى المؤخرة، ولذلك من العسير علينا أن نعرف عدد وحجم القوات هناك. والمعلومات المتوفرة لدينا تفيد أن اللوائين المصفحين (وهما ممتازان) المرابطان قرب دمشق لم يتحركا من مكانهما. أما ألوية المشاة الخمسة التي تساند كل لواء منها كتيبة مصفحة فهي موزعة كما كانت في السابق، ثلاثة ألوية على طول الحدود، ولوآن قرب القنيطرة وهناك قوة ضاربة خاصة تشمل أربعة ألوية مشاة ولواء مصفح واحد ترابط في المرتفعات السورية، وذلك لتقوم على ما يبدو بهجوم على الأراضي الإسرائيلية عن طريق مستعمرة (مشمار هيادرن) باتجاه مدينة حيفا.وبالإضافة إلى هذه الصورة من المعلومات عن قوات العدو التي قدمتها لكم فهناك تحركات عسكرية أخرى لم نستطع التأكد منها حتى الآن.

وبعد توقف قصير، واصل حديثه قائلاً:

على العموم يبدو الوضع اليوم أكثر وضوحاً منه بالأمس، وأفضل بالنسبة لنا، ذلك لأن تأخر وصول الفرقتين العراقيتين وتفرق القوات البحرية المصرية في هذا الوقت بالذات، أمر في صالحنا. وجلس مدير الاستخبارات ولوحظ أن الجبهة السورية غامضة أكثر من غيرها في جميع تقارير الاستخبارات الإسرائيلية. والسبب في ذلك أن العميل الإسرائيلي الموجود في دمشق قبض عليه هناك، ولم يبق من يقدم المعلومات عن القوات السورية غيره. والأنكى من ذلك أن القضاء على ذلك العميل جاء نتيجة لأخطاء لا يمكن غفرانها. وعاد الرجل الجالس في صدر الطاولة إلى الحديث فقال:

يجب علينا أن نبحث الآن فيما يتعلق بالجبهة الجنوبية فقط. وعلى وجه الخصوص يمكن التركيز على سيناء فقط. أما بخصوص قطاع غزة فالخطة منتهية ومتفق عليها. بالنسبة لسيناء، فهناك كما تعلمون خطة حرميش وخطة بطيش. وتتلخص الخطتان

بالقيام أثناء الهجوم بعملية اختراق في تلك المنطقة بثلاث محاور، وتقوم قواتنا بالعمل في هذه المحاور كل على حدة أي بدون قيادة جماعية. ولتوضيح الخطة أكثر أقول تقوم وحدتان كبيرتان بعملية الاختراق في محورين. أما القوة الثالثة فتكون مهمتها في البداية سد طريق النجدات المعادية التي يمكن أن تعترض تقدم الوحدتين، وبعد ذلك تقوم القوة الثالثة بقطع الطريق على قوات العدو لتمنعها من الفرار والتراجع ثم ضربها والقضاء عليها.

وهنا دخل رجل جديد لوحظ ان وجوده غريب في هذه الغرفة، وبدأ الحديث على الفور قال:

تعرفون أنه طلب إلي (كخبير عسكري) أن أقدم تقريراً عن كيفية عمل الجهاز التمويني في الجيش المصري خلال هجوم شامل. وبمعنى آخر، كان واجبي أن أضع تقريري على ضوء المعلومات الاستخبارية التي قدمت لي، وأهم نقطة في ذلك هي هل يستطيع جهاز التموين والإخلاء المصري أن يعمل بانتظام خلال قيام القوات المصرية بهجوم شامل علينا، وخلال قيام قواتنا بهجوم شامل عليهم؟ وهناك بالطبع فارق جوهري بين الهجومين.

أيها السادة! على ضوء المعلومات التي تسلمتها منكم، وجدت أن عدد القوى البشرية، وكميات السلاح المصفح والآليات وطرق النقل والمواصلات ومحاور الحركة والإخلاء ومقارنة القوات في الجانبين عندنا وعندهم وكميات الأسلحة، وكميات المعدات التي يجب تحريكها وراء الوحدات أثناء الهجوم أقول وجدت بعد الإطلاع على كافة المعلومات المتقدمة أن الجيش المصري في سيناء، وهنا نطق كلماته من خلال الضغط والتشديد على كل حرف وكلمة غير قادر على شن هجوم شامل.

هنا كان السكون في الغرفة مطبق، وواصل الخبير حديثه:

إن الجيش المصري في سيناء يستطيع فقط أن يقوم بهجوم جزئي وبواسطة جزء من قواته وفي جزء معين من الجبهة فقط. ولكن إذا قام بهجوم شامل فإنه سيقع حتماً وقبل أن تمر على هجومه ٢٤ ساعة في فوضى كبيرة بالنسبة لقوافل التموين والإخلاء ومحاور الحركة المغلقة التي يفترض أن تعبرها الوحدات لتحافظ على قوة الهجوم. وسينتج على تلك الفوضى كذلك أن تصبح وحدات الجيش المصري تركض مقابل بعضها البعض وتتوقف الدبابات بسبب نفاذ الوقود، وتتعطل مختلف الكتائب بسبب نفاذ ذخيرتها وعتادها. وبالطبع

يتوقف هذا كله على وجود مقاومة منتظمة من جانبنا، فإذا ما استطعنا أن نحتفظ بمثل تلك المقاومة لمدة يوم واحد فقط نستطيع أن نوقف الجيش المصري ونشل وحداته.

وقام أحد الحضور يسأل الخبير:

- ما هي الأسباب التي يمكن أن تؤدي إلى حدوث الفوضى في الجيش المصري؟..

أجاب الخبير:

- السبب وجود عدد هائل من الجنود، وعدد هائل من الآليات والسيارات في الوحدات، وعدد هائل أكثر من اللازم من الأسلحة الثقيلة وأكثر من اللازم وجود الذخيرة والعتاد. كل شيء في الجيش المصري زائد عن الحد المطلوب، كل شيء مبالغ فيه بالنسبة لظروف المنطقة وحجم الجبهة فكل شيء محشو ومحمل فوق القدرة الاستيعابية. وعلاوة على ذلك، فنحن لم نذكر شيئاً حتى الآن عن النواحي الأخرى مثل الصيانة ومعنويات الوحدات، والقدرة على المبادأة والعزم. والواقع أن هذه نواحي يصعب إخضاعها للحساب الدقيق. ولكن إذا أضفناها إلى الأسباب السابقة نصل إلى نتيجة أن الجيش المصري في سيناء سيقضي على نفسه بنفسه عند محاولته القيام بهجوم شامل، والسبب في ذلك كله يرجع إلى إدارة وحدات بشرية ومادية (أسلحة ومعدات) كبيرة الحجم بدون الاعتماد على العمل بالأساليب العلمية الحديثة. وهنا كان الحضور يرمون المتحدث بنظرات تنطق بالشك وعدم الثقة بكلامه فمع كل تجاربهم وخبراتهم الواسعة، كانت النتيجة التي أفضى بها أمامهم يصعب تصديقها. فالعدو حشد في منطقة صحراوية ذات محاور حركة متباعدة قوات عسكرية حديثة، تتوفر لها جميع أسباب التفوق وإحراز النصر. ومقابل ذلك فإن القوات الإسرائيلية ستتعرض حتماً للخطر بسبب حشدها في جبهة ضيقة، ويترتب عليها مهاجمة مواقع محصنة للغاية. بعد ذلك واصل الخبير العسكري الحديث: بالنسبة لاحتمال صمود الجيش المصري أمام هجومنا، فقد وصلت إلى نتيجة واحدة وهي أن باستطاعة قواتنا أن تشن هجوماً، على منتصف الجبهة وبقوات لا تزيد على ثلاث فرق فقط. وليس المهم هنا الجبهة التي ستشن الهجوم عليها، ولكن المهم هو أن تكون قواتنا على مقدرة من شن هجوم شامل والصمود فيه. وعلى أي حال إذا استطاعت قواتنا أن تشن مثل ذلك الهجوم وتستمر وتصمد فيه سيحدث أمر بسيط وهو بعد مرور ثلاث ساعات فقط على الاشتباك بين قواتنا وقواتهم يبدأ الجهاز التمويني المصري بالتخبط والفوضى، ثم خلال ١٢ ساعة ينهار كلية بل انهياراً تاماً.

والآن سؤال: ماذا يحدث فعلاً، إذا قمنا بمثل ذلك الهجوم؟ هل نستطيع أن ننفذه ونستمر فيه؟

الجواب: نعم نستطيع أن نقوم بمثل ذلك الهجوم، ونستطيع أن نستمر فيه بشكل متواصل حتى اسبوعين ولكن ليس لنا حاجة بذلك، فكما سبق أن قلت على ضوء المعلومات المتوفرة لدينا: إنه بعد مرور ٢٤ ساعة على هجومنا ستنهار الجبهة المصرية وتتفكك إلى وحدات منعزلة من الناحية التموينية، وعندها ما الذي يستطيع أن يقف في وجه سلاحنا المصفح من التقدم نحو قناة السويس؟

الأوامر الأخيرة

٣ حزيران ١٩٦٧

■ قالت المجندة: لقد جاء مبكراً يريد أن يدلي بخبر، فهل نبدأ نحن بإرسال أخبارنا؟ قال لها الضابط، نعم. وأذاعت النائبة من جهاز اللاسلكي أجل الحفلة، اتصل بعد ١٥,٠٠ أنهت الإرسال وتحولت إلى الاستقبال. لاحظت من صوته أنه عصبي المزاج اليوم، فاقفلت الجهاز فور انتهاء الخبر، الذي حولته إلى نائب يجلس خلفها. كانت المجندة هذه تعرف جيداً السبب الذي من اجله قيل لها أن عليها أن تختصر قدر الإمكان في الاتصال اللاسلكي، وكانت تفهم الخطر الذي يواجه الرجل البعيد وهو يرسل ويمنع القيام بهجوم (٠) إجازات للطيارين يومي ١و٢ (٠) ولا مضمون ما تستقبله أو ترسله له. وقام النائب بحل رموز اللاسلكي على نموذج خاص بذلك، وأحال المادة إلى الضابط نظر الضابط إلى الورقة وابتسم لأول مرة منذ عدة أيام ابتسامة عريضة. كان نص الرسالة: ديمتري يمنع القيام بهجوم (٠) إجازات للطيارين يومي ٢و٣ (٠) القيادة العليا تزور سيناء صباح يوم ٢ انتهى. وضع الضابط الرسالة في مغلف سري وكتب على طرفه بالأحمر، سري للغاية، مستعجل، وسلمه إلى مراسل عسكري وأمره بتسليمه يداً بيد للقائد الكبير.

في بناية قرب الطريق قام العريف من الفئة الثانية في السرية الثانية بتقطيع الكعكة التي احضرتها زوجته التي وصلت بالسيارة مع زوجة (روبين)، إلى قطع صغيرة، وسكب الشاي

في أكواب من الشمع فقد أصرت زوجته بأن يستخدم هو وزملاؤه الجنود أكواب الشمع بدلاً من علب التنك الفارغة، وقال لزوجته:

إنها كعكة لذيذة أنت التي صنعتها، قالت: كلا، لقد زارتني والدتي وهي التي صنعتها فإني لا أجد وقتاً لذلك بسبب الأولاد، زيادة على التوتر وحفر الملاجئ. وسألها:

أي توتر؟ لماذا أنتم متوترون؟ فبعد أيام قليلة سنعود. قالت:

جميعهم عندنا يقولون أن الحرب على الأبواب ويقولون بأنه ستقع خسائر كبيرة هذه المرة بسبب الطائرات والأسلحة الروسية الحديثة الموجودة لديهم.

قال غاضباً: ماذا تقولين؟ ليتك شاهدت أسلحتنا يبدو أنك لم تشاهدي في الطريق جميع قواتنا ودباباتنا ومدفعياتنا وأنا مع الأسف لا أستطيع أن أكشف لك عن ذلك، الآن كيف حال الأولاد؟

على بُعد بضعة كيلومترات منهما، كان ضابطان من الفرقة عشرين التابعة للجيش الفلسطيني، ينظران بالمناظير على مستعمرة إسرائيلية قرب الحدود. والمناظير الروسية الجديدة، هي من نوع ممتاز. كانت تقرب أمامهما المستعمرة حتى طول اليد. وقال أحدهما لصاحبه:

امدد يدك وامسك (بنت الكلب) تلك التي تمشي في المستعمرة أمامنا. ليتهم يسمحوا لكتيبتنا بالعمل والتقدم إلى الأمام.

ورد عليه زميله وكان برتبة ملازم:

ماذا تقول يا عباس؟ هدوء، هدوء تام، لا حرب ولا شيء؟ كنت أتصور أنهم سيسمحوا لنا هذه المرة بالتقدم نحو، وتنهد الملازم قائلاً: ليتهم فقط يعطونا هذه المستعمرة مدة نصف يوم.

ورد عليه صاحبه غاضباً:

لا تكن أهبل. فإذا نشبت الحرب سنضطر إلى إراقة دماء كثيرة قبل أن نتمكن من الاستيلاء على بناتهم. فسيقاتلون حتى النهاية وليس لهم مفر من ذلك.

قال الملازم: هذا صحيح، ولكن ليسمحوا لنا بالتمتع قليلاً بعد الانتصار أم تريد أن نقاتل نحن بينما يستولي أولئك القابعون في المؤخرة على بنات الكلب. وانتهى حوارهما بينما استمرا في المراقبة.

كان اليوم يوم سبت حار. ومنطقة الشرق الأوسط كلها تسودها رياح خماسينية جافة. والجنود بأسلحتهم يستسلمون لحرارة الطقس بدون مقاومة.

كانت الإشارة اللاسلكية هذه المرة طويلة بعض الشيء وصدرت التعليمات من إسرائيل إلى الرجل الموجود في القاهرة تقول له:

قم بالحفلة غداً، أكرر قم بالحفلة غداً.

حبل المشنقة

السبت ٣ حزيران ١٩٦٧

■ (كان يبدو ان جميعهم من الشباب)، أكمل القائد الكبير حديثه قائلاً: يوم الاثنين المقبل في الساعة السابعة و١٥ دقيقة تخرج جميع الطائرات في عملية سريعة. ونأمل أن تعود خلال ساعة من بدء العملية جميع طائرات الدفعة الأولى. وفي الساعة الثامنة و٢٠ دقيقة ستكون لدينا الصور الجوية عن عمل طائراتنا.وإذا لم يحدث شيء غير متوقع ستصدر القيادة أوامرها للشروع في العملية البرية الهجوم على سيناء من ثلاث محاور. ويواصل سلاح الجو القيام بعمليته حتى الظهر وعندها تقام المشنقة (القضاء على سلاح الجو السوري) ومنذ الساعة الثانية بعد الظهر وصاعداً حيث تكون القوات المصفحة في ذروة عملها سنقدم لها المساندة الجوية.

انهالت الأسئلة من كل جانب، ثم ساد الهدوء ونظر القائد إلى ساعته وقال:

بقيت أمامنا ٢٤ ساعة أخرى من الهدوء التام. ولن يعرف أحد سواكم قرارنا هذا حتى يوم الغد. ويجب أن يستمر الصمت اللاسلكي حتى موعد بدء عملية السلاح المصفح أو قبلها بنصف ساعة فقط، وعندها تفتح جميع الأجهزة لاستلام التعليمات. أما التعليمات التي لابد منها أثناء الصمت اللاسلكي فتنقل بواسطة المراسلين. واقترح عليكم أن تعقدوا اجتماعاً للضباط الليلة وتقولوا لهم أنه من الممكن إعطاء إجازات لعدد كبير خلال اليومين القادمين.

أما الوحدات التي أجيزت أمس وأول أمس فيجري استدعاؤها بشكل مفتوح بعد صدور الأوامر ببدء عملية السلاح المصفح، والجنود الذين أجيزوا اليوم ولم يعودوا فلا داعي لإعادتهم بالقوة.وتوقف القائد عن الحديث ثم نظر إلى ساعته مرة أخرى ثم قال:

وشيء آخر وهو أنه سينشر غداً صباحاً في جميع الصحف اليهودية اليومية بيان رسمي نقول فيه: إننا لا ننتظر نتائج مساعي الدول البحرية الكبرى وأننا لن نقدر على الانتظار إلا أسابيع قليلة.

على شاطئ الاستحمام في أشكلون (عسقلان) كانت الحياة دائبة. ومئات الجنود وصلوا الشاطئ بالسيارات العسكرية وألقوا بملابسهم وعرضوا أجسامهم لوجه الشمس. ومجموعة من الصحفيين الأجانب كانت عائدة من جولة في النقب طلبت التحدث مع هؤلاء الجنود، والتقاط الصور لهم وتسجيل أحاديث معهم وسمح لها بذلك.

وعلى طريق إيلات تسير منذ أربعة أيام الجرارات الضخمة حاملة قوارب الإنزال باتجاه الشاطئ، وفي كل يوم كانت تصل الميناء قافلة طويلة بطيئة الحركة قادمة من الشمال محملة بقوارب الإنزال وكانت الجرارات تصل الميناء عند المساء، وتنتظر هناك حتى هبوط الظلام ثم تعود إلى الشمال من حيث أتت وقوارب الإنزال على ظهرها لم تنزل إلى البحر. وسارت هذه الجرارات الثقيلة ذهاباً وإياباً على طريق إيلات أربع مرات، والآن انتهى هذا المشهد الهزلي، فقد أنزلت القوارب إلى مياه البحر في مكان معزول وراء صخور عالية لإخفائها عن مراقبة الحدود المصرية، ولكنها كانت واضحة تماماً أمام مراقبة الحدود السعودية.

المخطط الجوي

٣ حزيران ١٩٦٧

■ مرة أخرى جلس الأربعة يدرسون كل موضوع في الخطة ويحللون لآخر مرة المواد الموضوعة أمامهم، قبل الجلسة المشتركة في غرفة العمليات التي ستعقد بعد ٣٠ساعة، وقال قائد سلاح الجو والتعب بادٍ عليه:

في الساعة الثامنة وخمس دقائق، حينما تصل الدفعة الثالثة من طائراتنا لأول عشر مطارات مصرية تكون الدفعة الأولى قد وصلت إلى تسع مطارات أخرى بعيدة. وفي ذلك الوقت تكون الطائرات المصرية في حالة استعداد. وفوق كل مطار مصري تنقض طائرتان لقصفه بينما تبق طائرتان أخريان في الجو لمواجهة أية طائرة معادية تحاول الطيران.وبعد ذلك ترتفع الطائرتان لتحل محل طائرتي المراقبة لتقصف المطار مرة أخرى، وأعتقد أن عدداً كبيراً من الطيارين المصريين سيكونون في ذلك الوقت وبعده بقليل داخل طائراتهم، وبذلك نقضي عليهم مع الطائرات.

وهنا سأل القائد الكبير بصوت منخفض:

ما هي آخر معلوماتكم بالنسبة لمطار الأقصر؟ أعتقد أننا متفقون جميعاً بأن هذا المطار هو المشكلة الرئيسية فهناك قاذفات قنابل منها ثمانية من نوع (كوبوليف) وعشرات

مـن نوع (اليوشن) وهناك ايضاً طائرات مقاتلة منها ثمانية من نوع (سوخوي) وعشرين ميغ ٢١ وعـدد كـبير من طائرات ميج ١٩ وميج ١٧.

وعاد إلى الحديث قائد سلاح الجو قائلاً:

سنرسل إلى ذلـك المطار أربعـة طائـرات مـيراج وطائـرتي فيـتور، ونأمل أن يكون لـديها الوقـود الكـافي لعودتهـا. وتقـوم طائـرات الميراج بقصـف المدرجـات بيـنما تقـوم طائرات الفيتور بـرماية طائـرات الطوبولـيف وتعـود أدراجهـا. ومـن المحـتمل أن لا يكفـي الوقـود فتضـطر الطائـرات للهـبوط اضطرارياً في البحر الأحمر، ولذلك ستكون بانتظارها قوارب آلية سريعة في إيلات واعـتقد انـه لـو أضفنا إلى تلـك الطائرات خزانات وقود إضافية تستطيع أن تعود إلا إذا اضطرت للقـيام بالمـناورة. وتقـوم طائـرات الميراج بعـد أن تنـتهي مـن تدمـير المدرجـات برماية طائرات (سوخوي) وميج ٢١ وإذا بقي لـديها ما يكفيها من الوقود سترمي طائرات الميج القـديمة بالمدفعـية أما طائـرات (اليوشـن) فسـنتركها لأنهـا لـن تكـون مشـكلة حقيقـية حتى لو بقيت سـالمة. وتعـود طائـرات الميراج بعـد طائـرات الفيتور وتلحق بها وتقوم بحمايتها من جهة مطار الغـردقة أمـام أي طـارئ. وعـلى طائـرات الفيـتور أن لا تشترك في أيـة معـركـة، لأن الوقـود لن يكفـيها. يـتم الـهجوم عـلى مطار الغردقة قبل دقائق من مهاجمة مطار الأقصر، ثم تأتي بعد ذلـك دفعـات مـن الطائـرات بين كل دفعة وأخرى مدة عشرة دقائق وكل دفعة تتكون من أربعة طائرات ميراج.

وهنا قال القائد الكبير:

أعـتقد انكـم على خطأ فانتم ترسلون للعملية عدداً أكبر من العدد الذي اتفقنا عليه. فكم طائرة ستبقى كغطاء جوي للبلاد بموجب خطتكم الجديدة؟

ورد قائد سلاح الجو قائلاً:

الخطـة ليست جديـدة إلى هذا الحد. وسنبقي في الخلف كغطاء جوي لحماية الدولة ١٢ طائرة ميراج ويقودها خيرة الطيارين. وقال القائد الكبير:

- قلـنا إنـنا سنبقي في الخلف ثماني طائرات في الجو وثماني طائرات على الأرض. وقلنا أن هـذا العـدد هـو أدنـى حـد ممكـن لمواجهة العدو في حالة شن الـهجوم علينا. وقال قائد سلاح

الجو.. أنا بحاجة إلى عدد أكبر من الطائرات ونحن نستغل الطائرات أكثر من اللازم ومع ذلك فهي لا تكفي، والخطة تقوم على أساس أن الدفعة الأولى من طائراتنا ستعود إلى قواعدها بعد دقائق قليلة من مغادرة الدفعة الأخيرة وبذلك تكون لدينا في المؤخرة ٥-٦ دقائق عدة أسراب من الطائرات.

ثم تكلم مدير الاستخبارات فقال:

- كيف ترون من جانبك النبأ الذي وصلنا من القاهرة؟ اننا لا نصدق أن قيادة سلاح الجو المصري تعطي الإجازات للطيارين في مثل هذه الظروف إنه نبأ كاذب، وأما بخصوص الجولة التي ستقوم بها القيادة المصرية العليا في سيناء يوم الاثنين القادم بالذات فإنه كذب أيضاً. وباعتقادي أنه كان علينا أن لا نعلمه بموعد بدء هجومنا (المقصود العميل السري الموجود في القاهرة). لقد أبلغنا هو بهذا النبأ قبل خمس ساعات من صدور أوامرنا إليه بإقامة الحفلة مساء الغد، ولقد علمت من تجاربي أن الأمور على طبيعتها تكون أبسط مما هي في الخيال وربما تكون مناسبة طيبة إذا حصلنا منه على معلومات أخرى عن صحة الجولة التي سيقوم بها القادة المصريون، وعندها سأقضي عليهم جميعاً في عملية خاطفة، وهنا سأله القائد الكبير:

لماذا تقضي عليهم؟ إذا كنت تستطيع أن تعرف من عميلنا مكان وتاريخ وصولهم، فسنقوم بتدمير المطار الذي سيهبطون فيه وبذلك نجعلهم معلقين في السماء، بدون أن يعرفوا ما يجري لهم وعاجزين عن إصدار الأوامر. وطالما هم موجودين في الجو فإن أحداً على الأرض لن يتجرأ - بدلاً منهم - أن يصدر أية أوامر. وإذا تحقق ذلك فإنه يكون بمثابة هدية كبرى لرجالنا في الساعات الأولى للهجوم.

قال مدير الاستخبارات:

- إن العميل لن يتصل بنا بعد الآن. فقد اتفقنا معه، بعد أن أعطيه الأوامر بإقامة الحفلة، أن لا يحاول القيام بأي اتصال معنا مع أننا سنصغي له غداً وبعد غد من الساعة السادسة حتى السابعة صباحاً. فهو هناك في موقف حرج خطير، وهم يستمعون إلى إرسال جهازه بواسطة أجهزة روسية خاصة حديثة لتحديد مكان الإرسال. والأمر الوحيد الذي

يمنعهم من تحديد ومعرفة مكانه هو الاتصالات اللاسلكية التي تجريها السفارة الروسية المجاورة له.

وقال قائد سلاح الجو:

- إنني لا أؤمن بهذه العملية، أقصد الحفلة، فما الذي يفيدنا إذا أقام حفلة لعدد من الطيارين؟

وسأله ضابط الاستخبارات:

- ما هو عدد الطيارين المصريين المدربين على الطائرات النفاثة؟ إنه أكثر من ٦٠٠ طيار. فإذا كان بعضهم في الإجازات من جهة وإذا أخذ نصف الباقي إلى الحفلة طيلة الليل من جهة أخرى فإن ذلك سيسهل الأمر كثيراً على الطيارين الإسرائيليين إذ كيف ترى الطيار الذي يسكر حتى الثمالة ويظل ساهراً حتى الساعة الثانية صباحاً وفي الساعة الثامنة يجري استدعاؤه إلى غرف الطوارئ في الوقت الذي تكون فيه طائرتنا فوق طائراتهم.

قال قائد سلاح الجو..

إن مثل هذا الطيار يصلح تماماً أن يكون جاسوساً. ونحن ليس لدينا مثل هؤلاء الطيارين. وهنا نظر القائد الكبير إلى ساعته، وكانت عقاربها في هذا الوقت تقف فوق بعضها البعض، وانتهى يوم ٣ حزيران وبدأ يوم ٤ حزيران ١٩٦٧.

قف، قالها الضابط للجندي وأخرج مسدسه واندفع إلى الخارج قائلاً:

من أنت؟

قال الجندي: أنا. من الكتيبة (٧٦٢) كنا اليوم في إجازة قصيرة في أشكلون ولكن زملائي تحركوا وتركوني وحدي. فمشيت قليلاً وهكذا فقدتهم، وأنا كما ترى أمشي وقطعت مسافة ١٥ كيلومتراً حتى الآن.

قال الضابط: هيا ادخل السيارة أين وحدتك؟

قال الجندي: بالقرب من مستعمرة (جؤليم) مقابل خان يونس.

قال الضابط: وكنت تنوي الوصول إلى هناك ماشياً؟

وهنا أمر الضابط سائق سيارته أن يزيد من سرعته ويغير وجهة سفره قليلاً ليوصل الجندي المقطوع إلى وحدته. وقال الجندي.. مازحاً. هل كنت تفكر بأنني سأترك زملائي وحدهم في النقب؟ إنك لا تعرف يا سيدي حجم القوات العربية التي ترابط مقابلنا في خان يونس.

الجبهة السورية الأردنية

٤ حزيران ١٩٦٧

■ (لا شيء)، قالتها المجندة النائبة ثم أغلقت الجهاز، وسألت نفسها ماذا حدث له، كان المفروض أن يتصل معنا، ولكنه لم يتصل، وفكرت في نفسها، من يكون ذلك الشخص المجهول الذي يتصل بنا؟ إنها لا تعرف شيئاً عنه سوى إشارات المورس اللاسلكية التي يرسلها من مكان مجهول أيضاً. إنها تعرف أن إرساله هادئ منتظم، إلا أنه في الأيام الأخيرة تغير، وأصبح سريعاً ومشوشاً، هل يمكن أن يكونوا قد قبضوا عليه وارغموه على الإرسال كالسابق، فمن يجب أن تحذره وتنبهه لهذا الخطر.

صدرت الأوامر بإغلاق طريق البترول المؤدي من كركوك إلى المفرق عبر الصحراء السورية، لمدة يومين بوجه السيارات العسكرية. وتحركت على الخطة قافلة ضخمة طويلة متجهة من الشرق إلى الغرب، تسير ثم تتوقف بضعة دقائق ثم تواصل السير، وتتوقف مرة أخرى لمدة ساعة كاملة هذه المرة.

لقد استطاع اللواء المصفح الثالث خلال الليل، من الفرقة أن يتقدم حوالي ١٥٠ كيلومتراً. كان الطريق بمثابة طريق الآلام وقعت فيه اصطدامات بين السيارات، وبعضها تدهور على جانبي الطريق، السيارات الكبيرة التي تحمل الدبابات كانت تصطدم بالسيارات الصغيرة، كان السائقون متعبون، وكان من الضروري استبدالهم بالسائقين المساعدين

ليستريحوا وهم داخل سياراتهم. ولكن السواقين المساعدين كانوا معظمهم عاجزين عن القيام بهذا العمل الصعب، قيادة سيارات يزيد وزنها مع حمولتها عن (٥٠) طناً، في وسط قافلة تسير وتتوقف باستمرار.

وفي إحدى المنخفضات قرب حدود الأردن، تحركت السيارات الكبيرة بسرعة أكبر. وكان من المتعذر إيقافها. فالدبابات الثقيلة من نوع ت-٣٤ الروسية الحديثة كانت تضغط بثقلها على الجرارات لتدفعها إلى الأمام. وكانت الضوابط (كوابح) الهوائية تهوي تحت الضغط. وفي ساعة متأخرة من الليل أفلتت ضوابط إحدى تلك السيارات بينما كانت تسير في طريق منخفض قرب الحدود، فزادت سرعتها. فأخذت الدبابة القابعة فوقها (ترقص) على ظهرها، وارتطمت هذه السيارات بالجرارة التي تتقدمها، وانطلق صوت انفجار شديد، وانفصلت غرفة السائق عن بقية جسم السيارة وانحرفت عن الشارع وزادت سرعة الجزء المتبقي، وصعدت بحمولتها على جرارة أخرى تتقدمها وتمزقت الحبال التي تثبت الدبابة، فتدحرجت إلى الأمام وحطمت مدافع الدبابة التي أمامها ثم سقطت على الأرض مقلوبة على جنبها. وقفز السائق ومساعده من الجرارة إلى الخارج، ولكن عجلات الجرارة التهمتهما وتوال تدحرج الجرارتين إلى الأمام وارتطمتا بسيارة أخرى من القافلة كانت واقفة على جانب الطريق، وهكذا تحولت الدبابات إلى كوم من الحديد والخشب وصدرت الأوامر إلى القافلة بالتوقف والاستراحة على الأقل لإخلاء حطام الجرارات الثلاثة من الطريق.

ووصلت إلى قائد اللواء الموجود داخل الأردن برقية عن تأخير القافلة لتستريح بعض الوقت ولكنه أصدر الأوامر إلى مساعده بضرورة التحرك فوراً إلى الأردن حتى ولو بقيت جرارة واحدة صالحة من كل خمس جرارات.

وكان هذا اللواء قد تحرك قبل ثلاثة أيام من منطقة جبال كردستان ونتيجة للحادث الذي وقع في الطريق أصبح معزولاً عن الفرقة كلها التي كانت موزعة في منطقة الزرقاء. وكان المفروض أن ترسل الفرقة من الزرقاء لواء واحد عبر طرق عمان - أريحا للمساعدة في احتلال مدينة القدس ويتحرك لواء آخر إلى نابلس ليكون مهدداً كل من تل أبيب وحيفا في آن واحد. ولواء ثالث يتوزع في منطقة عمان لحمايتها من أي هجوم مفاجئ من العدو.

ولكن بعد قضاء ثلاثة أيام في الطريق، لم تستطع تلك القوات الوصول إلى مواقعها المعينة، فالطريق الرديء، والتنظيم الفاشل من أساسه إلى الأعلى، ووحدات الخدمات السيئة التي تعطلت في الطريق وفوق كل ذلك - المعنويات المنخفضة بين الجنود بعد سنين من الاصطدام مع الأكراد في العراق، كل هذه العوامل وقفت معاً في وجه القوات العراقية.

قال قائد اللواء لمساعده:

اعلم أنك إذا لم تكن جاهزاً مع اللواء عند ملتقى الطريق بأنابيب البترول فإنني أعيدك إلى بغداد مطروداً.

أدى المساعد التحية العسكرية واستدعى ضابط الشركة العسكرية الذي كان ينتظر مع وحدة صغيرة بالقرب من الكوخ القائم على الحدود وسارا معاً. وفي هذه الأثناء جاءت مخابرة لاسلكية تقول لقائد اللواء:

إن القائد العام يريد مقابلتك.

في مدينة العفولة الإسرائيلية الواقعة في سهل مرج بن عامر، كان يتجول الجاسوس وهو يرتدي بدلة إنجليزية، ويتكلم العبرية بطلاقة، ولكن بلهجة إنكليزية إلى حد ما، وكان يسأل كل من يعتقد أنه يعرف شيئاً عن المكان الذي ترابط فيه وحدات لواء دبابات السنتوريون التي وصلت إلى المنطقة قبل أسبوع، وكان متعباً، وعلى ذقنه بعض بوادر الشيب، وعينيه حمراوين ويدل مظهره على مدى الإعياء والتعب. فتقدم منه أحد رجال البوليس وسأله:

- يا سيدي، هل من الممكن أن أطلع على أوراقك وهويتك؟

قال الرجل بابتسامة متعبة:

-ليست معي أية أوراق أو هوية.

قال البوليس:

إذن أرجو أن تأتي معي وأرجو أيضاً أن لا تحاول إثارة المشاكل.

وهنا لزيادة الاطمئنان، أخرج رجل البوليس مسدسه وقاد الرجل إلى مركز الشرطة.

وفي داخل المركز بالعفولة، كان يجلس ضابط بوليس برتبة رئيس. ابتسم وقال للشرطي، إنه ليس بجاسوس، وإنما جاء يوم أمس من إنجلترا ويبحث الآن عن وحدته. واقترب الضابط من الرجل الغريب وقال له:

بالطبع لا أستطيع أن أكشف عن مكان وجود قواتنا، ولكن وحدتك ترابط في منطقة (تعنك) في المنطقة الممتدة بين مستعمرتي (فديا وبروخيم). وهناك في غابة قرب منبع للماء تجد قيادة الوحدة. ولكن لا تقل لأحد بأنني أنا الذي ابلغتك بذلك.

شكره الرجل ثم قال مستغرباً:

ولكن كيف أستطيع أن أصل إلى هناك؟ لم يبق معي شيئاً من النقود، جئت من لندن ودفعت آخر قطعة نقد معي. وعليك أن تفهم بأنني مساعد قائد سرية دبابات سنتوريون. وقد درست في إنجلترا، وعاد الابتسام إلى ضابط البوليس مرة أخرى وقال:

تعال، سآخذك إلى هناك بالسيارة، ومع أن الأوامر تمنعني من مغادرة هذا المكان، لكني أريد أن أرى كيف سيكون استقبالهم لك، وكيف وصلت من إنجلترا إلى هنا.

وسلم الضابط إلى النائب شيئاً ما، ثم أخرج المفاتيح وركب سيارة الجيب، وفي الطريق قال الغريب، أريد أن تعلم كيف وصلت إلى إسرائيل بدون نقود حسناً، دخلت الطائرة وقلت لهم: أنا متوجه إلى إسرائيل، وافعلوا ما شئتم فإنني لن أنزل. كان الغريب طوال الطريق يتطلع إلى السهول المترامية أمامه، والتي تنتهي عند أسفل جبال جنين، وهناك في غابة صغيرة قرب نبع الماء ترابط القيادة العسكرية التي ستدله على مكان سريته. وأخذ يتصور في فكره كيف أن جنود السرية يقفزون بخفة إلى داخل الدبابات، وهو نفسه بعيد عنهم، وقال لقائد السيارة:

هل تزيد السرعة من فضلك؟ إنهم يستعدون للحركة، وأخشى أن أتأخر عنهم.

ونظر إلى قائد السيارة ضابط البوليس باستغراب وزاد من سرعة السيارة ليصل في الوقت المناسب.

جاسوس في الأردن

٤ حزيران ١٩٦٧

■ في منطقة القدس وادي كبير، يأتي من الأراضي الأردنية ويدخل الأراضي الفلسطينية، وفوق ذلك الوادي يرتفع القصر الذي كان يقيم فيه قبل سنوات كثيرة المندوب السامي البريطاني. أما اليوم ففي ذلك القصر يوجد مقر قيادة مراقبي الأمم المتحدة. وعند أسفل القصر تمتد قرية عربية صغيرة حتى قلب الوادي، حيث تقوم مساكن متفرقة، وبساتين الفواكه، وبين أشجار تلك البساتين كان يسير بحذر شخص يحمل مسدساً في يده، ومنظار ميدان في اليد الأخرى. كان يقترب من المنطقة الحرام عند طرف الشارع، يتردد أحياناً ثم يخرج من آخر البستان ويتوجه إلى حقل مكشوف تصل نهايته بغابة صغيرة داخل الأراضي الإسرائيلية، كان هذا الشخص جاسوس إسرائيلي، ثخين الشارب، أسمر البشرة يتحرك بسرعة في منطقة الخطر، ويتخطى حقلاً يظنه حقل الغام ويصل إلى أسلاك الحدود. ومن وسط الغابة التي أصبحت لا تفصله عنها سوى خمسين خطوة سمع صوت سلاح يستعد للإطلاق، ولكنه رفع يديه إلى الأعلى وقال بالإنجليزية:

(دونت شوت، دونت شوت - لا تطلق النار).

وهنا ظهر للعيان جندي إسرائيلي وهو يقف على قدميه من داخل أحد الخنادق في الغابة ويسدد رشاشاً إلى هذا الشخص، وقال له:

ارفع يديك.

وما كانت له حاجة بذلك، فالشخص يسير رافع اليدين ولكن المسدس الذي يحمله أثار شكوك الجندي.

(الق بمسدسك)، قال الجندي الإسرائيلي بالإنجليزية، ولكن الجاسوس وقد أصبح على بُعد خطوات من الجندي الإسرائيلي. راح يكلمه بلغته، بالعبرية همساً. خسارة على المسدس دعني أجتاز الأسلاك وأعطيه لك. واجتاز الجاسوس الأسلاك وأخرج الجندي المسدس من يده ونادى على زميل له يسأله عما إذا كان يعرف طريقة استخدام هذا المسدس ولكن الجاسوس قال له: اضغط عليه من نصفه، ودخل الجاسوس مع الجندي إلى الغابة، وأنزل يديه وقال للجندي: ماذا تفعل هنا؟ خذني إلى ضابطك وسأتكلم معه هو، وخرج من بين الأشجار نائب كبير الحجم وقال، أنا ضابطه، ما المسألة؟ قال الجاسوس.. أريد أن أتحدث مع الضابط، وليس مع غيره فخذني إليه بسرعة. سدد النائب سلاحه وقاد الجاسوس أمامه وقال له: أرى أنك تفهم اللغة العبرية، سر أمامي على مهل وإذا حاولت أن تأتي بحركة أطلقت عليك النار. وأنتم عودوا إلى الخندق قالها لجنوده، وسار خلف الجاسوس وبندقيته مسددة على ظهره وإصبعه على الزناد.

جلس الجاسوس الأسمر في مكتب ضابط الاستخبارات، يشرب القهوة ويدلي بأقواله بجمل قصيرة منتظمة.

قوات عراقية موجودة في البلدة القديمة بالقدس. ولكنها عبارة عن عدد من الضباط وقوات الاستطلاع، الفرقة الثانية عشر المشاة العراقية وصلت محمولة أمس إلى منطقة عمان. الفرقة المصفحة الثانية وصلت الزرقاء، ولكنها تواجه مشاكل كثيرة من ناحية التوزيع والنظام، وهي لا تستطيع التحرك نحو نهر الأردن واجتيازه. ربما يجري غداً إرسال وحدات مشاة عراقية صغيرة للضفة الغربية، وبعد غد يجري إرسال ألوية كاملة، أفهم من الأحاديث التي سمعتها بالبلدة القديمة أن السلاح المصفح لن يقطع نهر الأردن إلى الضفة الغربية قبل يوم الأربعاء القادم. وسيقوم لواء مصفح عراقي بحماية القدس ومنطقتها ولواء آخر يتحرك إلى نابلس، أما اللواء الثالث فسيظل مرابطاً على ما يظهر، في منطقة عمان كاحتياط، قوات المشاة ستوزع بحجم فرقة مقابل منطقة نتانيا وكفر سابا ليقطع إسرائيل إلى قسمين. وسأله ضابط الاستخبارات الإسرائيلي قائلاً:

- ماذا يقولون في الأردن عن موقفهم عند نشوب الحرب؟ هل سيتدخل الأردن أم انه سيحافظ على الهدوء؟

فقال:

إذا بدأ القتال ضد مصر أو سوريا فإن الجيش الأردني سيتدخل فوراً في معركة شاملة على طول الحدود. وقد أصبح للجيش الأردني الآن قائد مصري وله في القدس كتيبتا صاعقة مصريتان.

قال الإسرائيلي: هل الكتيبتان في القدس؟

أجاب الجاسوس: كلا، إنهما في المنطقة المقابلة للطرون فإذا بدأ القتال فإن جنودهما سيدخلون إسرائيل ويقطعون طريق القدس الرملة، ويقوموا بتدمير مطار اللد، ويهاجموا القوافل العسكرية ويحدثون ضجة كبرى، وسأله الإسرائيلي:

هل هم حقاً رجال صاعقة حقيقيين؟

وحرك الجاسوس رأسه بحركة تقليدية وقال:

كلا، ولن يصبحوا كذلك بعد ١٠٠ سنة، كل ما يستطيعون فعله هو أن يحدثوا بعض الضجة، وليس غير ذلك مع أن السكان يتحدثون عنهم كأنهم أبطال قصص ألف ليلة وليلة، ولكن سرية واحدة من المظليين الإسرائيليين كفيلة بالقضاء عليهم، سأله الإسرائيلي قائلاً:

ألا تحصل فرقة المشاة على مساندة الدبابات لمهاجمة منطقة نتانيا فأجابه:

أعتقد بأنه لن تحصل، فإن في تلك الفرقة وحدات من المدفعية والدبابات الخفيفة أما الدبابات الثقيلة، كما قلت لك فستكون في منطقة نابلس وجبال القدس ومن نابلس تستطيع الدبابات أن تدخل إلى مدينة الخضير أو التوجه إلى حيفا. أما الدبابات الموجودة في القدس فستقوم بالمحافظة على المحور الرئيسي الخليل - رام الله، وعند نشوب الحرب ستقوم بعزل مدينة القدس.

سؤال:متى تعتقدون أن القوات العراقية ستصل إلى مراكزها المخصصة لها في الجبهة؟

جواب: يقال بعد يومين، ولكني شخصياً أعتقد أن ذلك سيستغرق أربعة أيام أو خمسة، وأقول لك أن القوات العراقية كبيرة وأسلحتها قوية، فلديها دبابات تي ٣٤ حديثة والجنود يحملون بنادق هجومية حديثة، ويقال أن نفس هذا التسليح الحديث في جميع الوحدات العراقية تقريباً. وبندقية الهجوم، تطلق ناراً كثيفة جداً. وحينما تصل القوات العراقية إلينا، سأقيم صداقات مع جنودها لأجمع لكم معلومات دقيقة أكثر عن أسلحة الوحدات وعن المعنويات وعن خططهم الحربية.

أسلحة الفلسطينيين

٤ حزيران ١٩٦٧

■ لم يرغبوا في أن يعطلوا قائد القطاع الإسرائيلي، وإبعاده عن مركزه الهام بعض الوقت، ولذلك توجهوا إليه، بدل أن يتوجه هو إليهم. وعند مدخل المدينة أوقف البنات والأولاد سياراتهم بحركات من الأيدي الصغيرة، وتقدم هؤلاء إلى السيارات يعرضون على ركابها ساندويشات، قالت إحداهن:

خذ لك ساندويش أيها الجندي.

وصاحت عليها رفيقتها قائلة لها:

- إنه ليس جندي، بل ضابط كبير.

ونظرتا إلى الرتبة العسكرية على كتفيه، وسألته إحداهن بانفعال:

- أصحيح أنك برتبة زعيم؟

وابتسم القائد الكبير ثم قال:

كلا أنا برتبة لواء، ولكن اللواء هو أيضاً جندي.

وعندها قالت البنت الصغيرة وهي تعض على شفتها السفلى:

- إذن فأنت رئيس هيئة الأركان وعليه يجب أن تأخذ ثلاث سندويشات بدلاً من واحدة. ونحن هنا من لجنة الترفيه عن الجندي في مدينة الرملة. خذ هذه الساندويش ولا تستح، فمع كونك برتبة لواء ضروري لك الساندويش في الطريق الطويل. وتابعت السيارات العسكرية سيرها نحو المعسكر.

إن قائد القطاع، بالرغم من ماضيه الحربي الطويل، كانت تنقصه العلامات الخارجية التي تتوفر في الرجل المقاتل. ولكن اليوم ربما يستطيع أن يثبت من جديد كفاءته كمقاتل من الطراز الأول.

قال قائد القطاع:

غداً يبدأ العراقيون بعبور نهر الأردن، وبعد غد كما سمعنا، ستعبر ألوية كاملة. وكل دقيقة تتأخر فيها الضربة المضادة من طرفنا تعني مزيداً من جنود العدو في هذه المنطقة ومزيداً من الضحايا بين قواتنا. وعلينا بمجرد ان يبدأوا إطلاق النار ان نوجه لهم ضربة سريعة وقاضية.

وقال مساعد القائد العام:

سوف نمتنع عن الاشتباك معهم في جبهتين على الأقل إذا كان ذلك ممكناً، فإن معظم حاملات الجنود موجودة في الجنوب وكذلك معظم القوات المظلية هي في الجنوب، كما أن سلاح الجو سيكون مشغولاً في الجنوب طوال اليوم، ولذلك يترتب علينا الانتظار هنا في هذه الجبهة.

وقال قائد القطاع:

وهل سننتظر حتى تصل النجدات العراقية إلى الجيش الأردني على طول الجبهة؟ عل الأقل اسمحوا لي أن استولي في حالة شروعهم بإطلاق النار على المطرون والرادار لحماية القدس.

ولكن مساعد القائد العام رمقه بنظرة خانقة وقال له:

- إن القدس مضمونة والحماية لها متوفرة.

وقال قائد القطاع:

وماذا بشأن جبل سكوبس والجامعة العبرية إذا شنت القوات الأردنية هجوماً عليها؟

وقال قائد القطاع:

هل أستطيع أن أحرك الليلة، اللواء المصفح حتى مقربة من الحدود؟

ولكن مساعد القائد العام، دق بإصبعه على الطاولة عدة مرات وقال باللغة الألمانية دلالة على إصراره على الرفض (نابط) أي كلا.

وهنا قال قائد القطاع، للقائد العام:

هل تعتقد أن قواتي تكفي للقيام بهجوم شامل بعد أن تشترك القوات العراقية في المعركة؟

تريث القائد قليلاً ثم أجاب وهو يزن كل كلمة، كأنه يتخذ قراراً هاماً بين كلمة وأخرى:

كل ساعة نؤخر فيها الضربة المضادة ستدخل خلالها قوات عراقية إلى الضفة الغربية عبر نهر الأردن وأنت تعلم جيداً أن النهر يمكن عبوره من جسرين فقط. وحينما تبدأ القوات العراقية في العبور، فإنه من الضروري وقف السير على الجسرين طيلة يوم كامل. فإذا قمنا بضربتنا غداً فإن الجسرين الوحيدين يكونان في ذلك الوقت باستخدام القوات العراقية التي تعبرهما إلى الضفة الغربية، وبمعنى آخر إن الجسرين سيكونان مغلقين بوجه القوات الأردنية بسبب مرور القوات العراقية، وعندها فقط ستضرب وستجد بقرب كل جسر منهما أكواماً من القتلى والسيارات والدبابات المتعلقة، وستظل تلك الأكوام تكبر وترتفع بسبب تهافت القوات الأردنية من جهة والعراقية من جهة أخرى لعبور الجسرين وكل منهما باتجاه معاكس وعندها يكون سلاحنا الجوي مدعواً لزيارة الجسرين. وهكذا ابتسم قائد القطاع راضياً عن الفكرة ورأى أنه طوال حياته العسكرية لم يكن إلا راضخاً أمام المنطق.

وأضاف القائد العام كلمة أخيرة وقال:

في هذه المرة، إذا بدأت القوات الأردنية بإطلاق النار في مدينة القدس عليك باحتلال البلدة القديمة فوراً.

أسلحة الفلسطينيين

٤ حزيران ١٩٦٧

■ على مقربة من مستعمرة جؤليم، تحت شجرة سرو بجانب الطريق الرئيسي دار نقاش بين العريف قائد الحظيرة التابعة للفئة الثانية من السرية الثانية التابعة للكتيبة (٧٦٢) وبين مساعده الجندي. وبعد أن انتهيا من وجبة الغداء التي وصلت من مطبخ الكتيبة جلسا يشربان القهوة بالوعاء الطويل الذي أحضرته أمس زوجة العريف وقال العريف لمساعده:

إن هذا الوعاء الطويل يطلق عليه اسم (إبريق) بالعربية. ورمق العريف الجندي بنظرة غاضبة وقال بإصرار:

كلا، إن اسمه فنجان وهذا هو المعنى الصحيح الدارج، ولا تذكر مرة أخرى (كبريق)، وضحك الجندي ملئ شدقيه وقال - إبريق - وليس كبريق - ، ملأ العريف ملعقة صغيرة بالسكر وسكبها في الماء، وفعل ذلك خمس مرات ثم فتح وعاء القهوة فصاح به الجندي:

ليس الآن سيتلف طعم القهوة ونكهتها، لا تضع القهوة في الماء إلا بعد أن يغلي جيداً. ورد عليه العريف قائلاً:

أتـريـد أن تعـلمني كـيـف تصـنـع القهـوة؟ المـاء يجـب أن يغلـي بـبطء بيـنـما تكون القهوة ممزوجة فيه، وبالغليان تـذوب القهوة تماماً في الماء.

ولكن الجندي هز رأسه يائساً وقال:

- ولكـن بهـذه الطـريقة سـتـتلف القهـوة، ولكـن عـلـى كـيفك أفعل ما تـريد ... وبالفعل فعـل العـريف مـا أراد فسـكب ثـلاث ملاعـق صـغيرة مـن القهوة على الماء وعبقت الأنوف رائحة القهـوة اللذيـذة وعلـت وجهيهما ابتسـامة الرضـا الظاهـرة مـن جلستهما على الحقائب ثم قال الجندي:

قهوة لذيـذة إن لك حظاً مع زوجتك. أما زوجتي فهي غير ذلك تماماً، إنها كالطفلة، لا تـريد أن تطبخ ولا تـريد أن ترتـب البيـت، وإنمـا تـريد فقط أن تخرج تتنزه، ترقص، وتمضي الوقت في السينما.

قال العريف:

اسمعـني جيداً، أنـتما لا تـزالان شـابان، ولـيس لكمـا أطفـال، فمـن الضـروري أن تغتـنما الوقـت وتتـنزها، ولأنـه بعـد أن تـرزقا بالأطفـال لن تستطيعا الخروج وعندها ستندمان على كل فرصة ضاعت منكما. ورد الجندي:

صـحيح، ولكـن أرجـو أن تفهـم، أنـا الآن في الوقـت الحاضـر لست في البيـت، وقـد شرعت ترتـب البيت بكل فن أنظر ما أجمل بيتنا، فطوال الوقت أنتظر عودتك.

وحرك العريف رأسه قائلاً:

مسكينـات، خسـارة عليهن حقـاً، أخـذوا منهن جميع الأزواج، وتـركوهن لوحدهن مع الأطفـال والقلـق، زوجـتي تقـول أن الـناس في تـل أبيـب يقولـون أن الحـرب سـتقع ومعها ضحايا كبيرة.

ثـم أزال وعـاء القهـوة عـن الـنار لـئلا تفـور القهـوة عـلى الأرض، وعـاد وقـرب الوعاء من جديـد إلى الـنار، ثـم أبعـده وهكـذا ظـل يقـربه ويـبعده والمـاء يغلـي، والقهـوة فـوق النار. وقال الجندي:

لا أدري في الواقع ما هي الفائدة من الحرب؟ هل يفكرون بدخول الحرب أم بإبقائنا هنا حتى نهاية العالم؟ وهدأت القهوة قليلاً، ثم سكب العريف منها داخل الفناجين المصفوفة ثم قال لزملائه:

الحظيرة رقم واحد من يريد قهوة حقيقية؟ كذلك دار نقاش آخر في القاعدة الجوية قرب المدينة. كان يدور داخل النادي على الربية بالقرب من غرفة الطوارئ وبداخل غرفة الطوارئ نفسها.

(إنه لا يستطيع القدوم)، قالها للمرة العاشرة ضابط شاب برتبة رئيس وهو ممدد على الأرض إنه معطل في جنوب أفريقيا، وتوقفت الرحلات الجوية من هناك إلينا فكيف يستطيع القدوم؟ وقال ضابط آخر برتبة رائد:

(دخيلكم) يا أصدقائي، إن أمنون سيصل إلينا رأساً إلى القاعدة قبل الموعد المحدد بخمس دقائق حتى لو اضطره الأمر إلى السفر بطائرة من ورق. اتركوا الكلام وأعدوا له لباس الطيران. وسأل ضابط آخر، ولكن كيف سيصل فليست أمامه أية إمكانية؟

في هذا الوقت خرج قائد القاعدة راكضاً من غرفة القيادة يلوح بيده ويصرخ بصوت مرتفع. قفز الطيارون على أقدامهم يثبتون لباسهم الحربي وهم يركضون ومن بعيد وصل عدد من الطيارين على دراجاتهم. تساءل الجميع:

ما الذي حدث ما الذي جرى؟ وقال القائد مبتسماً وسعيداً: لقد حضر، إنه في الطريق إلينا. وقالوا:

من هو ماذا حدث، من هو الذي حضر وقال القائد باسماً: أمنون، لقد وصل مطار اللد قبل نصف ساعة وهو في الطريق إلينا.

وسأل ضابط برتبة رئيس مستغرباً:

ولكن لماذا كل هذا التوق والفرح له هل ينقصنا الطيارون؟.

(الطيارون؟) قالها ضابط أسمر برتبة رئيس وهو يقترب من قائد القاعدة؟ هل رأيت طائرة الميراج التي يقودها أمنون؟ وكم طائرة ميج مرسومة عليها؟

التف الجميع حول القائد، بينما صاح أحدهم قائلاً: هناك وعند باب مدخل المعسكر شوهدت سيارة تدلف إلى الداخل بعد أن أذن الحراس بالدخول. وتوجهت السيارة نحو الطيارين في الوقت الذي ركض الطيارون نحوها وفي منتصف الطريق التقوا ووقفوا. ثم هجم الطيارون على القادم يحتضنونه ويقبلونه، وأخيراً رفعوه عالياً على رؤوس أيديهم وساروا باتجاه غرفة القيادة. وقال ضابط.

قلت لكم أنه سيأتي كنت أعرف أن أمنون يصل حتى ولو سباحة.

وفي نفس اليوم وصلت إلى خان يونس الأسلحة المخصصة لتوزيعها على السكان المدنيين. وفي غزة كان كل رجل يفاخر بالبندقية الجديدة التي يحملها. حتى في المدينة الفقيرة دير البلح جرى توزيع السلاح منذ يوم الجمعة على أثر خروج المصلين من المسجد. والآن جاء دور خان يونس. كان آلاف الرجال يتجمهرون في الميادين الرئيسية ينتظرون بفارغ الصبر في صفوف طويلة قرب مراكز توزيع السلاح. وما أن قاربت الساعة الثانية عشر ظهراً، حتى تم توزيع أكثر من ٣٠٠٠ بندقية، وكل من استلم بندقية كان ينضم إلى قائمة السعداء الذين يسيرون في الشوارع باستمرار يلوحون بسلاحهم إلى الأعلى ويهتفون ويصرخون. ومسيرتهم تلك، التي ليست لها بداية ولا نهاية. كانت تكبر وتتوسع كلما ازداد توزيع السلاح وهكذا أصبح موت اليهود وتحرير فلسطين في متناول اليد.

كانت الجماهير تتزاحم بدون أن تعرف إلى أين تتجه، تملأ الطرق والشوارع تهتف كالرعد بصوت واحد، تقلق المدينة بالضجة العالية. أصوات الرصاص كانت تلعلع هنا وهناك، في إحدى المرات أصيب رجل برصاصة فأخذوه إلى مركز الإسعاف الذي أقيم كغيره من المراكز في المدارس والمساجد. واستمرت المظاهرة وهاجت الخواطر والنفوس، فإن تحرير فلسطين قاب قوسين أو أدنى.

انتهى توزيع السلاح في مراكز التوزيع الخمسة عند غروب الشمس. وكل مواطن تسلم سلاحه كان يملأ نموذجاً خاصاً من جيش التحرير الفلسطيني. وكانت تبقى في كل مركز نسخة واحدة من النموذج بينما ترسل النسخة الأولى إلى المركز الرئيسي. إلى الضابط المسؤول عن توزيع السلاح على المدنيين، وكان ذلك الضابط وهو من جيش التحرير الفلسطيني يطلب من جميع المراكز أن تتأكد من وصول جميع النسخ إليه. ولما فحص الأوراق وتأكد من أن جميع النسخ وصلت إليه، طواها بحرص وأدخلها في جيبه الداخلي،

ولما توجه إلى منزله في المساء أضافها إلى النسخ السابقة في بيته لتظل هناك، تنتظر قدوم جيش الدفاع الإسرائيلي. فحينما تدخل قوات الجيش الإسرائيلي إلى المدينة لن تواجه أية صعوبة في جمع الأسلحة من المدنيين فبواسطة هذه القوائم يستطيع الحاكم العسكري الإسرائيلي أن يعرف عنوان كل مواطن ونوع البندقية التي استلمها.

إن هذا الضابط الذي جمع نسخ توزيع السلاح في منزله لن يستطيع العودة إلى إسرائيل، لقد أمضى بعيداً عن إسرائيل إحدى عشر سنة يعمل في غزة، تابعاً في البداية لمنظمة التحرير ومن ثم عيّن ضابطاً في جيش التحرير الفلسطيني. إنه يضحك في نفسه الآن وهو يتصور منظر زملائه جنود جيش التحرير حينما يعرفون من هو وما هي هويته الحقيقية.

وقال في نفسه:

أرجو فقط ان لا أقتل في المظاهرات، فعندها ستضيع جميع النسخ التي جمعتها، ثم قام وأخفى نسخ توزيع السلاح في مكان سري، وأمر زوجته أن تعد له طعام العشاء، ونظر إليها نظرة جانبية، حينما تعرف أنه يهودي وليس مسلم. وهو من ناحيته اعتاد خلال السنوات العشر التي مضت على زواجهما، اعتاد أن يحبها حقاً.

دور نســائنــا

٤ حزيران ١٩٦٧

▣كان ذلك بعد ساعة واحدة من استدعاء العريف قائد الحظيرة الأولى أفراده ليشربوا معه القهوة الحقيقية، من نفس النوع الذي أحضرته له زوجته يوم السبت أمس.

نزل جو غريب على ذلك البلد الصغير الممتد إلى شاطئ البحر، من جهات ثلاث، فقد كان البلد محاطاً بسور من الفولاذ يضيق عليه أكثر فأكثر حتى أولئك الذين ليست لهم دراية بالأمور العسكرية أحسوا بأن السور الفولاذي يضيق أكثر فأكثر. ولكن ظل الرجال يصلون بالطائرات. إذا كانوا في الخارج عند أبواب السفارات والقنصليات يتدافعون في طوابير طويلة للحصول على أذونات السفر إلى البلد الصغير. وصل رجال لأول مرة إلى هذا البلد.

رجل له خمسة أولاد، ظل سنوات عديدة يتهرب من الخدمة العسكرية سلم نفسه للشرطة العسكرية وطلب الالتحاق بالجبهة فوراً. وفي أحد معسكرات الاعتقال انصرف الحراس إلى الجبهة، بعد أن تعهد السجناء بعدم الفرار، ومع ذلك فر منهم اثنان وخلفا وراءهما بطاقة صغيرة كتب عليها: ذهبنا للتجنيد، سنعود إلى السجن بعد انتهاء القتال.

وأبلغ قائد المعسكر جميع المسؤولين بان لا يهتموا بأمر الفارين. في النقب كانت قوات المظليين تنتظر منذ أسبوع واحد من تلك القوات، كان مظلياً طويل القامة يرتدي لباساً مموهاً ويحمل السلاح والعتاد اقترب من الشارع القريب.

ثمة فتاة رقيقة القوام، ترتدي بنطلوناً طويلاً أزرق تقابل الاثنان خلف شجرة عند مفترق الطرق. وقف المظلي يفسح للفتاة، وهي تقف لتفسح له الطريق. ابتسم الرجل والقى بحمله على الأرض وخلع طاقية الفولاذ عن رأسه. كان شعره أشقر اللون مبللاً بالعرق وكانت شفته العليا بارزة إلى الأمام، تعطيه شكل غلام فتي. نظرت إليه الفتاة وقالت شالوم. كان شعرها القصير أفتح من لون شعره، كان شعرها يتحرك مع حركتها، ورد عليها المظلي قائلاً:

شالوم ونظر إليها ثم ابتسم وسألته:

هل أنت من كتيبة المظلات؟ قال نعم... أنا من الكتيبة المذكورة. وعاد يبتسم مرة أخرى واردف: لقد خرجت من المستشفى قبل أن اشفى تماماً.

ووقفا في ظل الشجرة كشابين يتطلعان إلى الحياة، وفهمت الفتاة أن عليه أن يلتحق بالكتيبة بالرغم من مرضه وفهمت أنها لا تستطيع أن ترجوه في أن يبقى ولو للحظة واحدة، ولا كذلك أن يعود إلى هنا بعد أن ينتهي القتال. رفعت إليه عينيها وقالت:

حافظ على نفسك.

ثم لمست طرف خده بإصبعها وتحركت بين الأعشاب الجافة، ورفع الرجل حمله وسلاحه وسار على عجل ليعوض الوقت الذي فاته.

وفي غضون ذلك ظهر رجال كثيرون..

إن ضغط السور الفولاذي، قد وحد الأطراف المشتتة وأدخل النظام في كل شيء. وكل إنسان أصبح يعرف واجبه تحت وطأة الضغط الفولاذي. وحمل كل إنسان المسؤولية المترتبة عليه إزاء السور المحيط بالبلد الصغير.

وفي معسكر لسلاح المدفعية أحضرت المجندة (النائبة) رزمة من الأوراق المطبوعة إلى رجل مدني جالس في كرسي وثير وتفحص الرجل الأوراق ثم هز رأسه راضياً وقال لضابطين يجلسان قبالته:

الآن تبدو الأمور بسيطة للغاية. هنا توجد بطاقة خاصة مبسطة لكل نوع من المدافع، وما عليكما إلا أن تبلغا قائد البطارية بالمسافة والاتجاه فقط. وعندها سيتطلع إلى البطاقة ويوجه المدفع حسبما هو مكتوب في البطاقة، ولا يمكن الخطأ.

قال أحدهما: والغريب أن هذه المدافع تعمل في جميع الظروف، جربناها وكانت جميع الإصابات دقيقة جداً بول. وسأله الثاني:

لماذا لم تتصل بنا في وقت مبكر أكثر؟ قال الرجل المدني:

طلبت ذلك ولكنهم لم يصدقونني ولم يأتوا إلي إلا قبل بضعة أيام حينما كنت في وسط الدرس وأخذوني إلى هنا. وقال الضابط:

يجب أن تسرع، شكراً.

وصافح الرجل الذي قال له (لا تشكرني هذا واجبي).

حينما كان العريف يوزع القهوة على أفراد حظيرته، وهو منتشياً بمديح الجنود وثنائهم، ذهبت زوجته (ملكه) إلى مقابلة غريبة. فقبل يومين عرفها الجندي الأول مساعد زوجها على (نيرا) زوجة روبين، وهو من حظيرة زوجها أيضاً وكانت زوجته قد أخذت معها بالسيارة (ملكة) ليزوروا زوجيهما المرابطين في النقب.

وهكذا قررت (ملكة) و(نيرا) مقابلة (راخيل) اليوم. وقامت (نيرا) بإعداد هدية بينما ذهبت (ملكة) وأرسلت أطفالها إلى والداها. كانت نيرا معلمة في إحدى المدارس ولكنها منذ أسبوع لا تعمل شيئاً بعد إغلاق المدارس. ولقد أقلق إغلاق المدارس جميع الأمهات اللواتي بقين دون أزواجهن. ولكن القلق والخوف من الاحتمالات المقبلة، وخاصة إذا قامت القاذفات الثقيلة بقصف البنايات الكبيرة التي يقيم فيها حوالي ألف طفل، كان أكبر من كل شيء. كان ذلك الأسبوع من أصعب الأيام التي مرت على الأمهات ولكنه أسبوع مسرات بالنسبة للأولاد. فقد سنحت لهم الفرص ليلعبوا في الشوارع وجميع الآباء التحقوا بالخدمة، وأصبحت الشوارع خالية وجاهزة لتأدية الغرض الذي من أجله فتحت، النط بالحبال، ولعبة الغمامة وغير ذلك

أمس التقت ملكة بصديقتها نيرا ورأتها متأنقة على أحسن حال. ولكن لدى عودتها كانت منطوية على نفسها، وربما حدث لها أمر ما حينما شاهدت آلاف الجنود موزعين في المنطقة الجنوبية على طول الطريق وفي الغابات والحقول والجبال.

وصلتا منزل راحيل ودخلتا. وقالت راحيل لنيرا:

- إننا لم نخرج بالمرة أنا وزوجي بعد الزواج، فلم تكن بي رغبة للذهاب إلى السينما أو ما شابه، وردت عليها نيرا: ولكنكما استمتعتما على الأقل باليومين اللذين أمضيتماهما معاً قبل أن يغادر زوجك إلى الميدان.

وردت عليها راحل: ماذا تقولين؟ حالتي النفسية في هذين اليومين لم تكن على ما يرام، والواقع أن البيت يبدو كئيباً حينما يكون غائباً عنه.

وقالت (ملكة) معلقة:

خلفوا لكما طفلاً، إن أفضل شيء بالنسبة للمرأة هو أن تحمل وتنجب الأطفال. وحينما تسير المرأة، وطول بطنها نصف متر إلى الأمام وتحس بالطفل يلعب داخل بطنها تشعر بأنها امرأة بالفعل.

وقالت راحيل كأنها لم تسمع شيئاً:

- تعرفين أنه تزوجنا منذ شهرين فقط، وقبل ذلك كنا مع بعض نتجول في كل مكان طوال سنتين، وكان والداي يقولان لي انتظري، لا تزالي صغيرة. ولكن بعد زواجنا، جاءوا ليأخذوه إلى الجيش، ويقال بأن الحرب ستكون طاحنة وتقع فيها خسائر فادحة.

وقالت لها نيرا:

ليتك ذهبت معنا أمس إليهم في المعسكر لتشاهدي كيف أن رجالنا، هناك في الخنادق على جوانب الدبابات، يجلسون بهدوء، والحقيقة شعرت أنني قادرة على احتضانهم جميعاً.

وقالت ملكة:

- هل تعرفين إلى أي قدر ركزت اهتمامي هناك؟

ركزت اهتمامي إليهم، إلى الجنود، ولم أجد واحداً منهم ينظر إلى زوجة رفيقه، إنهم تماماً كما يجب أن يكون الرجال دائماً. وأضافت نيرا.. لقد كانوا رجالاً آخرين. غير ما نعرفهم. أحسست أن كل واحد منهم على استعداد ليدفع بصدره إلى الأمام ويدافع عن كل امرأة وطفل في البلاد. لقد أحببتهم كلهم.

وسألت راحيل:

- كيف أحببتهم كلهم؟

وتطلعت إليها نيرا، ولكن أدركت أنها عاجزة عن أن تفسر لها ما رأته على طول الطريق الممتد على حدود قطاع غزة، ولذلك قامت وقالت:

سأحضر لكما القهوة، ثم نخرج إلى الشارع قليلاً، لنرى ما هناك، ولما غادرت الغرفة، نظرت (راحيل) إلى الخلف وقالت وهي تتنهد إلى (ملكة):

إنني أحسدك، فأنت تقدرين حتى في مثل هذه الظروف على التفكير بالأمور الوطنية. بينما أفكر أنا طوال الوقت بزوجي وسروري معه. هل تعلمين أنه حينما يعود سأقول له، أنني أريد طفلاً.

في الطريق الذي يخترق الحي كان الأولاد يلعبون وبينهم ولد أشعث الشعر خائف، كان بقية الأولاد يطاردونه ويضربونه بوحشية، يلاحقونه في الشارع، يوقعونه على الأرض ثم يتركوه يقف، ويطاردوه من جديد. وحينما رأت ذلك إحدى الأمهات هرعت إلى الشارع لتنقذ الطفل، أمسكته من يده ورفعته وحمته من الأولاد وقالت لهم: استحوا، ماذا تفعلون به؟ ومع المجموعة رأت ابنها، ورفاقه يطلبون منه أن يرد عليها. ولكنها قالت له بأن يعد إلى البيت حالاً. وقال الولد لأمه:

ولكن هذا الولد الذي معك واسمه (رولي) إنما هو مصري.

وقال غيره أه عبدالناصر يريد أن يقتل جميع الأولاد في الحي ويأخذ جميع الأمهات.

واستطرد ولد آخر يقول للأم:

- احذريه، ربما يفعل لك شيئاً تعرفينه..

وكان الولد (روني) يقف ملاصقاً لهذه المرأة يحس أنها ملاذه الوحيد أمام هذا البحر الهائج ضده. ظلت ممسكة بيده، وأدخلته الدار ثم قالت لابنها:

قم وصافحه.

ولكن ابنها قال بإصرار (كلا) لن المس هذا الـ.. عبدالناصر، وأخيراً وبعد أن أرغمت الأم ابنها على التصالح مع العدو المخيف، ووزعت عليهما الحلوى، خرجت إلى غرفة النوم التي لم يدخلها زوجها منذ أسبوعين. واستلقت على الفراش ووجهها مغروس في المخدة، وراحت تبكي بحرقة الفولاذ الذي يقترب من البلاد.

في أمسية الحرب

٤ حزيران ١٩٦٧

▣ كان قائد كتيبة الدفاع المدني رجلاً عسكرياً قديماً وشعر أنه لم يؤد واجبه كاملاً حتى الآن. فرجاله لم يكونوا جاهزين لمواجهة ما سيقع، سواء من الناحية التنظيمية أو من الناحية النفسية. ولذلك قرر أن يجمعهم ويتحدث معهم صراحة. وبعد أن تجمعوا في ساحة المدرسة التي تحولت الآن إلى مركز للدفاع المدني قال:

- أريد أن أحدثكم بصراحة عما نواجه. من المهم أن يعرف كل واحد ما ينتظرنا، فإذا ما حان الوقت عرف كيف يواجه الأمور. إننا نتوقع مع الأسف الشديد قصفاً شديداً بالقنابل ضد مراكز السكان المدنية وفي مقدمتها مدينتنا هذه. ويجب عليكم أن تكونوا جاهزين للعناية بآلاف المصابين.

كان الحضور، جنوداً قدماء، معظمهم تقدم بهم السن ولهم خبرة عسكرية، وكان ردهم على ذلك الصمت المطبق. وحينما انتهى القائد من حديثه وسألهم عما يريدون الاستفسار عنه لم يرد عليه أحد. وإنما تفرق الجميع من دون كلمة. كان الذهول يعقد ألسنتهم عن الكلام.

وفهم قائد الكتيبة أخيراً بأنه ارتكب خطأ كبيراً.

وكان اللواء المصفح قد تحرك نحو الشمال، باتجاه منطقة نيستانا وهو يقوم بالحركة جيئة وذهاباً للمرة الثامنة. منذ أسبوع كامل وهذا اللواء يتحرك شمالاً وجنوباً مرة يظهر في وسط النقب وأخرى في جنوبه يتوجه إلى الجنوب بأضواء قوية، ويعود إلى الشمال تحت جنح الظلام. وإذا حاول العدو أن يفهم شيئاً من تحركات هذا اللواء فإنه سيصل إلى الخطأ تماماً.

أما الآن فقد عاد هذا اللواء إلى مكان التجمع الأول الذي كان فيه منذ عشرة أيام. وبدأت الوحدات تتفرق والجنود يمنون أنفسهم بليلة ينامون فيها بدون إزعاج. وصلت إلى مكان التجمع طائرة هليوكوبتر صغيرة وهبطت في مكان مناسب ونزل منها رجل.

(أين قائد اللواء) قالها صارخاً في قائد أقرب دبابة وأشار له هذا نحو دبابة القيادة، فتوجه إليها وبعد أن أدى التحية العسكرية لقائد اللواء سلمه رسالة، وراح يقرأها على ضوء الشمس ثم وقع عليها بتوقيعه في المكان المخصص ثم استدعى جندي اللاسلكي في الدبابة وقال له: أبلغ الحركة بأن يرسلوا لي سيارة جيب فوراً، ثم قال لمساعده: تعال نتحدث قليلاً على انفراد. وبعد أن ابتعدا عن بقية الجنود قال القائد بصوت منخفض:

- لقد استدعاني الزعيم قائد الجبهة إليه. فانتبه خلال غيابي، واحرص على أن يتسلم الجنود طعامهم فوراً وينصرفوا إلى النوم. ربما نضطر هذه الليلة للحركة. وأضاف: وأرجو أن تكون حركتنا هذه المرة إلى هناك وأشار بيده اليمنى نحو الغرب حيث غربت الشمس وراء الأفق عند أم كتف.

كانت حظيرة الاستخبارات التابعة للكتيبة - ٧٦٢ تعرف دائماً كيف تهتم بنفسها. فعند وصول الجنود إلى هنا قبل أسبوعين حفر أفراد حظيرة الاستخبارات حفرة كبيرة وغطوها بشبكة تمويه مزدوجة تعكس عنهم ضوء الشمس ولكنها لا تحرمهم الهواء النقي. وعلى جانبي الحفرة حفروا مداخل مريحة يستطيعون السير فيها وقوفاً ويقوموا بصيانة سلاحهم بسهولة. وكلما كان يطول الوقت بهم كانوا يدخلون تحسينات على حفرتهم.

والآن وقد انتهوا من وجبة العشاء، استعدوا للسهر معاً ولكن في هذه الأثناء وصل وكيل قوة الكتيبة وأبلغ نائب الاستخبارات قائلاً:

أعرفك على الحاكم العسكري لخان يونس، إنه بحاجة إلى طاولة مع سفرة، فأرجو مساعدته، وسيبقى حالياً عندكم.

رفع الجنود رؤوسهم بدهشة يتساءلون حاكم خان يونس؟ هل يكون ضابطاً مصرياً أسيراً؟ ولكن الرجل الذي دخل، أو الرجال الذين دخلوا، لم يشبهوا الضباط المصريين فالأول كان ملازماً أسمر صغير الحجم يحمل بيده حقيبة كبيرة ومعه نائب بدين يحمل بيديه حقائب عسكرية. وعلى كتفه رشاش آلي.

قال الملازم: شالوم؟ هل أنتم أفراد الاستخبارات في الكتيبة؟

قال نائب الاستخبارات: نعم، ما المسألة. هل أنت حاكم خان يونس؟

(نعم)، قالها الملازم بجدية ووضع حقيبته على الأرض، ثم أضاف:

هل تستطيعون أن تجدوا لي مصباحاً، أي مصباح؟ لأنني سأعمل طوال هذه الليلة تقريباً.

أين القنديل الموجود عندنا. قال النائب موجهاً كلامه لجميع أفراده؟ إنه هنا.

قال أحدهم ذلك. ثم أخرج القنديل من تحت سريره ووضعه على الطاولة وحاول أن يشعله.

(اسمح لي) قال نائب الاستخبارات للملازم ذلك. ثم أضاف:

- ماذا يعني أنك حاكم خان يونس؟

ضحك الملازم وقال:

- سأكون الحاكم العسكري لخان يونس حينما يحتلوا المدينة وسأقوم بجمع الوجهاء فيها ليوقعوا على وثيقة الاستسلام. فإن العرب يولون أهمية كبيرة للناحية الرسمية في مثل هذه الأمور. وإذا كان لديكم متسع من الوقت فأرجو أن تساعدوني هناك. سأقوم باستدعاء (٣٠) عربياً من وجهاء المدينة وأسماءهم موجودة عندي ومعها العناوين وأرقام التلفون. إذا بقيت أجهزة التلفون صالحة بعد المعركة فسندخل منزل رئيس البلدية ونستدعي بقية الوجهاء تلفونياً وإلا سنضطر لإرسال من يحضرهم، ولكن المشكلة هي أنه في المدينة أسرتان

متنافستان فيما بينهما. وسنحرص على أن لا نلحق الضرر باي من الأسرتين. ونأخذ تواقيع عدد متساوٍ من الأسرتين على وثيقة الاستسلام.

وقال نائب الاستخبارات:

- لك مشاغل جدية للغاية، ولكن ماذا ستفعل إذا لم تجد عدداً متساوياً في الأسرتين؟

قال الملازم: سنتدبر الأمر سأتقدم معكم، وحينما نحتل المدينة سأحتاج منكم إلى اثنين أو ثلاثة جنود، وعندها أكون قد جهزت قائمة موجودات السلاح في المدينة ثم نبدأ بجمع السلاح، ويجب أن نفعل ذلك بسرعة وهم لا يزالون تحت تأثير مفاجأة الاحتلال.

قال نائب الاستخبارات:

- بقيت أمامك مشكلتين الأولى، احتلال المدينة، والثانية أن تعرف الأشخاص الذين بحوزتهم سلاح.

قال الملازم: سأتسلم قائمة بموجودات السلاح بمجرد احتلالنا ودخولنا المدينة والمشكلة هي أن نعمل بسرعة ونجمع السلاح فذلك سيمنع عنا إطلاق النار من المخابئ،كما أن جمع السلاح ينطوي على ناحية نفسية تقضي على المقاومة والمعارضة.

وسأله النائب قائلاً: حسناً ماذا بقي أيضاً؟ آه احتلال المدينة.

وانفجر الجنود بالضحك: ولكن الملازم كان غارقاً في مجموعة من الأوراق يتلو فيها على النائب الموجود معه أسماء عربية طويلة معقدة، ويضيف إلى جانب كل اسم شيئاً ما، أشبه ما يكون بالأرقام.

نجوم في الظلام

٤ حزيران ١٩٦٧

▣ مـن بعـيد كـان يأتي صوت المحرك قوياً، ولكن هنا في الشرفة المطلة على الحديقة هـدوء تـام. ولم يكـن يعكـر صفو الـهدوء بـين الحـين والآخـر سوى مـرور سـيارة، أو خشخشة الأوراق الجافـة الـتي تداعـبها ريـح البحر. كذلك كان يقطع الـهدوء صوت الراديو. أما الطيار الـذي كـان يسـتلقي عـلى الأريكـة الـناعمة فقـد كـان يرتدي لباساً صيفياً خفيفاً وقميصه يكشـف عـن ذراعـين نـاعمين، وسـاعته تلمع على يساره التي يمسك بها ذراع امرأة تجلس على كرسي مجاور. وقال الطيار هامساً:

ما أجمل هذا الـهدوء حتى كأنه ليست هنـاك حروب في الدنيا.

وكـان يـرنو إلى المـرأة الشـابة الـتي تجـاوره بـنظرات حانـية. كـان شـعره أسـود اللون، وشـعرها أشـقر متـناثر حـول رأسها. كان الاثنان يحرصان على الظهور بمظهر زوجين، رجل وامرأته، ولكن عشقهما كان عشق ربيع الشباب.

وقالت المرأة الشابة: (أنا أحبك)

وابتسـم الطيـار ثـم أخـذ وجهه طابع الجد. فقـد تخيل أمامه الطريق كأنه لم يعبره مـرات عـديـدة. تخيل مـنطقة الشـاطئ جبال النقـب مـن جنوب القسيمة عبر الجبال القاحلة

استمراراً إلى الجنوب، فوق المرتفعات ومخلفاً جميع مطارات سيناء ويجتاز خليج السويس ثم يمر بالجبال حتى سهل النيل. تخيل مطار بني سويف بمنشآته ومبانيه والمدافع المضادة للطائرات، والطائرات القاذفة الضخمة (الطوبوليف) وتخيل إلى جانب ذلك طائرته الفيتور ذات المحركين التي تبدو كقزم صغير بجانب الطوبوليف. كان يعشق طائرة الفيتور.

وفجأة قطع حبل الهدوء والخيال صوت الراديو بعد أن توقف عن إذاعة برامجه الاعتيادية ليعلن:

أن حكومة الولايات المتحدة تنتظر جواب الدول البحرية بشأن اقتراحها لتشكيل قوة بحرية تقوم بفك الحصار في خليج تيران.. وعاد الهدوء كما كان.ثم جاء في الراديو: يقوم نائب الرئيس عبدالناصر السيد زكريا محيي الدين بالسفر بعد غد إلى الولايات المتحدة لمقابلة الرئيس جونسون.

قال وزير الدفاع رداً على أسئلة الصحفيين بان إسرائيل أضاعت عنصر المفاجأة. وللملاحين وصيادي الأسماك في البحر الأبيض تهب رياح خفيفة ويكون البحر هادئاً.. كان الطيار بحالة استرخاء كاملة تارة يسمع الأخبار وتارة يتخيل المياه الزرقاء تمتد على طول مدى البصر، وعادت الموسيقى تبعث من الراديو، وقال الطيار بصوت هامس:

- سأذهب إلى فراشي فقد صدرت إلينا التعليمات بأن ننام في وقت مبكر في هذه الأيام.

قلصت المرأة شفتيها بقوة، وهي تبتلع رغبتها الخفية في البكاء. كانت تعرف واجبها. يجب عليها أن لا تبكي. ولكن من حقه هو أن يأخذها بين ذراعيه.

إلى حضنك، قالتها بحرارة بشهوة، ثم رفعت عينيها إلى السماء ورأت النجوم تلمع فأغمضت عينيها مستسلمة بين ذراعيه.

كانت ترابط بين مستعمرة (جؤليم) والشارع الرئيسي الذي يدور خلف قطاع غزة الكتيبة (٧٦٢) وعدد من حراس الليل كانوا يدورون حول خيام الوحدات يصطدمون من حين لآخر ببعضهم البعض، فيسألون عن (سر الليل) ثم يقفون مع بعض ليتحدثوا. وبالقرب من الشارع في خيمة الحظيرة الثالثة تبدل الحراس وجلس الحارس المستريح عند باب الخيمة التي ينام فيها زميله وتردد، هل يدخل الخيمة فوراً أو يدخن سيجارة في الخارج؟ في داخل

الخيمة حر وزميله ينام في الوسط ممدداً أطرافه على أرض الخيمة تردد قليلاً ثم اجتنب بطانيتين وسوى الأرض خارج الخيمة لينام. وقبل الصباح حينما يبدأ الندى بالتساقط سيعود ويدخل الخيمة.

استلقى على الأرض. دون أن ينام. ثم عاد وفتح عينيه ورأى السماء بنجومها ثم انقلب على جنبه ونام.

وبالقرب من مدينة حلوان، على بعد كيلومترات قليلة جنوب القاهرة تقوم المصانع الضخمة للطائرات العربية. وهم يبنون هنا منذ خمس سنوات الطائرة المقاتلة ٣٠٠ التي تفوق سرعة الصوت.وبين المصانع والمدينة يقوم برج مراقبة النجوم الحديثة. ورجل طاعن في السن يجلس أمام جهاز (التلسكوب)الكبير في البرج ويتطلع إلى نقطة معينة في كبد السماء. ويرسم خطوطاً على ورقة أمامه. لقد كرس هذا الرجل معظم جهوده في مصر. وفي المدة الأخيرة جاء شاب في متقبل العمر ليساعده - وأنا - ولكني منذ شهر وأنا غائب عنه.

أمضينا سنوات مع بعض ونحن نجري أبحاثاً خاصة في الفضاء ولم تنته بعد. وحينما تنتهي أبحاثهما يستطيعان أن ينشرا نتائج الأبحاث حول الفضاء.

تنحنح الرجل العجوز ثم قام من مكانه، لم يعد يرى فائدة من جهوده فإن صديقه الوحيد المخلص غائب، لقد اختفى بدون أن يترك أثراً وراءه. لابد وأن يكون هو الآخر مشغول بالفضاء بالحرب، طأطأ رأسه وشعر أنه متعب.

أمسية الحرب

ليلة ٥ حزيران ١٩٦٧

▣ يـا، يـا، يـا، هـتف الطـيارون وصـفقوا مـع وقـع الموسـيقى الصـاخبة والحـركات الشـهوانية الـتي تؤديها الراقصة (سهير زكي) من أشهر راقصات هز البطون في مصر، وكانت تذاكـر حفلاتها تضـرب الـرقم القياسي في الـثمن، ولا يـستطيع إلا القلائـل حضور حفلاتها. وهـي الآن، تـرقص للطـيارين فقط. فإن آرام أنوير الصـديق الوفي للطيارين المصريين تمكن من إقـناع (سهير زكـي)بعـرض فـنها السـاحر أمـام الطـيارين المنتصـرين. وعلى المسرح أدت أدواراً مـثيرة عـلى صـوت الموسـيقى، كـان كـل جـزء مـن أجـزاء جسـمها يـؤدي دوراً فنـياً خاصـاً بهـا.بطـنها، ظهـرها، والـثديين المفـتوحين تدعوان للشهوة والغربة العارمة. وعند هذه المناظر كـان الـهـتاف والتصـفيق بـل الآهـات المـثيرة تمـلأ الجـو وهـي تـنطلق مـن صـدور الطـيارين ورفـيقاتهم.

وأنـا.. كنـت أصـدر الإشـارة مـن حـين لآخـر إلى الخـدم لـيقدموا مـزيداً مـن الشـراب، زجاجـات جـديـدة أريقـت في الكـؤوس وتـدار عـلى الطـيارين ورفـيقاتهم.. ومـع كـل جـرعة كـانوا يفقـدون حواسهم وإدراكهم.

وصـديقي العزيـز، صـدقي محمـود كـان يجلس مشـدوداً إلى الراقصة لا يرتفع نظره عـن المشـهد المـثير، وكـانـت الشـهوة تـنطلق مـن عينـيه، وقـد راح رأسـه يترنـح مع وقـع الموسـيقى

والرقص، وفجأة تنبهت فرأيت أن جميع الرجال ومعهم رفيقاتهم بدأوا يتحركون على مقاعدهم يشاركون الموسيقى إيقاعها الجميل ويشاركون الراقصة حركاتها المثيرة. ومرة أخرى أشرت للخدم بتقديم المزيد من الشراب والطعام، وهنا أزاحت الراقصة الغلالات الرقيقة التي تستر بعضاً من أجزاء جسمها الحساسة، فلم يبق مستوراً سوى.. سوى الجزء الذي عنده يلتقي الفخذان. وكان هذا الجزء الآن محط جميع الأنظار من كل جانب.

وحرصت على أن امتنع عن الشراب، شريطة ألا يشعر أحد بذلك، ومن هنا فقد كنت مضطراً إلى تناول بعض الشراب أمام أصدقائي، ولكن الكمية القليلة التي شربتها بدأت تدير راسي. وتساءلت في نفسي، إذا كانت الكمية القليلة التي شربتها قد فعلت بي ما فعلت، فما بال ضيوفي الذين تناولوا أضعاف أضعاف ما تناولته أنا من الشراب؟

واقترب مني صدقي محمود وقال ونظره مشدود إلى الراقصة، هل ستقضي ليلتها معك يا آرام:

قلت نعم.

قال: ألا تريد أن تبادلني؟

وأشار إلى فتاة تجلس معه تدعى (سميرة) فحركت إصبعي نفياً ثم قلت: الكشافة يسيرون في المقدمة دائماً.

فقال: ولكنك ستجد أمامك أيها الكشاف آثاراً كبيرة، آثار كتائب كاملة.

وتوقفت الموسيقى، وخرجت الراقصة (سهير زكي) إلى غرفة الملابس في طرف القلعة.

إن جو النصر قد تسبب في فقداننا زمام أنفسنا وآدابنا. فالقاهرة التي عدت إليها في مطلع هذا الشهر، لم أجدها تلك المدينة التي تركتها قبل ثلاثة أيام فإن ألد أعداء الرئيس، وأكثرهم عناداً وهو الملك الحسين حضر إلى القاهرة، وتبادل القبلات مع رئيس الجمهورية أمام الناس ووقع معه اتفاقاً عسكرياً وضع بموجبه الجيش الأردني تحت قيادة مصرية. وكان هذا دليلاً قاطعاً على صحة جميع الخطوات التي اتخذها الرئيس، فمن أطراف المغرب حتى الصحراء العربية كان اسم الرئيس يردد على كل شفة ولسان.

خصومه، أعداؤه، معارضوه، كلهم وضعوا أنفسهم تحت تصرفه، في خدمته، سلموه جنودهم وطائراتهم وقواعدهم. الجزائر البعيدة بدأت ترسل إلى مصر وحدات عسكرية وعدد من الطيارين، وقد شاركنا بعضهم حفلة الليلة الحمراء. ومن الكويت جاءت سرية جنود دليلاً على رغبة أمراء البترول على الارتباط بركب المنتصر.

وإسرائيل التي وجدت نفسها محاطة من كل جانب بالأعداء المتربصين لم تتجرأ على التحرك. وإنما اقترحت إبعاد القوات العسكرية وسحبها من مناطق الحدود. وإعادة قوات الأمم المتحدة إلى مراكزها.

ومن يوم لآخر، كانت تزداد كثافة القوات العسكرية المرابطة على حدود إسرائيل. العراق نقل الطائرات المقاتلة والقاذفات إلى القواعد الجوية الأمامية. وتسلم جنودها وسلاحها المصفح المواقع في الضفة الشرقية استعداداً لاجتيازها إلى الضفة الغربية وتطويق القدس لاختراق دولة الأعداء وشطرها إلى قسمين والتقدم نحو تل أبيب.

إلى اللقاء في تل أبيب، كان ينتهي كل حديث بين اثنين في سلاح الجو المصري، أو في الجيش، أو في اجتماعات الساسة، بل كان هذا هو الحال في جميع الدول العربية.

إسرائيل لم تتجرأ على القيام بأدنى حركة. والآن يستعد نائب الرئيس ورئيس الجمهورية العربية المتحدة زكريا محيي الدين للسفر إلى أمريكا لمقابلة الرئيس الأمريكي بغية الوصول إلى حل لقضية فلسطين. وكان كل إنسان يفهم، في الأوضاع الجديدة أن أي حل لقضية فلسطين سيكون هذه المرة على حساب العدو الصهيوني.

إن فصل جنوب النقب عن إسرائيل، هو الخطوة الأولى. وسيؤدي ذلك إلى عزل إسرائيل وقطع علاقاتها بمصادر البترول والدول الأفريقية وحرمانها من مينائها الذي تصدر منه بضاعتها إلى الشرق الأقصى، وبذلك تبدأ عملية خنق إسرائيل. وستظل الجيوش العربية ترابط على الحدود، وسترغم إسرائيل عند ذلك على تجنيد قواتها الاحتياطية، فيشل اقتصادها وينهار وستستسلم في أيدي العرب كثمرة ناضجة.

وفي آخر اتصال لاسلكي بيني وبين إسرائيل قبل موعد الحفلة الليلة أبلغت إسرائيل بأن عدداً كبيراً من الطيارين المصريين سيأخذون الإجازات في يومي الأحد والاثنين، وأن قيادة الجيش المصري ستقوم صباح الاثنين بجولة في سيناء، وأبلغت أيضاً إسرائيل بأن السفير

الروسي في القاهرة طلب بشدة من الرئيس المصري عبدالناصر عدم مهاجمة إسرائيل ولهذا اقترحت عليهم في إسرائيل أن لا يضيعوا آخر فرصة لهم للهجوم على مصر في صباح الاثنين الباكر، ولكن المحطة الرئيسية في تل ابيب طلبت مني الاتصال بها مرة أخرى بعد بضع ساعات.

ولهذا غادرت منزلي إلى نادي الطيارين في هليوبولس. وفي الطريق التقيت بغادة الراقصة المبتدئة، وكنت في هذا الوقت بحاجة إلى رفيق يسليني ويبعد عني الأفكار المضطربة حتى يتم تنفيذ الحفلة فتشن إسرائيل هجومها في الصباح الباكر. وكانت قد مضت مدة طويلة لم أر فيها غادة فخري، منذ أن تركتها قبل أسبوع وسلمتها إلى بطل اليمن وسيناء اللواء (كامل مرتجى). وكان استقبال غادة لي حار فرحبت بي وقالت: إنها حزينة لغيابي، وخاصة في هذه الفترة ومدينة القاهرة تحتفل بالنصر وهي لوحدها بدون رفيق. وطلبت مني آن آخذها إلى أي كان تستطيع فيه أن تلتقي بالمنتصرين الأبطال الطيارين المصريين.

كنت أعرف أن غادة من عائلة فقيرة.. وهي اليوم بعد أن أخذت تشق طريقها إلى الشهرة كانت لا تزال تلفظ بعض الكلمات الشعبية الساذجة التي تدل على أصلها الوضيع. مثلاً كانت تسمى ضاحية هليوبولس (بمصر الجديدة) وغير ذلك. ولكن كان هذا هو عيبها الوحيد فقط. وفيما عدا ذلك فلها مميزات جميلة كثيرة. وكانت تعرف أنها من أجل أن تشق طريقها إلى الشهرة بحاجة إلى صديق، صديق ثري له تأثيره وكلمته، ولذلك فهي تحاول منذ لقائنا الأول أن تلتصق بي، لتستعين بثرائي ووجاهتي وتأثيري من أجل الوصول إلى الشهرة.

ولكني كنت أبعدها عني بلطف، فلا تلبث أن تعود إلي تعطيني نفسها في كل وقت. ومع ذلك فلم أكن مهتماً بها، وقلت لها أكثر من مرة بأنني لست الرجل الذي يستطيع مساعدتها، ورغم ذلك كانت تعود وترتمي في أحضاني من جديد.

تحركت أنا وغادة إلى نادي ضباط الجو، في الشوارع التي ازدانت بحلل العيد. وكانت صور الرئيس تطل من كل جانب ومعلقة على كل شباك وباب. وفي الشوارع كانت تسير إسرائيل. وكانت مكبرات الصوت المنتشرة في كل مكان تنقل صوت (أحمد سعيد) مدير إذاعة صوت العرب وهو يقول: لقد وصلت المسيرة إلى تل أبيب إلى مرحلة التنفيذ. إنها

فرصتنا أيها العرب لننزل ضربة مميتة مدمرة على إسرائيل، لا حياة لا أمن للعصابات الصهيونية.

واقتربت مني غادة وقالت:

حينما يدخل جيشنا إلى تل أبيب أريد أن أكون أول فنانة تظهر أمام جنودنا هناك، فهل تستطيع أن تساعدني في ذلك يا آرام؟

وتصور بينما يكون الدخان لا يزال يتصاعد من المنازل المهدمة وجنودنا بلباسهم الرحبي ويلتقون في قاعة كبرى بتل أبيب، لتظهر أمامهم الفتاة الشهيرة غادة فخري وهي ترقص لهم رقصة الانتصار.

على أن جو النصر الذي كانت تعيشه القاهرة في الرابع من حزيران ١٩٦٧ هو الذي مكنني من إقناع قائد سلاح الجو المصري صدقي محمود بإقامة حفلة النصر الكبرى لضباط سلاح الجو. وتقرر أن تقام حفلة للطيارين من المنطقة الجوية الوسطى (القناة) والمنطقة الجوية الغربية (الدلتا والنيل) في نادي طيران قاعدة (انشاص). أما حفلة الطيارين من المنطقة الجوية الشرقية (سيناء) فتقام في قاعدة (بير كفكفا). وهنا جاءتني فكرة عابرة، لماذا لا أساعد غادة فخري فعلاً، فتظهر في إحدى الحفلات الساهرة أمام الضباط الطيارين؟

قلت لغادة:

هل ترغبين في الظهور أمام طيارينا في سيناء؟ فغداً سنقيم حفلة للطيارين في بير كفكفا، وسيحضرها جميع الطيارين في تلك الجبهة فهل تحبين الظهور هناك؟ فقالت وعينيها تلمعان ببريق الشهرة؟

وهل ستكون أنت هناك؟ قلت كلا لأنني ساكون موجوداً في مكان آخر ولكنني سأسلمك مباشرة إلى اللواء (عبدالسلام دغيري) قائد سلاحنا الجوي في سيناء.

وفرحت غادة، كانت هذه أكبر مناسبة لها، فإنها ستظهر أمام طياري الخط الأول، واسمها يتردد على كل لسان، قالت: آرام، أرجو أن ترتب لي ذلك فوراً وسأكون خادمتك إلى الأبد.

لقد كانت غادة من أسرة فقيرة وضيعة، ولم تكن تفهم أنه لا شيء يدوم إلى الأبد، تحدثت مع اللواء عبدالسلام دغيري بخصوص غادة، ثم أخذتها إلى منزلها، وفي الطريق قلت لها:

كوني لطيفة مع اللواء دغيري يا حلوتي، فهو رجل كبير وله مستقبل في بلاده.

قالت: ارجو أن يكون رجلاً بالفعل أكثر من الجنرال الذي سلمتني إليه، ذلك الجنرال الذي قلت عنه أنه بطل اليمن كامل مرتجى.

قلت: وأنا أيضاً آمل ذلك يا عروسة ولكنني لم أجربه، جربيه أنت وأخبريني بالحقيقة، وضحكنا.

كنت احب غادة، ولكن كما يحب النجار منشاره، وكما يحب الفلاح محراثه، وكما يحب لاعب الشطرنج حجارة الشطرنج وهكذا أصبحت غادة جزءاً ضمن مخططي الخاص، ولم يبق أمامي الآن سوى استلام موافقة المسؤولين في تل أبيب على تنفيذ الحفلة والبدء بها.

كنت أعرف أن سلم الأصوات الموسيقية العربية الذي يشتمل على (١٧)نغماً، هو أغنى بكثير من سلم الأصوات الموسيقية عندنا، أقصد بلد اليهود. وكنت أعرف كذلك أن راقصات هز البطون يتحكمن في أعصابهن وعضلاتهن بشكل غريب. وكنت أعرف التقاليد العربية القديمة التي يرجع تاريخها إلى آلاف السنين وهو الانصراف إلى اللذات والشهوات عند من يقدر ذلك. ولكن ما شاهدته الليلة كان جديداً علي، فقد استمرت الحفلة منذ المساء ـ ـى وتيرة واحدة، وحان منتصف الليل، حيث ينتهي اليوم، ويبدأ يوم جديد، وفي ساعتي رأيت كيف يختفي الرقم (٤) ويحل محله الرقم (٥)، مشيراً إلى تاريخ اليوم الجديد. طوال الحفلة كنت احرص على أن لا أزيد من الشراب ولكني كنت مضطراً إلى مجاراة الحضور واحتساء القليل، ومع ذلك فإن الشراب والضجة والصخب والموسيقى المجنونة والرقص المثير الذي كانت تؤديه (سهير زكي) كل ذلك تسبب لي بنوع من الغيبوبة اللذيذة، وفقدان الحواس. فاعتذرت من صدقي محمود وخرجت إلى غرفة الحمام ووضعت رأسي تحت حنفية الماء البارد حتى صحوت قليلاً وبدأت أفكر بما يجري.

هل صحيح أن الحفلة حقيقية، والكل سكارى فعلاً أم أنني مخدوع بما أرى؟ هل صحيح أنني استطعت ان أخدع الجميع ام اني أنا الذي خدعت من زكريا محيي الدين الذي كان يحذرني منه استاذي فيشل؟ هل يعلمون بحقيقة أمري، فما أشعر إلا والباب ينفتح لتدخل الشرطة السرية وتلقي القبض علي وبذلك تفشل الخطة ويستعد الطياريون المصريون لمواجهة هجوم إسرائيلي فيدمروا طائراتهم ويقضوا عليها قضاءً مبرماً؟ وعدت أقلب الأمور من جديد، الإجازات التي أعطيت صباح اليوم إلى مئة طيار. التعليمات التي أصدرها صدقي محمود بإلغاء حالة الطوارئ منذ صباح يوم السبت، وتعليماته بشأن استراحة الطائرات في قواعدها ابتداء من فجر الاثنين. أنا الذي ضغطت على صدقي محمود وأقنعته بإصدار تلك التعليمات ليتاح للطيارين الاشتراك بالحفلة.

فهل كل ما تقدم حقيقة أم أنه عملية خداع طويلة لاكتشاف أمري؟

وصحوت تماماً وعرفت أن الحفلة، حفلة حقيقية، وأن الطيارين وقادتهم هم سكارى الآن، سكارى حقيقيين هم ورفيقاتهم الجالسات في أحضانهم، وخرجت من غرفة الحمام إلى الصالة، ثم توجهت إلى المكتب الواقع في خلف الصالة وبه ضابط مصري برتبة ملازم ثان، وكان هذا يستمع إلى الحفلة دون أن يراها ولا يستطيع أن يشترك بها، وما أن رآني أدخل عليه حتى قام وأدى لي تحية عسكرية وقال:

-نعم يا أنوير بك، أية خدمة تريد؟

فقلت أريد أن أتصل فوراً بقاعدة بير كفكفا؟

وأدار قرص التلفون، وتحدث مع آخر، ثم سلمني السماعة:

قلت: من يتكلم؟ قال - القاعدة الجوية ٢٢٩.

قلت: اريد أن اتحدث مع (الست غادة فخري) فهي ترقص عندكم الليلة.

قال: لا أستطيع أن أناديها، فهي تؤدي وصلتها حالياً.

قلت: أريدها لأمر مستعجل.

قال: ولكنها ترقص الآن، هل أستطيع أن أبلغها ما تريد.

قلت: لا، شكراً، ولكن متى ستنتهي من وصلتها؟

قال: لا أعرف، ولكن الحفلة ستستمر إلى وقت متأخر من الليل.

لم أكن في الواقع أريد أكثر من ذلك، وضعت السماعة وشكرت الضابط وسألته:

متى تنتهي نوبتك؟

قال: والاستياء واضح في صوته (بعد ساعتين).

قلت: أرجو أن تستمر الحفلة إلى أن تنتهي نوبتك لتنضم إليها.

قال: شكراً جزيلاً يا أنوير بك.

سعيدة يا أنوير، قال لي بصوت أعرفه.

قلت: سعيدة يا صالح، كيف حالك، ها أرى أنك ترفعت إلى رتبة مقدم. وأين أنت اليوم هل لا تزال في قاعدة الأقصر؟

قال مفاخراً: وهو يشير بيده إلى نفسه:

آرام، أمامك يقف قائد مطار الغردقة، وتظاهرت بأني أؤدي له التحية العسكرية، ثم استطرد وقال:

قام أبو العز بتحويل جميع الطائرات الحديثة سوخوي ٧ إلى قاعدتي، وقد وصلت إلى القاعدة أمس من فايد، ونخشى الآن وقوع هجوم جوي إسرائيلي من جنوب سيناء وعند ذلك سنلتف عليهم من المؤخرة بطائرات سوخوي ٧ وميغ ٢١.

قلت: نعم، ويقول صدقي محمود بأنها تتفوق على أية طائرة لدى العدو.

قبل خمسة أيام حينما كنت في تل أبيب قلت ذلك لقائد سلاح الجو الإسرائيلي ويومها قفز غاضباً من مكانه واستطرد صالح:لقد قام الفريق مصطفى الحاوي بمرافقة رئيس هيئة الأركان محمد فوزي بنقل سرب من طائرات اليوشن ٢٨ من قاعدة أبو صوير إلى قاعدة الأقصر. وبذلك أصبحت هناك غالبية الطائرات القاذفة - ٢- طائرة اليوشن ٨ و-١٦

- طوبليف وجميعها خارج مدى طائرات العدو. ولهذا نقل أبو العز طائرات سوخوي من الأقصر إلى قاعدتي في الغردقة.

كنت ابدو كالمستمع الأديب لما يقوله صالح، وفي الوقت نفسه كان فكري مشغول بقضيتين اخريين، قسم من فكري كان يصور الحقائق، والقسم الآخر توصل إلى نتيجة حاسمة حول وجود خلافات كبيرة في قيادة سلاح الجو المصري، وبالتالي فإن أيام صدقي محمود كقائد لسلاح الجو أصبحت قريبة من نهايتها. وهنا سمعت ضجة كبيرة تدوي في الصالة ورأيت الناس يتجمهرون في مكان معين ثم يرتدون إلى الخلف، وسكت صالح ونظر إلى مكان الضجة وكذلك فعلت انا، وأحسست بأن الشرطة السرية دخلت لتلقي القبض علي. فرحت أتلمس السن المستعار في فمي لأستخرج حبة السم وأبتلعها، ولكني عدلت عن ذلك في آخر لحظة حينما رأيت الناس يتراجعون ومن بينهم رأيت مجموعة من أفراد الشرطة السرية التابعة لسلاح الجو المصري.

وتقدم مني قائد المجموعة وطلب مني بلطف أن أرافقه.

استنفار الطيران

٥ حزيران ١٩٦٧ (الصباح الباكر)

▣ كان قائد مجموعة أفراد الشرطة العسكرية التابعة لسلاح الجو المصري برتبة رئيس، قصير القامة، ذو وجه ممتلئ وجدي ونظر إلي وإلى صالح ثم أدى التحية العسكرية بدقة وقال:

أرجو المعذرة أيها السيد، إن لدي أمراً بإحضارك.

الدم في وجهي تجمد تماماً. أحد الدروس التي تعلمتها من فيشل يقول إذا لم يكن لديك شيئاً مفيداً تقوله، فلا تقل شيئاً، ولا تخف فإن سبل النجاة كثيرة.

ورأيت المقدم صالح عبدالنبي قائد قاعدة الغردقة يتقدم خطوة إلى الأمام واقترب مني وقال.. آسف جداً، رافقتك السلامة يا أنوير بك...

لم أرد عليه، أكثر من عشرات سنوات أمضيتها في هذا البلد، بدون أن يكتشفوا أمري، وفجأة، حينما حانت الساعة الوحيدة التي احتاجتني بلادي فيها، يصيبني الفشل؟ ولم أحاول أن أعرف الخطأ الذي وقعت فيه وأدى إلى فشلي. وتركز فكري كله في نقطة واحدة، هل أبتلع الآن حبة السم الموجودة في داخل السن المستعار في فمي أم أنتظر حتى نغادر إلى الخارج؟

انقسم أفراد الشرطة العسكرية إلى قسمين، وبدات أسير بينهم، ولكن صالح عبدالنبي تقدمني، وقف بينهم منتصباً ثائراً ومعتزاً في وقت واحد ورأيت قائد السلاح يشق طريقه بين الجماهير المتراصة داخل الصالة. نظرت إليه وأنا خائف، كان يبدو عليه أنه يكاد يختنق من الغضب. كانت شفتيه تتمتمان بدون أن يستطيع أن ينطق شيئاً. وأخيراً سيطر على نفسه وصاح في ضابط الشرطة العسكرية قائلاً:

تهيأ يا رئيس حينما يقف أمامك قائدك الأعلى.

ودق الضابط الأرض بقدميه ثم أدى التحية العسكرية فرد عليها صدقي محمود بدون اهتمام، ثم قال الضابط: ماذا حدث، ماذا في الأمر يا رئيس؟ وتطوع صالح عبدالنبي ليرد فقال: لابد أنهم مرسلون من قبل العقيد مدكور أبو العز، وأشار ضابط الشرطة العسكرية برأسه علامة الإيجاب، وواصل صالح عبدالنبي قائلاً:

لقد منعنا العقيد أبو العز من الاشتراك في الحفلة، ولكننا نفذنا أوامرك وحضرنا إلى الحفلة، ولكن أبو العز أرسل الآن الشرطة العسكرية لتخرجني من الحفلة.

فقال صدقي محمود لضابط الشرطة العسكرية:

انصرف من هنا يا رئيس مع رجالك، اخرج حالاً قبل أن أطلب محاكمتك عسكرياً، وأدى الضابط التحية وجميع رجاله وتوجه إلى الباب.

لم أكن أرغب أن تنتهي الحفلة، فكل دقيقة تستمر فيها لها قيمة كبرى بالنسبة لخططي ولذلك لوحت بيدي إلى الخدم وأمرتهم بتقديم الشمبانيا للجميع.

وأسرع الخدم إلى الثلاجة الكبيرة حيث زجاجات الشراب التي كنت قد أعددتها أنا على حسابي الخاص بعد أن تنتهي الزجاجات التي قدمتها للحفلة قيادة سلاح الجو.

أدى صالح عبدالنبي التحية لصدقي محمود وشكره على موقفه ثم انصرف إلى منتصف الصالة، وتقدم مني صدقي محمود مسروراً بالشمبانيا، التي قدمتها للحفلة على حسابي ثم قال:

(بعد انتهاء الحفلة سنتوجه إلى منزلك يا آرام. أنا وأنت ومعنا (سهير زكي) وسميرة لنمضي بقية الليل معهما ونفرح قلبيهما). قلت: نفرح قلبيهما فقط.؟

ولكنني بيني وبين نفسي كنت عازماً على أن تستمر الحفلة حتى الفجر وسأفعل كل شيء من أجل استمرار الحفلة حتى الصباح. إن في الصالة الآن ٤٠٠ طيار مصري وهم الغالبية العظمى من طياري بلاد النيل. وهم الآن بدون وعي تقريباً، وحينما يغادرون هذا النادي مع الفجر لن يستطيعوا أن يميزوا بين ساعة اليد وبين ساعة قياس الارتفاع في طائرات الميج ٢١.

تقدمت نحو المنصة المرتفعة الواقعة في منتصف الصالة وقلت موجهاً كلامي للراقصة سهير.. فرجينا على بعض مفاتنك، إن الجو كئيب حينما لا ترقصي.. وقفزت الراقصة إلى المنصة تؤدي رقصاتها بمنتهى الإثارة، وشعرت أن أفكاري قد هدأت تماماً وصحوت من تأثير الشراب. واستمر الرقص في الصالة حتى حوالي الساعة الثالثة حيث انسلت الراقصة إلى غرفة الملابس وهي متعبة للغاية. وتحركت الفرقة الموسيقية في أثرها للانصراف ولكنني أوقفتهما قائلاً:

(ابقوا في أماكنكم من فضلكم، فلا زلنا بحاجة لكم).

ونظر إلي أفراد الفرقة الموسيقية باستغراب ثم جلسوا على مقاعدهم وأمرت الخدم بأن يقدموا لهم الطعام والشراب وصعدت إلى المنقصة وقلت عبر مكبر الصوت، والآن سنلعب اللعبة التي لم تتح لنا فرصة تحقيقها في عالم الواقع، وتطلعت جميع الأنظار إلي بينما واصلت أقول: سنقوم الآن برئاسة قائد سلاح الجو بمناورة شاملة لإبادة سلاح الجو الإسرائيلي.

وصفق البعض.. ولكن الأكثرية ظلت تنظر إلي، فقد استطعت أن أثير فضولهم وقلت، يجب على واحد منكم أن يتقدم إلى مفتاح النور الرئيسي في الصالة لإطفائه علامة على بدء الهجوم الشامل. وخلال ذلك رأيت صالح عبدالنبي يقف عند الباب يودع بعضاً من رافقه لينصرف إلى قاعدته، ترى هل سيجبره مدكور أبو العز على أن يكون جاهزاً في حالة استعداد للطوارئ؟ وكنت أتمنى ذلك لأنني كنت اعرف أنه سينام هو ورفاقه داخل الطائرات ورأيت أن واحداً من الحضور قد عثر على المفتاح الرئيسي للنور فقلت: الآن نبدأ بالمناورة، على جميع النساء أن يتجمعن في الزاوية اليمنى، والطيارين في الزاوية اليسرى.

انقسم الحضور إلى مجموعتين، كل مجموعة وقفت في زاويتها والجميع ينظرون إلي فقلت: إن الرمز السري لهذه المناورة الكبرى هو (دمروا ميراج) وأشرت إلى مجموعة النساء قائلاً: أنتن الميراج والطيارون هم الميج. وحينما أرفع يدي تنطفئ الأنوار في الصالة ويبدأ الهجوم، والفرقة الموسيقية تبدأ العزف، وعلى قسم الميج أن يبحث في الظلام عن قسم الميراج ويتحكم به جيداً، عند ذلك يكون انتصار الميج على الميراج.

وأصدرت الأمر بإطفاء النور. وصدحت الموسيقى صاخبة، وتخيلت في ذهني أن كل طيار الآن قد وجد ضالته وما يشتهيه، فقد بدأ الطيارون يبحثون عن الفتيات في الظلام فيصطدمون ببعضهم البعض ويواصلون البحث وكانت الصرخات الشهوانية تصدر عن الفتيات، ولكنهن توقفن عن الصراخ بعد أن أدركن أن الصراخ سيدل الطيارين عليهن. ومع ذلك فقد عثر الطيارون على الفتيات، ولكن أحداً ما لم يكن يعرف ما هي حصته في الظلام، وفهمت من الأصوات المنتشرة في الصالة أن قسم الميج استطاع أن يتحكم بقسم الميراج لأن قسم الميراج نفسه كان يريد أن يتحكم قسم الميج به.

وبعد فترة من الوقت، قلت عبر مكبر الصوت: بقيت دقيقتان للمناورة وفجأة تقدم مني واحد يقول: يجب أن تنتهي يا أنوير بك، فقد وصل مبعوث الجنرال هلال، وقال أن رئيس هيئة الأركان محمد فوزي سيرسل مجموعة من الشرطة العسكرية لتفريق الحفلة.

كانت الساعة الخامسة صباحاً، وكنت أنا الآخر في غاية التعب وصدقي محمود مستلق على أريكة كبيرة في منزلي يحتضن بين ذراعيه سميرة وصعدت أنا والراقصة (سهير زكي) إلى الطابق الثاني في المنزل لنقضي شؤوننا.

وسألتني سهير، وهي ترقد بجانبي: هل تنتظر شيئاً؟ قلت: كلا.. ولكنني متعب جداً ولا أستطيع أن أنام. والواقع أنني لم أحاول أن أنام، بل إنني كنت أحارب النعاس الذي يداهمني من حين لآخر. كنت أتساءل متى سيقوم سلاح الجو الإسرائيلي بهجومه على القواعد الجوية المصرية؟ ورأيت نور الصباح يغمر النافذة، وكانت الساعة الخامسة وخمسين دقيقة وبعد ساعة وربع يجب على صدقي محمود أن ينهض ويذهب إلى عمله.

لم يبق من الرواية إلا الفصل الأخير

▣ وبينما كانت الأقدار تخط بأقلامها صفحات سوداء من تاريخ الشرق الأوسط، كانت أقلام أخرى تخط المهازل التي رافقت تلك الأحداث الجسام وهزت أركان العالم بأسره شملت جميع الاتجاهات وغطت مختلف المجالات العسكرية والسياحية على السواء.

أجل لقد شهد مكتبي المتواضع في تلك الأمة الحوار الذي أدارته فيما بينهما كل من (سميرة) والراقصة (سهير زكي) حيث بدأت الأولى وهي لا تزال في ضجعتها فوق الصوفا المحتلة للركن الأيمن من الغرفة فقالت:

- إيه يا (سميرة) ألم تخبريني أين كنت تلك الليلة؟ أعني ليلة البارحة.

- قلت لك بأنني قضيتها في أحضان...

- ولم السكوت؟ هيا أخبريني أم أنك...

- أم أنني ماذا؟

- أم أنك في استحياء من أن تذكري ذلك علناً وكأنك الطاهرة البتول التي لم ترتكب أي إثم حتى الآن...

- يا للثرثرة المقيتة!

- أجل وهي كذلك... فهيا..

- فهيا ماذا؟

- هيا أخبريني الحقيقة..

- وأية حقيقة تعنين؟

- حقيقة ذاك الرجل.(صدقي محمود)؟

- ومن غيره؟

- لا. لا. هذا كثير..

- وماذا تعنين بقولك هذا؟

- اعني كل شيء.. آلا تفهمين؟

- أفهم ماذا؟

- ما أقول.. بل ما أرمي إليه..

- لقد قلتي الشيء الكثير ولكن..

- ولكن ماذا؟

- ولكن من دون معنى.. فأنت تعرفين بما لا تعرفين..

- ربما كان ذلك... أما ما أعرفه فهو كثير وكثير.

- أجل إنك لتعرفين أشياء وأشياء.. فهلا..

- فهلا ماذا؟

- فهل ذكرت ذلك مفصلاً..

- ليس الآن يا عزيزتي..

- ليس الآن؟ يا للعجب!

- ولم العجب؟

- اسمعي يا عزيزتي.. إن صدقي.. إن...

- ماذا دهاك؟ الم تعودي تتذكرين اسم الرجل.. لئن كان ذلك فانا.

- لا. لا. داعي لذلك.. إن صدقي محمود.. إن..

- ماذا به صدقي محمود؟ هيا أسرعي.. انطقي قبل أن ينفذ صبري.

- إنه لرجل طيب القلب...

- آه..! أهذا ما تريدين أن تقوليه بعد ذاك الحوار الطويل الذي خلته لن ينتهي؟

- ولكنك لا تدعين لي الفرصة لأوضح لك فكرتي وأخبرك بالذي حصل.

- حسناً.. هيا تكلمي... فأنا كلي آذان صاغية..أجل إنني أصغي إليك بكليتي

- إن صدقي محمود رجل طيب القلب وقد بات تلك الليلة معي.. أجل ولم يتركني لحظة واحدة..

- يا للخيبة! أهذا كل ما لديك؟

- قلت لك صبراً... ودعيني أتكلم...

- طيب.. تفضلي....

- ولقد تحدث إلي بأشياء كثيرة...

- ادري أنه ثرثار عقب كاس واحدة أو كاسين من الوسكي.. فما الذي قالـه؟

- لقد قال كل شيء..

- لماذا تخافين نطقها؟

- لست خائفة، بل إنني أخجل...

- آه أأنت تخجلين.. حسناً.. وماذا يعني ذاك التبدل الطارئ برأيك؟

- إنه يعني كل شيء... إنه الحرب...

- الحرب؟

- أجل.. الحرب بين العرب وإسرائيل...

- وكيف علمت ذلك؟

- وهل هذا بالأمر الخفي..؟ إنه لاستنتاج بسيط بحسب رأي صدقي بك...

- وهل قال صدقي محمود ذلك..؟

- آه نسيت! حقاً إنه صدقي محمود... ولكنه ليس برجل الأمس...

- ماذا تعنين؟

- أعني أن لسانه غدا فضيعاً ومتدفقاً بالكلام إلى ما لا نهاية.. أجل إلى ما لا نهاية..

- وماذا قال أيضاً؟

- قال أن العرب هبوا الآن كتلة واحدة وقد أتموا استعدادهم ولن يتراجعوا هذه المرة إلا بعد أن تلتقي جيوشهم هناك...

- وأين ستلتقي يا ترى؟

- في تل أبيب.. إنها الهدف الوحيد الذي يحن كل عربي لأن يطأها بقدميه وقد غدت قاعاً صفصفاً وغدا من فيها من صهاينة أثراً بعد عين..

- يا للحقد! يا للعداء الذي لا يقف عند حد..!

بمثل هذا كانت الراقصة تهذي في حديثها مع (سميرة) وكأنها إحدى ضابطات الشعبة السياسية.. في حين كانت هذه الأخيرة تتحاشى أن تفرط على مسامعها بكلمة واحدة.. إذ كانت تود أن تأخذ ولا تعطي... أن تشتري لا أن تبيع كما يقال.

ولذا راحت تستدرج الراقصة (سهير زكي) لتلقط أخبار (صدقي محمود) التي كانت تهمني أكثر من أي شخص آخر في تلك اللحظة بالذات.

ولقد كانت سميرة تستخدم جهاز التسجيل الصغير الحجم جداً الذي جهزتها به وأخفته في موضع حساس منها حيث كان يرقد هناك وكأنه المكان الذي صنعته يد الميكانيكي من أجله خصيصاً.ولقد كنت في تلك الليلة اشعر بانقباض وكآبة لم يحدث لي أن شعرت بمثيل لهما من اي وقت مضى، فعزوت ذلك إلى القلق الذي كان يساورني وقد اشتدت بي الرغبة للوصول إلى ذاك الشريط الذي سجلته (سميرة) بحديثها هذا والذي لابد أن يكون مفعماً بالمعلومات التي أتلهف إليها.

ولكن كم كانت خيبة الأمل كبيرة لدي عندما تلقيت الشريط المذكور في ساعة متأخرة من تلك الليلة، وبرحت أستعيده كلمة فكلمة، دون أن أعثر على ضالتي فقد كان ذاك الحديث مجرد كلام (نسوان) كما يقال..

بل ربما كانت الراقصة (سهير زكي) ألمع ذكاء وأقوى حيلة من (سميرة) ذاتها، فداوتها من جنس علمها بعد أن أدركت بحاستها السادسة الهدف المنشود من جرها إلى ذاك الحديث عن صدقي محمود بالذات.

ثم رحت أتحدث إلى نفسي وأنا ما زلت في الحمام مستلقياً في (الحوض) وقد غمرتني المياه الحارة لدرجة ٣٧ مئوية بحسب رأي الأطباء.. وقد انطلق صوت المسجل داخل أذني مباشرة باستخدامي السماعة الخفية الصوت احتياطاً للأمر..

وكان للماء الحار التأثير العجيب على أعصابي المرهقة، فكانت تسترخي تدريجياً مع همسات وتأوهات تلك الفاتنتين اللعوبتين اللتين كانتا ترسلانها أثناء تحدثهما معاً بين حين وآخر..

أجل لقد كان حديثاً شيقاً ومثمراً من الناحية العاطفية والحسية أيضاً بالرغم من فشله من الناحية السياسية التي كنت آمل أن أحصل بواسطتها على ما أتمناه.

خلت بأنني رحت أتحدث إلى نفسي وأنا ما زلت مستلق داخل الحوض (البانيو) وقد أسندت رأسي إلى حافته الخلفية كي أنهض بأذني الحاملة للسماعة عن مستوى الماء الحار الذي يرسل البخار عالياً حتى السقف..

فقلت متسائلاً:

ولم هذا الاهتمام الكلي (بصدقي محمود)..؟

إن كل ما وضعته من مشاريع وما رسمته من خطط قد تم تنفيذه طبقاً للأهداف المقررة..

أجل إن كل شيء يسير على ما يرام الآن ولم يعد أمامنا إلا الانتظار..

فها هي المملكة المصرية سابقاً والجمهورية العربية المتحدة حالياً.. على أهبة اللقاء مع مصيرها المحتوم النكد الطالع لدرجة أن سوء طالعها هذا لا يختلف سوء طالع الراقصة سهير زكي ذاتها التي لن تفلت من الهلاك في الوقت الذي ستتعرض فيه بلادها إلى الدمار والخراب..

بمثل هذا رحت أهدئ من حدة الثورة المتفاعلة في نفسي على أثر الفشل الذي لحق بالمحاولة الأخيرة لالتقاط المعلومات عن صدقي محمود بالشكل الذي كنت أريده وليس بالصورة التي لجأت إليها سميرة دون وعي أو تفكير.. وللمرة الألف تذكرت فيشل.. ذاك الإنسان الذي خلق مني جاسوساً وصنع مني رجلاً يخدم بلاده بكل ذرة من كيانه المشبع حرارة وإيماناً بالنجاح في نهاية القصة وعند آخر المطاف.

وبتذكري لفيشل تذكرت ما قاله لي في إحدى المرات:

- إياك أن تعتمد على أي إنسان.. فالخبر الذي تحصل عليه بنفسك هو أفضل من ذاك الذي تستقيه عن طريق الآخرين..

أجل لقد قال فيشل ذلك.. فلماذا لا أطبقه الآن..؟

إنني سأستقبل سهير زكي بنفسي وأقضي معها أمتع الأوقات وأنال منها أوفر المعلومات...

وهكذا نهضت من الحوض لأتناول المناشف وأنا قد استرجعت كامل شخصيتي وقد افعمت بالنشاط والأمل الكبير..

ولكن كيف السبيل إلى استدراج تلك الراقصة الملعونة؟

قرع جرس الهاتف وأنا ما زلت أرتدي لباسي على أثر الحمام الساخن الذي أعاد إلي نشاطي وعزيمتي.. فمن هو المتكلم يا ترى؟

امسكت بالسماعة وأنا اتساءل في نفسي هكذا.. وأتمنى أن تكون سميرة كي أستفسر منها عن آخر اخبار سهير زكي وأين هي موجودة الآن.

ولكن الصوت الذي جاءني لم يكن صوت (سميرة)، حتى ولا صوت فتى بل هو صوت مأمور الهاتف من نادي الضباط للقوات الجوية. حيث تحدث إلي هكذا:

- أريد الاتصال بأنوير بك...

- إنني هو المذكور.. من المتكلم؟

- هنا نادي ضباط الجو...

- حاضر يا سيدي أية خدمة؟

- أنوير بك تفضل قابل السيد زكريا محيي الدين بأمر هام.

- من قال ذلك؟

- هو بالذات..

- ولكن السيد زكريا على أهبة السفر إلى أمريكا..

- هذه اوامر من سيادته.. وليس لي أية صلاحية..

- حاضر إنني قادم.. ولكن..

- ولكن ماذا سيدي!

- ألا يمكنني أن أتكلم معه.. أعني صلني به..

- لا أستطيع إنه مشغول وقد منع كل اتصال معه حيث أعلن عن سفره..

- لم أفهم..

- المفروض أنه مسافر منذ ساعة واحدة...

- ولكنه موجود الآن أليس كذلك؟

- موجود.. أو غير موجود.. لا شأن لك بهذا، يا سيدي انوير بك.

- صلني به ارجوك.

- لا أستطيع.. هيا تفضل لمقابلته فالوقت يجري سريعاً وهو في أنظارك..

وضعت السماعة وأنا أتساءل عن صحة هذا الخبر الذي حمله إلي جهاز الهاتف الآن..

إذ ما شأن السفاح المصري معي الآن وهو على أهبة السفر؟

من يدري ربما كانت هناك مكيدة!

بل لماذا التشاؤم..؟ ربما كان الخبر صحيحاً والأمر مستعجل على ما يبدو فلم لا أذهب وليكن ما يكون..

وهناك في الغرفة رقم (١١) من مقر القيادة الجوية السري. استقبلتني الضابطة (س.ن) وهي باللباس الرسمي وتحمل رتبة كولونيل..

فخلت نفسي للوهلة الأولى بأنني موجود الآن في مركز عسكري في بلادي وليس في مصر.. إذ لم أعهد أن كانت هناك نساء عاملات في الجيش المصري وحتى في سلاح الجو.. فهززت رأسي حيرة وتقدمت منها وصافحتها ببرود مصطنع وقلت:

- حاضر يا سيدتي.. إنني أنوير...

- أهلاً بك.. إننا نعرف ذلك..

- لقد جئت بناء على هاتف سيادة نائب الرئيس...

- أجل نحن نعرف ذلك... تفضل...

قالت ذلك وهي تشير بإصبعها إلى باب الغرفة السرية رقم (١١-ب) ثم ضغطت على زر صغير فانفتح الباب من تلقاء ذاته حيث غابت فردتاه داخل الجدار، فترددت بالدخول، إلا أنني بعد ذلك أقدمت ودخلت وأنا أخفض رأسي بمستوى علو الباب، وما أن أصبحت في الداخل، حتى أغلق الباب نفسه ورائي. وإذا بي وجهاً لوجه أمام السفاح المصري الرهيب...

لم ينهض السفاح لاستقبالي، بل مد يده مصافحاً وهو جالس في موضعه وراء مكتبه وقد رسم على شفتيه ابتسامة مصطنعة مخيفة ثم قال:

- لقد وقعت بالفخ أيها الجاسوس المحتال...

- أو تظن ذلك؟

- بكل تأكيد فأين المفر؟

- أعني هل تعتقد بأنني جاسوس حقاً؟

- وهل أنت غير ذلك؟

- لئن كنت هكذا فما عليك إلا أن تأمر بإلقاء القبض علي فلقد جئت إليك بكامل رغبتي..

- اجلس نتحاور قليلاً ثم سنرى ما يلزم عمله...

فجلست وأنا أتصنع الابتسامة بدوري ثم أردفت قائلاً:

- لو كنت جاسوساً حقاً لما قدمت إليك وأوقعت نفسي في قبضتك بمثل هذه السهولة...

فتجاهل السفاح كلامي هذا، ثم ضغط على زر بجانب المكتب فانفتح باب سري إلى غرفة أخرى مجاورة للجانب الأيمن للموضع الذي يجلس فيه زكريا محيي الدين، ثم سرعان ما ظهرت الضابطة الشابة التي استقبلتني لدى المدخل الخارجي. فذهلت مما رأيت إذ كنت أظن أنني قد تركتها هناك فما الذي جاء بها إلى الغرفة السرية الثالثة.

وهنا ادركت أن عموم تلك الغرف متصلة ببعضها وهي تنفتح فيما بينها بشكل خفي. قلت لنفسي عندئذ:

يا لي من غبي حقاً! إذ كيف السبيل لنجاتي من هذه الورطة اللعينة؟

وهنا جاءني صوت زكريا محيي الدين، ليوقظني من شرودي حيث قال:

- أحقاً أنت الذي اغويت صدقي محمود؟

وبدلاً من ان أرد على قوله هذا، تصنعت التهذيب ونهضت من موضعي وتقدمت من الضابطة الشابة متظاهراً بالتسليم عليه وانا أقول:

- احتراماتي يا سيدتي..

فارتدت الضابطة إلى الوراء قليلاً متجنبة مصافحتي وكانها خشيت أن تفعل ذلك بحضور السفاح...

فعدت عندئذ إلى مكاني وأنا اقول:

- معذرة يا صديقي لم أكن أعني الإساءة إليك.. بل إنه مجرد إتكيت يتحتم على الرجال استخدامه امام السيدات...

فقاطعني السفاح قائلاً:

- دع المجاملة جانباً الآن وأجب على سؤالي.. كفاك لفاً ودوراناً..

فقلت له وانا أتصنع الهدوء والبلاهة:

- وأي جواب..؟ أعني ماذا تريد مني بالحرف الواحد؟

- أخبرني هل كان ذاك الزعم صحيحاً...

- اي زعم يا سيدي؟

- بأنك انت الذي أغويت صدقي محمود لإقامة تلك الحفلة البغيضة التي ذهبت بكبرياء الجيش المصري وكشفت عن سوأته أمام الجماهير.؟

وهنا شاركته الضابطة الشابة الحديث إذ قالت:

- أجل دعنا نسمع من فمك جواب هذا السؤال الهام.

فقلت لزكريا محيي الدين:

- إنني لحائر مع من أتحدث.. أعني هل الضابطة الشابة هي من جهازكم السري؟

فرد علي السفاح بلهجة هادئة وقال:

- أجل وماذا يعنيك من أمرها؟

فقلت له وأنا أبتسم:

- حسناً! إنه مجرد سؤال.. أعني أود أن أحتاط للأمر فهل هناك أي مانع؟

فقالت لي الضابطة الشابة:

- كفاك لفاً ودوراناً! هيا أجب على سؤال سيادة نائب الرئيس..

فقلت لها وأنا أهز رأسي امتعاضاً.

- ليس لدي أي جواب.. فالسؤال بحد ذاته..

فقاطعتني الضابطة الشابة بقولها:

- ماذا؟ أتطعن بكلام سيادة الرئيس... عفواً أعني نائب الرئيس؟ يا لك من وقح حقاً...

وهنا أدركت خطورة الموقف فرحت أمعن الفكر في إيجاد مخرج سلمي أنقذ به بريشي على الأقل فرأيت أن ألجأ إلى التظاهر بالاستسلام الكلي ومناقشة الأمور سطحياً فقط.

وهنا قرع جرس الهاتف السري الموجود على يسار زكريا محيي الدين، فتناولت الضابطة الشابة السماعة وردت على المتحدث بدون أن تعير زكريا محيي الدين نفسه أي التفات.

فدهشت من هذا التصرف وأدركت أن هذه الضابطة هي على مكانة عالية في الجيش المصري بل هي موفدة من الجهات العليا لتحضر اجتماعنا كمراقبة لما يجري خلاله من حديث..

وكان المتحدث سيادة الرئيس بالذات إذ كنت أستطيع أن أميز صوت سيادته حتى ولو كان خافتاً ومن خلال سماعة الهاتف.

كما أن لهجة الضابطة وهي تتحدث إليه كانت واضحة وترد على علو المقام الذي تتحدث إليه وهو لا يعقل أن يكون بمثل هذا العلو غير سيادة الرئيس.

واستنتجت من مجرى الحديث أن هناك أمور جديدة قد طرأت الآن ويود سيادة الرئيس الاجتماع بنائبه زكريا محيي الدين على الفور، وقبل مغادرته البلاد إلى واشنطن.

وكم كانت دهشتي عندما حصلت المفاجأة، وانتقل زكريا محيي الدين إلى الغرفة السرية الثالثة التي قدمت الضابطة منها قبل قليل

على أن الشيء الذي حيرني فعلاً، هو تفهم السفاح نفسه لفحوى المكالمة الهاتفية دون أن يلتقطها مباشرة بل كانت الضابطة الشابة هي المتحدثة.

غير أن حيرتي هذه لم تطل إذ سرعان ما لمحت زراً ضوئياً صغيراً يشع أمام المكتب وبالجهة التي يجلس إليها زكريا محيي الدين نفسه. فأدركت أن هناك جهازاً سرياً صغيراً قد ثبت إلى جانب المكتب بوسعه أن ينقل المكالمات الهاتفية إلى أذن الجالس هناك دون ضجة ودون أن يتدخل في مجرى المكالمات ذاتها.

والحاصل ما أن خرج زكريا محيي الدين من الغرفة التي تضمنا ودخل الغرفة السرية الثالثة حتى تنفست الصعداء وقد وجدت نفسي أمام الضابطة الشابة فقط.

أجل لقد شعرت بالارتياح الآن وعمدت إلى إمعان الذهن في كيفية الانتقال إلى الخطوة التالية. غير انني لم أجد صعوبة في ذلك فقد لاحظت أن الضابطة الشابة هي نفسها قد بدأت بإفساح المجال أمامي بل بإيحاء الفكرة التي طرأت لذهني بغتة. حيث شجعتني على اللجوء إلى أسلوب المغازلة الجيد في استدراج حوار...

فلقد شاهدتها تبتسم لي بإشراق وحيوية من بعد ذاك العبوس الذي ظل مسيطراً على ملامحها طوال الفترة التي مرت حتى الآن.

فانتهزت الفرصة عندئذ ورددت على ابتسامتها بالتقرب منها ومهاجمتها على الفور بقبلة حارة لم تستطع معها أن تفلت من قبضة ذراعي اللتين طوقتاها دون رحمة، بينما أطبقت بشفتي على فمها الأرجواني عصرته كالمجنون، كي لا أمكنها من أن تتلفظ ولو بحرف واحد..

وهكذا نجحت ووجدت نفسي أستطيع السيطرة على الموقف، إذ سرعان ما استسلمت الضابطة الشابة لي بالشكل الذي كنت أهدف إليه...

ولكن المفاجأة التي حصلت بعد قليل كان من المرارة والخيبة لدرجة مؤسفة..

إذا ما أن هممت بالانتقال في مغازلتي للضابطة الشابة إلى الخطوة التالية، حتى أحسست بيد تهزني من كتفي لتوقظني بعنف.. فلقد كان الذي كان منذ خروجي لملاقاة ذاك السفاح حتى الآن مجرد حلم طويل وعميق الفور استرسلت وراءه على أثر إغفائي عقب خروجي من الحمام الساخن الذي أراح أعصابي ودفعني للنوم دون إرادة مني فغفوت فوق الأريكة وأنا ما زلت أرتدي البرنس لأنشف جسدي عقب الحمام.

أما الآن فقد جاءت (سهير زكي) نفسها لتوقظني من نومي بعد أن شاهدتني أرقد على هذه الصورة وأرسل الصرخات وأشير بذراعي في الفضاء فأدركت بأنني غير مرتاح في نومتي هذه.

أما كيف جاءت (سهير زكي) إلي وكيف دخلت إلى المنزل الآن فهو يعود إلى حديث آخر...

آخـر الأخبــار

مساء ٥ حزيران ١٩٦٧

■ (كنت اشك دائماً بأنك جاسوس إسرائيلي)

قال لي محيي الدين في حلمي واضاف:

لقد خدعتنا وضللتنا طيلة إحدى عشرة سنة، ولكن الآن حانت النهاية - انظر - .

وأشار لي بيده الطويلة إلى السماء في الصباح والضباب الخفيف لا زال يحجبها، كما هو الحال في كل صباح فوق النيل الذي بدأ فيه الفيضان منذ وقت قريب. ورفعت عيني إلى السماء. وفهمت ما هو مصدر الضجة الكبرى التي تملأ أذني. رأيت (وكل هذا في حلمي) طبعاً أن تشكيلات كبيرة تحلق في السماء إنها (طائرات سوخوي) العظيمة، ذات الشكل المستطيل والأجنحة التي تشبه الدلتا وذنب كذلك، وهي تستطيع ان تطير بسرعة لا تقدر الوصول إليها اية طائرة إسرائيلية، وحينما رأيت هذه الطائرات تقوم في الجو بمناورات هجومية، وتهرب، أدركت أن هناك حدوداً لميزتها الفنية، ومن بعد تلك الحدود لا قيمة لميزات الإنسان.

تقلبت بعصبية في فراشي. ووقعت يدي على جسم غريب. فرفعت رأسي مذهولاً فوجدت إلى جانبي في الفراش إنسانة عارية، حتى بدون المثلث الصغير الذي يستر ما بين

فخذيها، راقصة بلاد الفراعنة من الدرجة الأولى. وعندها فهمت لماذا قال فرعون لأخيه بعد أن شك بأنه جاسوس، (لقد جئتم إلى هنا لتشاهدوا العورات) واليوم أتذكر أن نائب الرئيس زكريا محيي الدين قال لي ذات مرة قبل سنوات:

إن اليهود يمتازون منذ (رحاب) حتى اليوم بأنهم جواسيس. وسيفهم محيي الدين ما أقوله بقلبي بعد بضع ساعات عن مدى تفوق ومهارة اليهود بالتجسس وعندها سيرسل من يقتادني مقيداً. ولكني لن أكون موجوداً ففي اللحظة التي تبدأ فيها القنابل الإسرائيلية تتساقط على مطارات القاهرة والماظة. سأقوم بتدمير كل ما يمكن أن يلقي ضوءاً على حقيقتي، وسأبتلع في أعقاب ذلك حبة السم التي أخفيها داخل السن المستعار في هذه الغرفة سوى جثة (آرام انوير) التي ماتت للمرة الثانية.

وأنا أكون قد أكملت واجبي تجاه بلادي (إسرائيل)، وقطعت يد الجلاد مثلما أردت، ومثلما أراد فيشل بل وأكثر. نعم لقد كشفت عورة مصر، ومصر الآن تماماً مثل الراقصة سهير زكي تستلقي عارية. وبعد قليل سينزل بها الدمار. وطائرات صدقي محمود أشبه ما تكون الآن بسهير زكي المستلقية بجانبي هنا. إنني لم أكره هذه البلاد ولا حكامها.

فتحت سهير زكي عينيها فجأة، ونظرت إلي. ورفعت جسمها قليلاً، وجذبت الغطاء عليها لتغطي عريها. إنها الآن في غاية الإعياء من مجهود ليلة أمس، كما أنها مستاءة لأنها فشلت في عملها في فراشي.. ولكنها لا تزال الراقصة الأولى في مصر وكل رجل هناك يراها في خياله.

التفت بالغطاء ونظرت إلي غير واثقة ثم قالت:

- إنني أخاف منك يا أنوير بك، فلماذا تنظر إلي بهذا الشكل؟

هززت رأسي، صحيح، فأنا منذ دقائق وأنا أسلط عليها نظرة ثاقبة ذات معنى، وقالت لي: أرجو أن تطلب سيارة أجرة من فضلك أريد أن انصرف من هنا، حركت رأسي موافقاً وجذبت التلفون إلي، وطلبت سيارة أجر إلى المنزل، ثم تطلعت نحو سهير زكي. ورأيتها تترك الغطاء ينحسر عن جسدها، ومظهرها يدل على أنها تتوقع مني أن أصفعها على وجهها. لكني قلت لها: ارتدي ثيابك ثم خرجت إلى غرفة الحمام. فاستحممت، وحلقت ذقني وشاربي، وانتقيت أفخر بدلة في ملابسي مع قميص حريري. وقلت في نفسي، حينما يهرعون إلى

منزلي سيجدونني بهذا اللباس، ثم رافقت سهير إلى الباب الخارجي. وبعد أن تركتها عدت إلى غرفة الضيوف حيث يرقد صدقي محمود منذ أن عاد من الحفلة الليلة ومعه سميرة. وأزحت ستائر النوافذ فتسلل ضوء الصباح إلى الداخل وغمر وجهيهما وراحت سميرة إحدى فتيات منشية الكبرى تفتح عينها ثم غطت نفسها في السرير حتى ذقنها، وفجأة سمعتها تصرخ بصوت عال، ورأيت أن صدقي محمود قد جذب عنها الغطاء بقوة وقال:

(ماذا بقي لك لتخفيه عنا؟)

ولكن سميرة تقلصت على نفسها. فقلت لها:

إنها صادقة، فلديها، من فضل الله، ما تخفيه عنا، وأردفت: سأحضر القهوة يا سيدتي وسيدي وستكون المائدة جاهزة بعد خمس دقائق فقط.

أنهى صدقي تناول القهوة، وقام وأكمل ارتداء لباسه العسكري ثم سوى من ربطة عنقه، وعاد مرة أخرى مارشال الجو في مصر. وقال بسرعة: يجب أن أسرع فالطائرة ستغادر في الساعة الثامنة والربع مطار القاهرة غرب ونظر إلى ساعته، ساعة الطيار السوداء الكبيرة الحجم. كذلك فعلت أنا وكانت الساعة حوالي السابعة والنصف. وتذكرت أن تل أبيب ستكون تنتظر مخابرة لاسلكية مني صباح اليوم حتى الساعة السابعة صباحاً بتوقيتها المحلي أي الثامنة بتوقيت القاهرة. فإذا كانت إسرائيل تعتزم الهجوم اليوم فإن طائراتها لابد وأن تتحرك الآن.

جلس صدقي محمود أمام مقود سيارته الفارهة، وعلى وجهه امتعاض زاد في تجاعيده وقال لي:

هل تحب أن تأتي معنا، للقيام بجولة في سيناء اليوم ولكنني حركت رأسي نفياً وقلت: كلا، ولكن أبلغني حينما تعود في المساء لأعد لك مفاجأة تعجبك،ورد علي باسماً ولكنني رأيت أن ابتسامته مفتعلة. فقد كان عصبياً هذا الصباح.

كذلك غادرت سميرة المنزل ورافقتها حتى الباب الخارجي ويدي على كتفها وقلت لها: خذي حماماً ساخناً، ثم نامي، وفي المساء سيعود إليك نشاطك.

وعدت إلى داخل المنزل وأغلقت الباب ثم أعددت رموز المخابرات اللاسلكية وكانت متضمنة لكل ما يلزم، حتى أدخلت فيها علامات الوقوف والاستفهام والإشارة التي كنت في المدة الأخيرة لا أعتمدها في مخابراتي اللاسلكية لئلا يطول وقتها. ولكن اليوم يجب أن لا يكون هناك أي احتمال في أن يخطئوا أو يستعصي عليهم جزء منها، فهذا هو يومي الأخير، ومخابرتي اللاسلكية الأخيرة.

بعد ساعتين من نزول الضربة الجوية على مصر سيفهم (السفاح) زكريا محيي الدين من هو الخائن الموجود في قيادة سلاح الجو المصري. الخائن ليس هو صدقي محمود، الذي سيكون عند نزول الضربة داخل طائرة نقل متوجهاً إلى قيادة مرتجى. نعم ليس الخائن هو صدقي محمود الذي سيكون ملقى بعد الضربة الجوية بين حطام طائرته في رمال سيناء.

الخائن الموجود في قيادة سلاح الجو المصري هو (آرام أنوير) الذي ظل في وقت الضربة جالساً على شرفة منزله وينظر إلى الطائرات المصرية وهي تتحطم على أرض المطارات. فتحت جهاز اللاسلكي وناديت:

من روما

إلى المسؤول

وجاءني الجواب - من المسؤول إلى روما. أسمعك.

وبدأت بإرسال المخابرات التالية:

نجحت الحفلة نجاحاً كاملاً (٠) يتوجه عامر وصدقي محمود بالطائرة إلى بير ثمادة في الساعة ٨,١٥. من مطار القاهرة غرب (٠) يقابلا هناك جميع قيادة سيناء (٠) الاثنان فقط مخولان باستخدام صواريخ من الأرض إلى الجو (٠) نقلت إلى مطار الأقصر ثماني طائرات طوبوليف وعشر طائرات اليوشن وأصبح في الأقصر الآن ١٦ طائرة طوبوليف وعشرين طائرة اليوشن (٠) نقلت طائرات سوخري من الأقصر إلى الغردقة، ونقلت طائرات ميج ٢١ من القصر إلى أسوان (٠) الغيت حالة الطارئ والاستعداد في سلاح الجو المصري وحالفكم النجاح(٠) انتهى.

وانتظرت قليلاً لأتلقى إشارة الانتهاء، ترى ماذا يقول فيشل على نص هذه المخابرات الأخيرة لو كان موجوداً؟ لاشك أنه كان سينحني إلى الأمام قليلاً، ويلقي على المخابرة نظرة خاطفة ويشير بإصبعه إلى كلمة (وحالفكم النجاح) ويقول: احذف هذه الكلمة فلا حاجة لها.

تبدو القاهرة الآن خالية، فجميع ضباط القيادة يودعون المشير وصدقي محمود في المطار. وفي سيناء، في قاعدة بير ثمادة في المطار المجاور للقيادة الرئيسية يقف الآن مرتجى وجميع قادة الفرق العسكرية ينتظرون قدوم قائدهم الأعلى. ولا شك أن اللواء الشاذلي يقف هو الآخر هناك بجانب صديقه بطل اليمن كامل مرتجى، بينما قواته الخاصة موزعة في جميع منطقة سيناء. كذلك فلابد وأن يكون (صدقي عواد علي) الملقب - الغول - قد ترك فرقته المصفحة الرابعة، أفضل وحدة مقاتلة في الجمهورية العربية المتحدة، ويقف الآن منتظراً في المطار لاستقبال (عبده). كذلك لابد وأن يكون قد جاء عبدالقادر الذي اشتهر في اليمن من قيادته في النخل وجميعهم يقفون عند المدرجات الطويلة ينتظرون القادمين الكبيرين.

وهنا سمعت من جهاز اللاسلكي صوتاً يقول - انتظر - ونظرت إلى ساعتي، كان الوقت السابعة و٥٠ دقيقة صباحاً. قلت الهجوم الآن وإلا فلا. وفجأة داهمني شعور بالخطر. فقمت وانحنيت على شباك الغرفة الذي تغطيه ستارة ورأيت بقرب باب المنزل سيارة تتحرك ككلب الصيد يقتفي أثر سيده، كانت السيارة الروسية السوداء التي تحتوي على أجهزة الرصد اللاسلكية التي تحدد أماكن وجود أجهزة الإرسال السرية.

آخر اللحظات الحاسمة

مساء ٥ حزيران ١٩٦٧

▣ كانت الغرفة الواقعة تحت سطح الأرض تبدو صغيرة بالرغم من سعة حجمها. فإن شبكة الرادار المضيئة لفتت انتباه الجميع. إن شبكة الرادار، وأجهزة اللاسلكي والتلفون والطاولات، والخرائط الكبيرة، كل هذه بدت وكأنها تملأ الغرفة. والساعة الكهربائية المعلقة على الحائط كانت عقاربها تسير إلى الساعة ٦,٠٠ والجميع ينظرون إلى العقارب الكبيرة بينما على شاشة الرادار لم يظهر أي شيء.

المجندة الإسرائيلية (النائبة) التي تسلمت في هذه اللحظة بطاقة من الضابط خرجت مسرعة من الغرفة، وكادت تصطدم بالباب وبرجل قادم من الخارج. ولكن الرجل تراجع إلى الخلف قليلاً، وأشار للنائبة بيده أن تمر قبله وقال: لدس فيرست.. أي السيدات أولاً.. ثم أردف صباح الخير يا راحيلي (اسم الدلع لراحيل) وردت النائبة بارتباك صباح الخير أيها القائد. وأسرعت خارجة، ودخل القائد الكبير محركاً يده بسرعة، مشيراً إلى الحضور بأنه ليس من الضروري أن يؤدوا له التحية العسكرية وقال: صباح الخير يا رجال: وما هي أخباركم؟ ورد عليه الزعيم قائلاً: كل شيء على ما يرام، وكان هذا الزعيم قائد سلاح الجو الإسرائيلي.

ونظر القائد الكبير إلى شاشة الرادار، ومرت الإبرة فوق الشبكة المقعرة محدثة بعض الصوت. ولكن شيئاً لم يظهر داخل الدائرة البيضاء المستديرة.

(هل الرجال جاهزون - قال القائد الكبير لقائد سلاح الجو).

قال: نعم، ونستطيع أن نتوجه إليهم، وسحب حقيبة من فوق الطاولة وقال لسكرتيرته:

(نحن موجودون بعد قليل في غرفة الطوارئ)

وخرج الاثنان، القائد الكبير وقائد سلاح الجو، وفي أعقابهما خلت الغرفة.

في ساعة اليد الكبيرة، كان العقرب الكبير يقترب من العقرب الصغير يشيران إلى الـ٦,٠٤ وقف قائد سلاح الجو أمام رجاله بقامته القصيرة وبشاشته المعهودة، بينما ابتسم له طياروه محاولين بذلك تخفيف أعباء التوتر الذي كان يرزح عليهم كعبء ثقيل، ومن وراء قائدهم، فوق رأس القائد الكبير، كان يبدو أمامهم رقم مكتوب بالطباشير على لوح أسود هو ٧,٤٥ وأنهى قائدهم شرح الخطة بإيجاز ثم عاد مرة أخرى إلى أهم النقاط: ساعة الانطلاق من هنا إلى جميع الأهداف في مصر هي الساعة ٧,١٥. أما الانطلاق لجميع الأهداف الموجودة في سيناء ففي الساعة ٧,٢٠. يستمر الصمت اللاسلكي حتى الساعة ٧,٣٠. تماماً، افتحوا الأجهزة وانتظروا وبعد خمس دقائق تستطيعون أن تبدأوا بالتحدث بينكم داخل التشكيلات الجوية

قصف المطارات الموجودة في سيناء يبدأ في الساعة ٧,٤٠. في وقت واحد لجميع المطارات. أما قصف المطارات الموجودة في مصر فيبدأ في الساعة ٧,٤٥ بينما يقصف مطاري الغردقة والأقصر فيما بعد بواسطة التشكيلات الجوية التي تنطلق من الجنوب.

أعيد.. يسمح لكم بالبقاء فوق الأهداف سبع دقائق. وأقصى حد هو ثماني دقائق. وإذا فاتكم شيء خلال هذه المدة فاتركوه لزملائكم. فمن حقهم أيضاً أن يفعلوا شيئاً، الآن صححوا المعلومات التي صدرت إليكم.

لا تطيروا على ارتفاع ٩٠ قدماً إنما على ارتفاع ٣٠ قدماً.. وأنا أعرف أن ذلك ليس سهلاً، ولكن أعرف أيضاً بأنكم تستطيعون أن تفعلوا ذلك.

كان الطيارون جميعهم يعرفون أنهم يستطيعون أن يفعلوا ذلك، وإذا لم يكن من اجلهم هم فمن أجله هو.

وقال قائد سلاح الجو.. إن العدو جاهز بلا شك، ونريد أن نضمن عدم استطاعته اكتشافهم قبل اللزوم. البحر الآن هادئ جداً، وتستطيعون السير فوقه احذروا من الاقتراب كثيراً من سطح الماء. هل من أسئلة؟

ورفع أحدهم يده، فقال له القائد:

نعم يا شلومو. ماذا تريد أن تسأل؟

قال شلومو بجدية: إذا كان من الضروري أن نطير على ارتفاع قليل جداً من سطح الماء، ألا ترى أنه من الواجب أن نأخذ معنا المناشف؟

وانفجر الطيارون بالضحك ومعهم قائدهم. ولكن الجندي الأول (قائد الجيش) سلط نظرة ثاقبة إلى الطيارين، ثم هدأت تعابير وجهه، ولكنه واصل النظر إليهم، إلى هؤلاء الشباب الذين لم يكونوا قد ولدوا حينما كان هو جندياً يتدرب في الحرب. اليوم هؤلاء سيكونوا هم الذراع الطويلة النشيطة، وهو يجلس ينتظر عودتهم.

قبل حوالي -٢٠٠- سنة قال رجل أصيل من فيرجينيا اسمه جورج واشنطن لقائد صيادي الأسماك في ماريل هيد: لم أصدق مطلقاً، بأن مصير بلادي ومصير العمل الذي أتزعمه سيكون مرتبطاً إلى هذا الحد بعدد من صيادي الأسماك، فقد قام أولئك الصيادون بنقل جيشه، جيش - جورج واشنطن - في ليلة شتاء عاصفة بعيد الميلاد سنة ١٧٧٦ إلى ما وراء نهر دلغار حيث هجم الجيش على المعسكر البريطاني الذي كان يبيت ليلة سكر ثقيلة بعد حفلة المجون والخلاعة. فهل يتكرر ذلك الحدث الذي وقع قبل حوالي - ٢٠٠ - سنة، في مصر اليوم؟ هل تنجح الخطة المضللة التي وضعها رجل مجهول ولكنه لم يخطئ حتى الآن؟

وعاد القائد الكبير ينظر إلى الطيارين ثم قال بصوت هادئ:

لقد حفرت حول هذه المدينة في الأسابيع الأخيرة مقابر كبيرة.. وانحنى الجندي الأول إلى الأمام قليلاً نحو الطيارين حتى تخيل كل واحد منهم أنه يريد منه شيئاً معيناً، وبنفس الوقت فهم كل طيار أنه وزملاؤه يستطيعون أن يفعلوا ما يريده القائد، وكان كل طيار يعرف أنه سيصل إلى الهدف، دون أن يخطئ ويدمر طائرات العدو في كل مكان. لأن هذا الرجل الذي يتكلم الآن هو الناطق بلسان آلاف الجنود القابضين على الزناد مقابل

الصحراء، بل كان الناطق بلسان الأطفال الذين تعلو البسمة شفاههم الآن في نومهم، وسينتظرهم هنا حتى يعودوا من المهمة منتصرين. وشعر كل طيار بأنه سيدمر كل طائرة معادية تتحرك، وأن المدفعية المضادة للطائرات لن تصيب طائرته، وأن الصواريخ التي تطلق من الأرض إلى الجو والتي تبلغ سرعتها - ٣ - ماك لن تستطيع اللحاق بطائرته، ويعود كل طيار سالماً ليقول لهذا الرجل (لقد نفذت)، سيعودوا، وينطلقوا من جديد إلى الأهداف مرات ومرات، وستنبت الريح أجنحة جديدة لطائراتهم التي ستهزأ بالمدافع المضادة وستكون إصابة الطائرات للأهداف الأرضية إصابة دقيقة لم يسبق لها مثيل.

لقد أنهى الرجل كلامه، وانبعث من وجهه نور الصباح المشرق على الصحراء وفي عينيه بريق النار التي ستلتهم الجيش المصري بأسره، وهؤلاء الطيارون سيكونون ذراعه الطويلة النشيطة المنتصرة. وارتكز القائد الكبير بيده على الطاولة، بينما صمت الطيارون، ولكن شلومو صاحب النكتة، شلومو قائد طائرة السوبر مستير الذي لا يعرف الراحة مطلقاً قام واستدار نحو رفاقه وقال وهو لا يزال يرفع يده في محاولة للفت الأنظار:

بماذا بعد؟

وقال الطيارون في صوت واحد.. سماء صافية.

وفي ساعة يد القائد الكبير كان العقرب الكبير يهبط نحو العقرب الصغير، بعد قليل سيكون فوقه وتكون الساعة ٦,٢٩، وفي الجهة اليمنى بالساعة يقف الرقم - ٥ - وحيداً - تاريخ اليوم - .

خرج الطيارون واحداً تلو الآخر، وفي آخرهم بالطبع الطيار شلومو، الذي تمهل قليلاً بجانب القائد الكبير ثم أدى له التحية العسكرية وقال:

أيها القائد، إن الحفر التي تحدثت عنها، يجب إغلاقها حالا. فربما يسقط فيها أحد بالليل دون أن يعلم، وعاد وألقى التحية العسكرية، إنه جندي مطيع جدي وغمز بعينيه القائد الكبير، واندفع إلى الخارج ليلحق برفاقه.

أشار عقربا الساعة إلى ٦,٥٠ وبدت الغرفة الواقعة تحت سطح الأرض والمخصصة لمجموعة صغيرة تغص بالحضور. كان القائد الكبير يجلس إلى الطاولة يحتسي شراباً ساخناً،

ولكن نظره كان في مكان آخر. كان عقرب الثواني يتحرك بسرعة يجمع في جعبته دقيقة واحدة مع كل دورة كاملة. وفجأة دخل الغرفة مسرعاً ضابط صغير، نظر إلى الداخل وقدم للقائد الكبير رسالة مغلقة بسرعة. وفتح القائد الرسالة وقرأ محتوياتها التي لم تزد عن مساحة خمسة أسطر، ثم وقف ونظر إلى قائد سلاح الجو وقال مسرعاً:

أريد أن أتحدث مع الطيارين الذين سيهاجمون قاعدة بير ثمادة حالاً وسريعاً. وقال قائد سلاح الجو لمرافقه، استدع حالاً التشكيل الجوي الذي سينطلق إلى الهدف رقم - ٧ - وأضاف عليهم أن يتجمعوا حالاً في غرفة العمليات الجوية، الدفعات الثلاث كلها، وخرج المرافق وقال القائد الكبير

هل تستطيع أن تتصل بالطيارين الذي سينطلقون إلى مطاري الغردقة والأقصر؟ واستطرد.. إن عامر وصدقي محمود سيطيران الآن من مطار القاهرة غرب إلى قاعدة بير ثمادة. وأريد ضرب تلك القاعدة بدون توقف بحيث لا تستطيع الطائرة المقلة لهما أن تهبط هناك. أما في مطاري الأقصر والغردقة فقد تبدل الوضع، وقدم القائد الكبير الرسالة إلى قائد سلاح الجو فقرأ فيها بسرعة وقال: سنضطر إلى زيادة عدد الطائرات، كان الضابط الصغير، لا يزال يقف إلى جانب القائد ينتظر التعليمات. وقال القائد الكبير: أبلغه بأن يتلف المخابرة اللاسلكية فوراً، وأن ينصرف في الحال. وخرج الضابط الصغير مسرعاً، بينما خرج القائد الكبير للتحدث مع الطيارين المختصين بقصف بير ثمادة، ويعلمهم بأن يسبقوا باقي التشكيلات بثلاث دقائق لضمان قصف القاعدة باستمرار بدون توقف، والتأكد من أن الطائرة التي ستأتي إلى تلك القاعدة من جهة الغرب لم تسقط.

وهنا قدمت عاملة المقسم العسكري سماعة التلفون إلى قائد سلاح الجو، ولكن في هذه الأثناء وقع نظره على ساعة يده وكانت تشير إلى ٧,٠٠. وفي هذا الوقت بالضبط تنطلق الطائرات من الأرض نحو قاعدتي الأقصر والغردقة، وتطير بصمت لاسلكي تام.

الساعة ٧,٥٢. تل أبيب أبلغتني أن انتظر وأنا لا أزال أنتظر. ولكنني أعرف بأنني لن أجيب على أي سؤال. ذلك لأن سيارة الرصد اللاسلكي تقف على باب منزلي، وأية حركة مني في جهاز اللاسلكي بمثابة نداء للسيارة للقبض علي. ولكن أهم شيء هو أن أتلف الآن الرموز اللاسلكية، فلم أعد بحاجة إليها.

بعد ساعة واحدة ستظهر أهمية السنوات التي أمضيتها هنا في مصر، أو لا تظهر على الإطلاق. وبعد ساعتين أو ثلاث ساعات سيفهم كل من في رأسه عقل ماذا فعلت هنا خلال السنوات الطويلة التي أمضيتها في مصر.

وفجأة سمعت صوت الجهاز يرسل مخابرة لي، فاسرعت لأتلقى ما يلي:

هـ - ش - م - د، هـ - ك - ل، م - ى - ى - د - و - ه - س - ك - ل - ق، هـ - ش - م - د. هـ - ك - ل - و - هـ - س - ت - ل - ق. انتهى

وكانت بمعنى أتلف كل شيء فوراً وأنصرف. أتلف كل شيء وانصرف.

أطفات جهاز اللاسلكي. عدت أنظر عبر الشباك، ورأيت أن سيارة الرصد اللاسلكي لا تزال تقف عند الباب بفارغ الصبر. ثم أخرجت من داخل القاصة الحديدية بلطة كانت موجودة فيه وحطمت بواسطتها جهاز اللاسلكي وجهاز التصوير الصغير، وجمعت الحطام في وعاء ألقيت به في المرحاض ليختفي مع تيار الماء. ثم خرجت وأبقيت حنفية الماء مفتوحة على أشدها وبدأت ألم بقايا الماضي مثل السلك الهوائي الخاص بجهاز اللاسلكي، وحطام الزجاجة التي كانت تحتوي على الحبر السري وحبوب السم وأشرطة التصوير الصغيرة، وألقيت بكل شيء يشير إلى الماضي في داخل حفرة المرحاض مع الماء. وهكذا غسلت أفضل سني حياتي حبي وعذابي، وأصبحت الغرفة الآن خالية تماماً من أي شيء يدل على عملي الحقيقي.

وفي الساعة الثامنة و١٢ دقيقة رفعت سماعة التلفون واتصلت بمطار القاهرة الدولي وقلت لعاملة المقسم:

اعطني الخطوط الجوية التركية يا حلوتي..

وقالت عاملة المقسم - صباح الخير يا أنوير بك، أنا نجاة، كيف حالك؟

قلت - أشكرك يا عروسة، أعطيني الخطوط الجوية التركية.

وجاءني صوت امرأة يقول:

هنا الخطوط الجوية التركية، صباح الخير.

قلت: يتكلم أنوير، متى ستطير أول طائرة عندكم؟

قالت: بدون تردد، في الساعة الثامنة و٤٣ دقيقة، رحلة إلى أنقرة رأساً، هل تريد أن نحجز لك مكاناً يا أنوير بك؟

قلت: نعم يا حبيبتي، احجزي لي مكاناً في الطائرة وساصل في الوقت المناسب. خطر في فكري خاطر اخير.. أن السفاح (زكريا محيي الدين) لن يال جهداً في معرفة كل شيء.

جمعت بسرعة أوراقي الخاصة التي كنت أرتبها داخل ملفات كبيرة، وتتضمن الأبحاث التي دامت سنوات عن العناصر السماوية الغريبة وأسرار الفضاء التي لا يعرف أحد عنها أي شيء. وقلت في نفسي، إذا انقطع رزقي الحالي فإنني سأشتغل كمحاضر عن أسرار الفضاء. والقيت بجميع الملفات داخل القاصة الحديدية وأغلقتها ووضعت المفتاح في جيبي. وإذا استطاع السفاح أن يفتح القاصة فإنه لن يجد بها سوى ملفات مملوءة بالأرقام والحسابات الغريبة. وليس في بلاد النيل كلها سوى رجل واحد يستطيع أن يشرح له بأن الأرقام والحسابات هي نتائج ابحاثنا وقياساتنا وحساباتنا وتقديراتنا الخاصة بالفضاء واخرجت من محفظتي رزمة من الأوراق المالية، ثم نظرت إلى الخارج ورأيت أن سيارة الرصد اللاسلكي التي كانت تقف عند باب المنزل قد انصرفت. وفجاة سمعت قرعاً على الباب. وقلت في نفسي، هل أخرج من الباب الخلفي؟ ولكن كيف سأصل إلى سيارتي الواقفة عند الباب لرئيسي؟ وعاد جرس الباب يقرع من جديد وتذكرت أنه لابد وأن يكون القادم هو (الخادمة).

في مطار القاهرة غرب كان يجلس بسيارته قائد سلاح البحرية المصري الأدميرال سليمان عزت، وكان قد استدعي خصيصا من إجازته، وحضر إلى المطار لوداع المشير الذي توجه إلى سيناء يرافقه قائد سلاح الجو صدقي محمود وكل من قائد قوات الصاعقة جلال هريدي وعدد من كبار ضباط القيادة. كان الوداع حاراً ثم توجه كل رجل لسيارته، وكان من بينهم مصطفى هلال صديق وزير الحربية، والطيار عفيفي رئيس قسم العمليات الجوية، والطيار لبيب رئيس قسم الدفاع الجوي. الساعة الآن الثامنة والنصف صباحاً، وتوجه الجميع إلى مطعم فندق شبرد لتناول طعام الفطور، بينما ظل سليمان عزت مستلقياً على كرسي سيارته وابتسامة الرضى على وجهه الممتلئ وعلى بدلته العسكرية البيضاء أربع صفوف من الأوسمة. هل سيحظى بصف جديد من الأوسمة أم أن الحرب ستنتهي هذه المرة بدون طلقة واحدة؟

حرك يده إلى رفاقه وقال للسائق: إلى مطعم شبرد.

في قاعدة بير ثمادة، وقفت إلى جانب المدرج سرية من جنود سلاح الجو بسلاحها، تنتظر الطائرة المقرر أن تصل إلى القاعدة. وفي ناحية أخرى بالقاعدة يقف الضباط وبمقدمتهم اللواء عبدالحميد عبدالسلام دغيري، قائد القوات الجوية في سيناء. الحفلة الراقصة في قاعدتهم استمرت في هذه الليلة حتى ساعة متأخرة ولابد أنه حينماتوجه إلى منزله قرب القاعدة قد رافقته كما هو متفق عليه، ضيفة الشرف في الحفلة الراقصة غادة فخري، وعند دخولها إلى منزله ابتسمت له وقالت كأنها تفشي سراً:

إن صديقك آرام أنوير طلب إلي أن أكون لطيفة معك. وقال لي أيضاً بأن رجولتك أقوى من رجولة كامل مرتجى. وطالب أن أعرف ذلك وأتأكد بنفسي، فلربما كذب علي آرام، كما كذب علي عندما قدمني لكامل مرتجى الذي حينما يخلع لباسه العسكري يصبح فاشلاً، طوز طوز.. وقرر دغيري أن يستجيب للتحدي ونجح به بشرف. في الصباح حينما توجه لاستقبال قائد القوات المسلحة للجمهورية العربية المتحدة، قالت له ذلك غادة ببساطة كعادتها... والآن يقف الدغيري إلى جانب كامل مرتجى، قصير القامة ولكنه يعلوه برتبة واحدة، ومع ذلك فهو طوز فاشل إلى الله، حينما يخلع لباسه العسكري، كما قالت غادة، وشهادتها صادقة للغاية.

أحس الدغيري بالإعياء في جسمه، ولكنه في قلبه كان راضياً سعيداً. فقد أثبت لنفسه أن رجولته قوية، والآن تتمدد غادة بجسدها اللدن في غرفته تنتظر عودته، وفجأة ابتسم وقال في نفسه:

ترى، هل ستخبر غادة، آرام أنوير بأنها هذه المرة لقيت لذتها.

وارتفعت الشمس على وجه الصحراء من وراء تلال الكونتيلا حيث تنتشر وحدات القوة الخاصة التي يقودها اللواء الشاذلي، وهي الوحدات التي ستدخل إسرائيل فور صدور الأمر. ولكن الآن يقف اللواء الشاذلي هنا بجانب كامل مرتجى يتحدث مع - الغول - قائد الفرقة المصفحة الرابعة التي ستوجه لإسرائيل الضربة المصفحة القاضية.

جميع قادة الفرق العسكرية يقفون هنا ينتظرون قدوم المشير، ويبتسم الدغيري من جديد، فبعد أن يقابل صدقي محمود سيحاول أن يتهرب من الجولة ويعود إلى غرفته الباردة

إلى أحضان غادة الدافئة.. آه - يا آرام ما أجملك، فأنت تعرف دائماً ماذا تقدم لأصدقائك..سمع صوت محرك، ووجه الجميع أنظارهم إلى الغرب، ليروا الطائرة التي تقل قائدهم.. ومع أن صوت المحرك كان يرتفع إلا أن الطائرة لم تظهر. ثم أصبح الصوت أقوى واشد، ولكنه جاء هذه المرة من جهة الشرق وحينما تحول الدغيري بنظره إلى الخلف إلى مصدر الصوت رأى مع ضوء الشمس أربع طائرات مقاتلة في تشكيل حربي تداهم القاعدة وأدرك أن هذه الطائرات ليست طائرات ميج مصرية، فإن منقارها الطويل وأجنحة الدلتا ونجمتي داود التي تشاهد بوضوح تحت الأجنحة تدل على أن هذه الطائرات ما هي إلا طائرات ميراج الإسرائيلية.

انقضت نصف ساعة، طائرة المشير عامر تنجح للمرة الثالثة في التهرب من الطائرات المقاتلة الإسرائيلية. ولكنها لا تقدر على الهبوط، فجميع المطارات تتعرض للهجوم، ومدرجاتها تصاب بالقنابل وتتعطل. ونصف ساعة أخرى مرت والطائرة لا تزال تحلق في الجو، حمامة في الجو بدون أن تعثر على مواطئ قدم، وفي القيادة العسكرية في بير ثمادة تحت الأرض، يحاول كامل مرتجى وقادة الفرق العسكرية الاتصال بالقوات الموجودة في القاعدة ولكن خطوط التلفون لم تعد صالحة وأجهزة اللاسلكي تذيع باستمرار نداءات الاستغاثة. وأخيراً يستطيع الشاذلي أن يتصل برئيس أركانه ويأمر بالتوجه نحو النقب. ولكن رئيس أركانه يقول بأن الاتصال مقطوع بينه وبين غالبية الوحدات التابعة له. وأصبح مطار بير ثمادة غير صالح الآن وليست في سيناء طائرات صالحة يستطيع القادة الوصول بها إلى وحداتهم. ونجح - الغول - كذلك في الاتصال بقيادته وأمر قواته بالتحرك من أماكنها حتى يصل إليها بعد توقف القصف الجوي.

وفي طريق الإسكندرية كانت تتحرك سيارة كبيرة مسرعة وفي مقدمتها يرتفع علم قائد سلاح البحرية سليمان عزت، الذي يسرع نحو قيادته البحرية.

إن معظم قادة الفرق المصرية لم يتمكنوا بالمرة من الوصول إلى وحداتهم وفي المساء تحركوا برئاسة قائد القوات البرية في سيناء الفريق كامل مرتجى إلى القاهرة لتقديم تقارير عن الوضع وطلب نجدات.

وأخيرا تحطمت الطائرات

٥ حزيران ٩٦٧

■ أخذ المضيق الرفيع بالتوسع نحو الشمال، كتلة صغيرة من الصخور مرت بجانبهم ترتفع إلى الأعلى، إنها تيران.وعلى اليمين شوهدت أراضي شبه جزيرة سيناء، وديان عميقة بين الجبال، مناطق خالية، وقطاعات ضيقة على الشاطئ. وبعد ذلك تصل طائرات الميراج الأربعة إلى البحر المكشوف، وفي جهاز اللاسلكي جاء صوت قائد سلاح الجو ينادي الطيار (يورام).

هالوا ريشه ٨، هل تسمعني؟ أجب

كان الطيار يورام هو الرقم واحد في القوة الجوية يطير بالارتفاع المطلوب ٣٠ قدم فوق مياه البحر الهادئة الخاصة بضرب الهدف رقم - ٨ -، وأجاب في جهاز اللاسلكي:

هنا ريشه ٨، أسمعك، أجب.

ثماني طائرات سوخوي قادمة نحوكم، فهل تستطيع أن تتدبر الأمر؟

نعم أيها القائد سأتدبر أمرها.

أتمنى لكم النجاح.

وهنا جاء صوت آخر في جهاز اللاسلكي يقول:

الهدف ٣ يغطيه ضباب منخفض.

وتحول يورام إلى جهاز اللاسلكي الداخلي في طائرته للاتصال ببقية تشكيله وقال، إلى اليمين ٢٨ درجة، واضح؟ وجاءته أصوات بقية طائرات التشكيل واحد بعد الآخر:

الرقم ٢ واضح.

الرقم ٣ واضح.

الرقم ٤ واضح.

كانت القوة الجوية التي تحمل رقم -٨- تشير بالاتجاه للجنوب، جنوب شرقي. ولكنها الآن تحولت إلى الاتجاه الجنوبي الشرقي. أمامها بقيت مسافة ٧٠ ميلاً. وهي تطير بسرعة ٦٠٠ ميل في الساعة، ولذلك ستصل الهدف قبل ثلاث دقائق قبل الوقت المحدد بدقيقة أو دقيقتين. ويقول قائد القوة يورام في نفسه غير مهم، فالتوقيت على ما يرام. فإن طائرات السوخوي التي نقلت إلى المطارات التي ستقصفها مناسبة طيبة. وتشبه هذه طائرة ميج ١٩، إلا أن خطوطها أبسط، كما أن حجمها أكبر من ميج ١٩ أما محركاتها فهي قوية جداً وتستطيع أن تقوم بالمناورة والتهرب بشكل ممتاز جداً، لذلك يجب أن تبدأ الضربة الجوية على هذه الطائرات، ومن ثم يوجه القصف لطائرات ميج ٢١ وأخيراً ميج ١٩. إنها ٣٠ طائرة وليتها لا تستطيع أن تطير. الساعة الآن ٧,٤٧ وبعد سبع دقائق يكون التشكيل فوق الهدف.

قال يرام في جهاز اللاسلكي الداخلي، بين طائرات التشكيل فقط: انتبهوا، سنقصف طائرات السوخوي قبل طائرات ميج ٢١. الرقم - ٢ - ينزل إلى المدرجات، كما قلنا. وبعده اقوم أنا بإنهاء تدميرها. الرقم - ٣ - وكذلك الرقم - ٤ - تقومان بتدمير أكبر عدد ممكن من طائرات سوخوي في أول غارة هل تستطيعان التعرف عليها بالتأكيد؟

وأجاب الرقم - ٣ - بالإيجاب وكذلك الرقم - ٤ - مضيفاً، أنها تشبه ميج ١٩ إلى حد ما. وقال يورام.. بعد ذلك نواصل العمل المتفق عليه.

وظهرت على يمين التشكيل جزيرة مستطيلة، هذه هي القاعدة، على بُعد ٢٥ ميلاً فقط، وجاء الصوت في جهاز اللاسلكي - دقيقتان ونصل الهدف.

في مطار الغردقة العسكري تسود الفوضى. فقبل بضع دقائق وصل نبأ غير واضح من برج المراقبة في بني سويف يقول بأن طائرات غريبة تقصف المطار. ولم يكن المستطاع الاتصال بالقيادة العامة في القاهرة. ولكن يفهم من الاستماع إلى أجهزة اللاسلكي التي تذيع نداءات النجدة والاستغاثة أن عدداً من المطارات تتعرض لقصف من العدو والقوة الجوية التي وضعت بقيادة المقدم صالح عبدالنبي، قائد محطة الغردقة كان هدفها هو مهاجمة الطائرات الإسرائيلية من الخلف حينما تأتي من جنوب سيناء وخليج السويس وتحاول أن تصل بالالتفاف من الشمال إلى مطارات القناة الدلتا. والآن تتعرض تلك المطارات إلى الهجوم بدون أن يعرف الاتجاه الذي جاءت منه طائرات العدو. فلم يظهر شيء على شبكة الرادار حتى بعد توجيهه إلى أبعد مدى. وعلى أي حال فقد جاءت أصوات الاستغاثة، والطيارين الذين دخلوا فرشهم قبل ثلاث ساعات عادوا مسرعين إلى طائراتهم أن أمراً واحداً كان معروفاً لعبدالنبي. أن عليه أن يرسل جزءاً من قواته الجوية لمساعدة المطارات التي تتعرض للهجوم في الشمال، وإلا فإنه سيعتبر مهملاً في واجبه، وإلى جانب ذلك عليه أن يبقي قوة كبيرة في القاعدة فحينما يتضح الأمر أكثر يستطيع أن يقرر أين سيرسل القوة المتبقية. الآن أصدر أوامره بالطيران لعدد من طائرات ميج ٢١ لتتحرك إلى بني سويف وتقوم بتدمير الطائرات المهاجمة للمطار هناك. وتواصل تلك الطائرات بعد ذلك طيرانها نحو الشمال إلى منطقة القاهرة لتقدم المساعدة للمطارات المهاجمة هناك.

وانطلقت طائرات الميج كل اثنتين مع بعض في دقيقة واحدة. وكان القائد ينظر إليها من مكتبه وهو مسرور، فإن رجاله لم يفشلوا، وبعد ثلاث دقائق كانت الطائرات قد غادرت المطار واختفت عن النظر. وتنفس الصعداء ثم نظر إلى ساعته وكانت ٨,٥٣ بتوقيت القاهرة، قبل عشر دقائق فقط تسلم النبأ الأول. وفجاة سمع صوت محرك، وظهرت طائرة وحيدة غريبة وغارت على أرض المطار. وقفز عبدالنبي من مقعده إلى الشباك ورأى أن القنابل السوداء راحت تتساقط من الطائرة الغريبة على المدرجات وتفجر محدثة اللهب الكبير. فأمسك برأسه بين يديه وأسرع إلى مكبر الصوت ليصدر أوامره بتحرك جميع الطائرات فوراً.

ومرة أخرى شوهدت طائرة غريبة تمر فوق المدرجات التي ستنطلق منها طائرات عبدالنبي وألقت بقنابلها على تلك المدرجات لتزرع فيها اللهب. وتحركت طائرات السوخوي الضخمة إلى المدرجات ولكنها لم تستطع أن تتقدم إلى الأمام، فإن النار اشتعلت في وسط المدرجات، وظهرت فيها حفر كبيرة، وأية محاولة للطيران معناها الانتحار. ثم ظهرت طائرة أخرى فوق المطار ترقص فوق طائرات السوخري الثمانية الجاثمة على الأرض، هذه الأدوات المدمرة العجيبة ذات القوة الخارقة، ولكنها تقف الآن في صف واحد بلا حماية كنساء عاريات.

انطلقت المدفعية المضادة للطائرات، ولكن الطائرة الغريبة التي مرت بالقرب من برج المراقبة واصلت تحليقها والطيارون بداخلها. وأصدر قائد القاعدة الأوامر للطيارين وهي تقصف طائرات السوخوي وتشعل فيها النيران بمغادرة الطائرات ودخول الملاجئ، وفي غضون ذلك مرت طائرة غريبة رابعة أكملت تدمير السوخوي، وشوهد طيار مصري يخرج من باب الطائرة ويحاول الهرب، فوقف ثانية وسط اللهب ثم اختفى ولم يظهر. واعتقد قائد القاعدة أن ذلك الطيار هو (حلمي) الشاب اللطيف معشوق الفتيات. وعادت الطائرات الغريبة من جديد تقصف المطار، وتنتقل الآن إلى طائرات ميج ١٩ ثم برج المراقبة وأخيراً بناية القيادة، حيث ألقيت عليها قنبلة سوداء. واشتعلت فيها النيران، وقد أدت شدة الانفجار إلى قذف قائد القاعدة المقدم عبدالنبي إلى الأعلى، وقبل أن يعود إلى الأرض لم يكن قد بقي منه سوى كتلة سوداء مشتعلة، واصدر قائد التشكيل الجوي يورام أوامره بواسطة جهاز اللاسلكي الداخلي إلى بقية أفراد التشكيل للتوقف عن القصف والعودة في الممر رقم - ٤٠ - درجة على سطح البحر خوفاً من المدفعية المضادة للطائرات. واستدارت الطائرات الأربع نحو البحر إلى الاتجاه الشمالي الشرقي، وسارت في تشكيل واحد، واصدر يورام أوامرهم بالارتفاع إلى علو ٥٠٠ قدم، وهدأت ثورة غضبه، فإن تدمير بناية القيادة لم يستغرق سوى نصف دقيقة وبذلك لن تعرف القيادة المصرية سبب توقف الاتصال المفاجئ مع هذه القاعدة.

وأمر يورام رفاقه بالطيران على ارتفاع ٤٠٠٠ قدم، وتساءل الطيارون فيما بينهم وهم عائدون عن الدخان الذي خلفوه في القاعدة المصرية، ولكن قائد التشكيل يورام أمرهم بالانتباه جيداً فإن طائرات الميج ٢١ لم تكن في المطار عند قصفه ولذلك فربما تعود.

أسرعت مجموعة الطائرات الروسية الحديثة في ذلك الوقت وسارت بسرعة تزيد عن الصوت باتجاه مطار بني سويف الذي كان مغطى بالدخان والنار ومدرجاته معطلة.

جاء صوت الزعيم (قائد سلاح الجو الإسرائيلي) واضحاً من بين بقية الأصوات..

هالو ريشه - ٩ - ، هل تسمعني يا يونتان؟ أجب.

هنا ريشة - ٩ - يونتان يتكلم، أسمعك، أجب

انتبهوا لقد نقلوا إليكم ثماني طائرات طوبوليف، وعشر طائرات اليوشن أخرى. عليكم أن تدمروا جميع طائرات طوبلويف، فهل تستطيع أن تفعل ذلك؟ فكر جيداً أجب.

وقال يونتان مستغرباً خوف قائد سلاح الجو:

نستطيع أن ندمر ١٦ طائرة، أجب.

اتركوا طائرات الإليوشن، فهي لا تزعجنا، ليس عندكم في القاعدة طائرات سوخوي، كذلك طائرات الميج قليلة. اكملوا المهمة بسرعة.

وتحول يونتان إلى خط اللاسلكي الداخلي بين طائرات التشكيل ويسأل بوشي لرقم - ١ - في التشكيل الجوي المؤلف من طائرات الميراج التي تتولى حماية التشكيل - ٩ - المؤلف من طائرات الفتيور قائلاً: هل سمعت ما قاله القائد؟

نعم، قال بوشي ونظر حوله، وكانت الطائرات تكاد تلامس أمواج البحر، ومدى الرؤيا قصير هنا فوق مياه البحر الأحمر.

واستمرت طائرتي الفيتور تطيران على وجه مياه البحر. وما أن انتهت فترة الصمت اللاسلكي حتى انطلقت الأصوات في الأجهزة وكانت الساعة ٤٧,٤٨ لقد قطعت طائرتي الفيتور البطيئة حتى الآن مسافة ٥٥٠ ميلاً وبقي أمامها حوالي ١٥٠ ميلاً تقطع تسعة أميال في الدقيقة الواحدة. ويعني هذا أنها ستصل الأهداف بعد حوالي - ١٧ - دقيقة وهي بالضبط ساعة الصفر المحددة التي تبدأ بعد مرور نصف ساعة كاملة على قصف مطارات سيناء.

وجاء صوت يونتان من طائرة الفيتور يقول:

قال بوشي: انتبهوا، سنرتفع فوق أحد الجبال.

وانتهى البحر بجبل مرتفع تخترقه وديان سحيقة، وفي طريقهم ترتفع الجبال حتى علو ٤٠٠٠ قدم تقريباً.

الساعة الثامنة وأربع دقائق. ويأخذ التشكل ريشة - ٩ - وضع الهجوم ويرى بوشي الطائرة رقم - ٢ - وهي تغير على المدرجات وتقصفها بالقرب من الطائرات الضخمة الرابضة على الأرض كأنها تنتظر أوامر الانطلاق وفي هذا المطار مدرجات كثيرة جداً ولا يمكن تعطيلها كلها بغارة واحدة. وفي الوقت الذي انفجرت فيه القنابل التي ألقتها الطائرة - ٢ - راحت طائرة الميج تتحرك. فتغير عليها بوشي ويرى أن واحدة منها تستطيع أن تفلت. فيلاحقها، ويسقطها على الأرض الملتهبة عند رفيقاتها. ويهبط يونتان بطائرته - كما تنص الخطة - إلى مباني الإسمنت التي تحمي الطائرات القاذفة الطويلة المدى ويمر فوق الصف الأول ويلقي بأول قنبلة، وبالقنبلة الثانية من طائرة الفيتور، وتقوم بقية الطائرات القاذفة الأخرى بضرب بقية القاذفات المصرية الطوبوليف في الأقصر.

وينظر بوشي إلى الساعة فإذا هي الثامنة و١٦ دقيقة. إن الوقود ينفد بسرعة ولا تزال في المطار ٢٠ طائرة اليوشن سالمة. ويأمر قائد التشكيل أفراده بالعودة بينما يتأخر هو ليدمر طائرات اليوشن بطائرته المقاتلة الميراج بواسطة الرصاص. ولكن بقية أفراد التشكيل رفضوا العودة قبل أن يعاونوه في تدمير طائرات اليوشن خاصة وأنه بقيت معهم كمية كبيرة من القنابل ولا داعي لإعادتها ثم عادت طائرات الميراج وارتفعت فوق الجبال متجهة نحو خليج إيلات. وكانت الساعة الثامنة و٣٢ دقيقة، وكان التشكيل يطير على ارتفاع - ٢٧ - ألف قدم، ففي هذا الارتفاع يكون استهلاك الوقود في الطائرة قليلاً جداً.

كان المطار الوحيد الذي لم تصب طائرة واحدة من طائراته هو مطار أسوان. ذلك لأن العقيد مدكور أبو العز من أشهر الطيارين المصريين الذين تدربوا في موسكو والصديق القديم لآرام أنوير، ومن معارضي محمد صدقي محمود، ظل ينصت طوال عشر دقائق للفوضى السلكية في جهاز اللاسلكي الكبير وبالتالي توصل إلى قرار حاسم، وعلى الفور استدعى قادة أسراب الميج في أسوان، وأمرهم بالتحرك فوراً بطائراتهم إلى الجنوب إلى أقرب مطار في السودان. وبعد أن حلقت الـ ٣٠ طائرة ميج ٢١ ولحقت بها طائرات النقل اتصل بقائد المطار السوداني وأبلغه أنه أرسل سربين من طائرات ميج ٢١ وعدداً من طائرات النقل والهليوكوبتر للنزول عنده، وطلب منه أن لا يسمح لها بالطيران بدون إذن شخصي منه. وبعد ذلك أمر أبو العز أفراد قاعدة أسوان بأن ينزلوا إلى الملاجئ، جميع المعدات المهمة، ومحاولة الاتصال مع القاهرة.

خاتمة المطاف

■ إن طائرة الخطوط الجوية التركية التي كان من المقرر أن تغادر مطار القاهرة الدولي - القاهرة شرق - في الساعة ٨,٤٣ كانت لا تزال تقف على أرض المطار، جاهزة للحركة، ولكن الأمر بالحركة لم يصدر لها بعد. وركابها، ومعظمهم من بقايا السواح والمواطنين الغربيين، أظهروا امتعاضهم من تأخر إقلاع الطائرة. كانوا جميعاً يريدون الهرب من المدينة بسرعة، ولما أشارت الساعة الكبيرة المعلقة في صدر الطائرات من الداخل إلى فوات الوقت المحدد للإقلاع قال رجل أمريكي يجلس على المقعد الأمامي لجاره:

ماذا يجري هناك؟

لا أعرف: قال جاره وكان رجلاً يدل مظهره على أنه شرقي يرتدي بدلة سوداء أنيقة، ورد الأمريكي غاضباً:

(إن هؤلاء الأتراك لا يعملون حسب الوقت بدقة) وقال جاره: لماذا الأتراك، تقول عنهم. فأنا مثلاً تركي، ولكنني لم أتأخر، فقال الأمريكي.. أو - إكسيوزمي، أوريالي سوري (أرجو المعذرة، وآسف جداً) لم أقصد الإشارة إليك.

وشوهد موظف المطار باللباس الرسمي يعطي إشارة الحركة للطائرة وراح المؤشر يعطي الإشارة لقائد الطائرة التي تحركت على المدرج، ثم انطلقت في الجو باتجاه الشمال، مخلفة المنازل وراءها، وسارت فوق مجرى النيل.

عاد الأمريكي يسأل جاره:

ماذا هنا؟ ما هذا؟

ونظر إليه الرجل ذو البدلة السوداء، ثم حول نظره إلى الجهة التي كان الأمريكي يشير إليها، وكان مطار القاهرة غرب العسكري. ومن فوق المطار شوهدت طائرتين سريعتين تقصفان المطار وتزرعان فيه الخراب والدمار واختفت الطائرتان وأعقبتهما طائرتان أخريان. وكان الرجل ذو البدلة السوداء ينظر إلى هذا المشهد كأنه لا علاقة له به ثم هز رأسه كمن يؤيد ما يجري.

وعاد الأمريكي يسأل بانفعال.. ما هذا:

ولكن طائرة الركاب ارتفعت أكثر فأكثر، فأخفى الضباب عن الأعين المطار العسكري المشتعل. ولم يرد الرجل ذو البدلة السوداء، وإنما جذب مسند مقعده وأرخاه إلى الخلف وتمدد عليه باسترخاء. وقال للأمريكي.. أرجو معذرتك، أحب أن أنام قليلاً.

وبعيداً من تحتهم، مرت الطائرات الأربعة مسرعة في طريق عودتها بالاتجاه الشمالي الشرقي، نحو بلد صغير ملاصق لشاطئ البحر.

وتحطّمت الطائرات عند الفجر

إنّها الهزيمة ، ويجب أن نستوعبها . لقد بالغنا في الاستهانة بعدوّنا ، وبالغنا في استعراض القوّة لدينا ، وأيضاً بالغنا في تصويرها كهزيمة ، وعشنا حالة دهشة لاستيعاب الحقيقة المرّة الّتي يجب علينا أن نعبر فوقها ونحن أشدّ عزماً وأقوى شكيمة . إنّها الظروف السياسيّة الّتي بالغنا في الاعتماد عليها وكانت لنا فيها عبرة لعلّنا وعسانا نستفيد منها ، وقد صار لزاماً علينا أن نعيد دراسة الواقعة ونعنى بتفاصيلها الدقيقة قبل أمورها الكبيرة ، بل بكلّ شيء فيها ، لنهيّء أنفسنا لمعركة أخرى نكون نحن أسيادها .

(وتحطّمت الطائرات عند الفجر) كتاب كتب بشوة المنتصر ، ونحن نعلم أنّ المنتصر يكتب التاريخ من زاويته ولمصلحته فقط ، ولا يرى فيه إلاّ انتصاره الّذي يحاول أن يصوّره لنا كما لو أنّه انتصار نهائيّ وكامل علينا ، ونحن نقدّمه لنثير في القارئ العربيّ عنفواناً طالما أخمد وضرب في صميمه ، ولكي يتعرّف إلى ذلك الوعي المستكبر المنطوي ، رغم انتصاره ، على قدر كبير من الاستعلاء الأبله الّذي ينبغي لنا أن ننظر إليه باعتباره الشرخ الأوّل في عرش المنتصر ، إذ لا يمكن لنصر يتعنجه ويصلف كهذا أن يدوم .

Bibliotheca Alexandrina
07004508

الأهلية
للنشر والتوزيع
المملكة الأردنية الهاشمية - عمان / وسط البلد
خلف مطعم القدس / ص.ب ٧٧٧٢ - هاتف ٤٦٣٨٦٨٨
فاكس ٤٦٥٧٤٤٥ منشوراتنا في العام ٢٠٠٣م
الغلاف : زهير أبو شايب .